قررت وزارة المعارف تدريس هذا الكتاب لطلبة دار العلوم العليا

تاريخ العرب في أفريقية والأندلس

تأليف

حسن خليفه
أستاذ بدار العلوم العليا

حسن مراد
ناظر مدرسة رشيد الاميرية

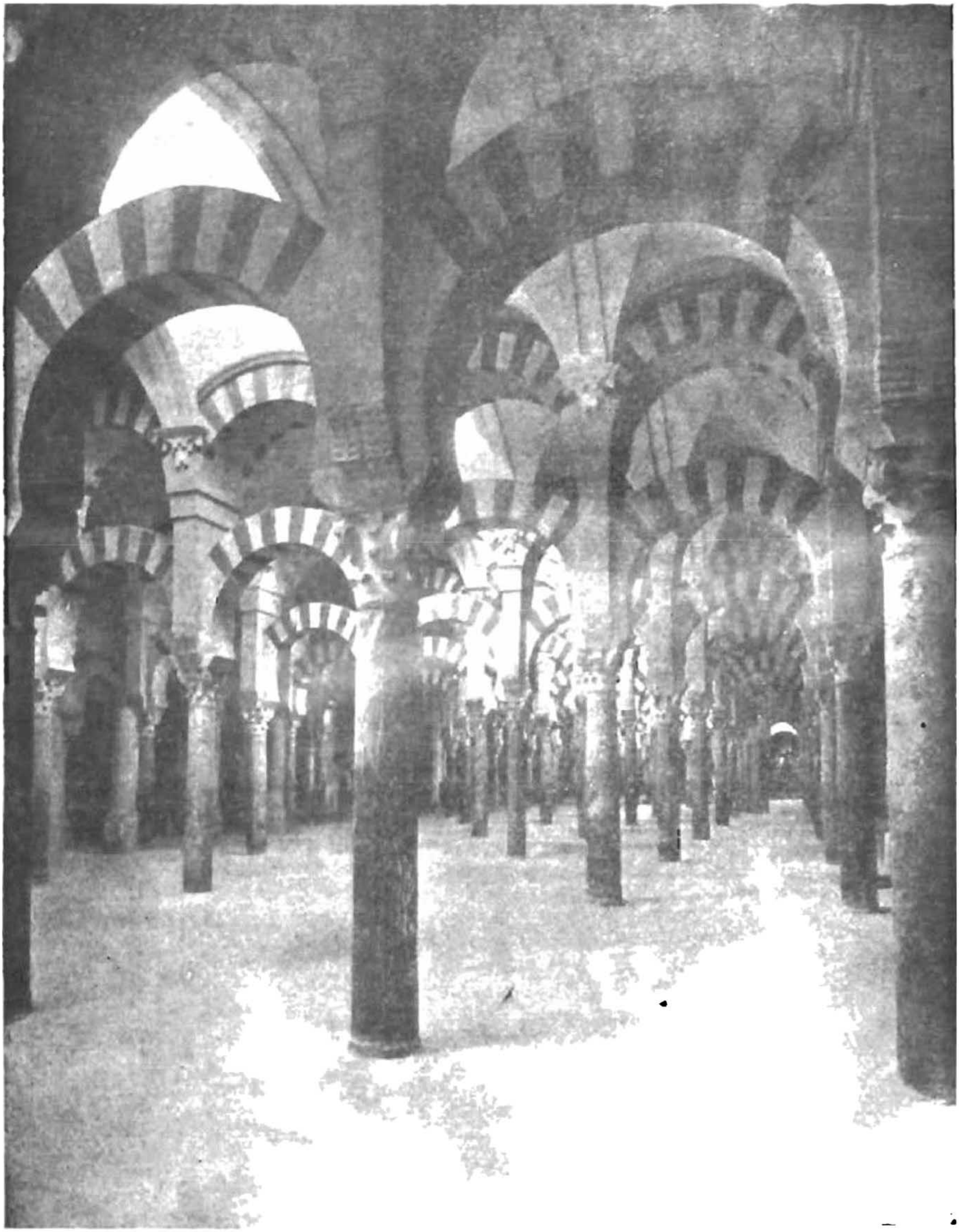
احمد ابراهيم الشرقاوى
مدرس بدار العلوم العليا

الطبعة الأولى

١٣٥٦ هـ - ١٩٣٨ م

الثمن ٤٠ قرشا

يطلب من مطبعة الاعتماد بشارع حسن الاكبر تليفون ٥٥٤٥٤



بهو المحراب الثانى للمسجد الجامع بقرطبة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

رأينا أن نقدم لجمهور القراء كتابا موجزا فى تاريخ العرب فى أفريقية والأندلس ليكون عونا للطلاب الذين يدرسون التاريخ الاسلامى فى تطوراته المختلفة ، وقد راعينا القصد فى العبارة ، والسهولة فى الأسلوب حتى يجد الطالب فيه بغيته من غير سآمة ولا ملل . وطرقنا الموضوعات التى تتفق ومنهج التاريخ المقرر دراسته على طلبة السنة الرابعة فى دار العلوم العليا .

وقد استقينا معلوماتنا من المراجع التاريخية العربية والافرنجية ، نذكر منها نفح الطيب للمقرى ، وصبح الأعشى للقلقشندى ، والاستقصا لاخبار دول المغرب الاقصى للناصرى السلاوى ، وتاريخ العرب فى اسبانيا لمحمد بك دياب ، والمؤنس فى أخبار أفريقية وتونس لابن أبى دينار ، والمغرب فى ذكر بلاد أفريقية والمغرب لابى عبد الله البكرى . والعرب فى الاندلس للكيلانى ، وتاريخ العرب فى أسبانيا لعبد الله عنان ، والفاطميون فى مصر للدكتور حسن ابراهيم ، وتاريخ العرب للسيد أمير على ، والعرب فى أسبانيا للينبول ، وأسبانيا الاسلامية لدوزى ، ومجد الحكومة العربية فى أسبانيا ليوسف مكاب ، والقاموس القديم الصغير ، ودائرة المعارف الاسلامية وغيرها من مذكرات الزملاء فى التاريخ والادب العربى

هذا وقد ضمناه بعض الصور التاريخية والمصورات التى تبين المواقع والبلدان التى ورد ذكرها والتى تفضل برسمها زميلنا الفاضل الاستاذ الشيخ محمد فخر الدين المدرس بدار العلوم العليا

وانا لنرجو من القراء أن يغفروا لنا كل تقصير وقعنا فيه ، مصلين على أمام المؤرخين وخاتم النبيين سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام

مارس سنة ١٩٣٨

المؤلفون

الباب الأول

الفصل الأول

أفريقيــــــــــــة

مقـدمة :

أطلق العرب اسم أفريقية على الأقطار الواقعة شمالى هذه القارة دون مصر ، وكانوا يقسمونها إلى ثلاثة أقسام : المغرب الأقصى ويمتد من المحيط الأطلسى إلى مدينة تلمسان ، الثانى المغرب الأدنى ويمتد من مدينة وهران إلى حدود الجزائر شرقا ، الثـالث أفريقية وتمتد من حدود الجزائر غربا إلى حدود مصر الغربية شرقا

فتوحات العرب فى أفريقية :

سارت الجيوش العربية بقيادة عمرو بن العاص بعد أن تم له فتح مصر إلى غزو برقة فى سنة ٢١ هـ وكانت تخضع لحكم الروم وحارب سكان تلك البلاد وتغلب عليهم ، وتصـالح الفريقان على أن تدفع برقة الجزية ثم تقدمت إلى طرابلس وحاصرتها نحو شهر واستولت عليها بعد أن هرب سكانها إلى سفن الروم الراسية فى البحر ، وبعد ذلك بخمس سـنوات أى فى ٢٦ هـ فى خلافة عثمان بن عفان تجدد نشاط المسلمين فى تلك الأصقاع وأرادوا اتمام اخضاعها والتوغل فى داخلها ،

وسار عبد الله بن سعد والى مصر إذ ذاك ومعه عقبة بن نافع الفهرى على رأس قوة كبيرة لمحاربة الروم الذين اجتمعوا فى جيش كبير بقيادة جريجورى لاخراج العرب من برقة وطرابلس ، والتحم الفريقان فى حروب دموية انتهت بقتل القائد الرومى وانتصار العرب وفرضت الجزية ، وأنشأ الوالى حامية فى برقة وأخرى فى زويلة وعاد إلى مصر يصحبه التوفيق فيما أراده

وقعت الحروب الأهلية فى الخلافة العربية بعد مقتل عثمان وعمت البلاد الثورات ، فانتهز الروم تلك الفرصة واستعادوا برقة وطرابلس وساروا على خطتهم القديمة فاستعبدوا الأهالى وأثقلوا كاهلهم بشتى الضرائب وأمعنوا فى السلب والنهب فاستاء الأهالى استياء شديدا ، وفضلوا حكم العرب ذلك الحكم الذى امتاز بنشر العدل والمساواة بين طبقات السكان ، والرفق بالرعية والمعاملة الحسنة وانتظروا عودتهم بفارغ الصبر

انقضت الحروب الأهلية بتأسيس الدولة الأموية واستقر الأمر والسلطان لمعاوية بن أبى سفيان فاستأنف سياسة الغزو والفتح ونشر مبادىء الاسلام ، وانتهز فرصة دعوة سكان أفريقية للعمل على خلاصهم من حكم الروم الجائر، وأرسل أحد قواده المسمى معاوية بن حديج سنة ٤٥ ﻫ فى عشرة آلاف مقاتل لمحاربة الروم ، فتقدم بجيشه وقاتل الروم وهزمهم ، وتقدم عبد الله بن الزبير إلى مدينة سوسة واستولى عليها ، وفتح عبد الملك بن مروان حصن جالولا ، وخضعت البلاد مرة أخرى إلى الحكم العرب

ولاية عقبة بن نافع :

عين معاوية فى سنة ٥١ ﻫ عقبة بن نافع واليا على أفريقية كان

قائدا قديرا ، فخرج من دمشق ومعه عشرة آلاف مقاتل من العرب ووصل بهم إلى برقة ، ومن هناك توغل فى شمال أفريقية ، وزحف غربا حتى وصل إلى سواحل المحيط الأطلسى ، ورأى أن يبنى حصنا ليكون مركزا لحركاته الحربية فبنى مدينة القيروان ليصد منها هجمات البربر من جهة البر والروم من جهة البحر ، وفى سنة ٥٥ هـ عزم على تأديب الروم الذين كانوا يكثرون من الاغارات على حاميات العرب وأملاكهم ، فتقدم بجيشه نحو مراكش واكتسح كل ما قابله من المدن واستولى على الحصون وهزم الروم هزيمة منكرة ، وواصل زحفه حتى وصل إلى المحيط الأطلسى ، وكان من نتائج هذه الحملة التأديبية الموفقة أن استراح العرب سنين عديدة من اقلاق البربر والروم لهم باغاراتهم المتكررة وقد ظل عقبة بن نافع حاكما على أفريقية حتى قتل فى سنة ٦٥ هـ وهو يدافع عن مدينة القيروان التى هاجمتها جموع من البربر الذين اندفعوا نحوها من سهول جبال الأطلس ووديانها لاخراج العرب من بلادهم لا لظلم وقع عليهم بل لأنهم قوم اعتادوا الحرب والطعان وعدم الخضوع لرياسة منظمة مدة طويلة ، وقد دافع العرب على قلة عددهم عن حصنهم دفاع المستميت وسقط قائدهم فى ساحة الوغى وسقط معه كثير من رجاله ، واستولى البربر على القيروان وارتدت البقية الباقية من العرب نحو الشرق فارين إلى مصر ، وكادت أفريقية تفلت من حكم المسلمين .

عبد الملك بن مروان واستعداده لفتح أفريقية :

تولى عبد الملك بن مروان أمر الخلافة وتأهب لاستعادة فتح أفريقية وجهز جيشا كبيرا وعهد بقيادته إلى زهير بن قيس . وأمره بالزحف اليها فنفذ زهير أمر الخليفة وخرج بجيشه فى سنة ٦٩ هـ (٦٩٣) م وحارب البربر وحلفاءهم من الروم

وانتصر عليهم وأجلاهم عن ولاية برقة ، ولـكنه ارتـكب خطأ حربيا بعد ذلك إذ فرق جنوده فى أنحاء تلك البلاد الشاسعة لاتمام اخضاعها واحتفظ بفرقة صغيرة من الجند معه وانتهز الأعداء تلك الفرصة الذهبية وهاجموا قائد المسلمين وحاربوه وقتلوه وقضوا على من كان معه من الجند ، وخرجت أفريقية من حوزة المسلمين مرة أخرى

غضب عبد الملك لخبر تلك الهزيمة وفى سنة ٧٤ هـ (٦٩٨) م أمر حسان ابن النعمان عامله على مصر أن يخرج إلى أفريقية و يحارب الروم وحلفاءهم من البربر . و يعمل على استعادة تلك الأقطار ، فخرج حسان وحارب الروم وحلفاءهم وانتصر عليهم واستولى على القيروان وحاصر مدينة قرطاجنة واستولى عليها وأرجع للمسلمين هيمنتهم بعد أن طرد الروم من تلك البلاد التى خضعت من برقة إلى المحيط إلى سلطان الخلفية الأموى

الـكاهنة :

ظهرت امرأة فى شمال أفريقية فى تلك الآونة اشتهرت بالسحر وعرفت بالكاهنة. وكانت قادرة فالتف حولها البربر واعتقدوا فيها اعتقادا غريبا وخضعت لها قبيلة زناته التى انتسبت اليها ، وحذت القبائل الأخرى حذوها فازداد نفوذها وعظم شأنها . ولما آنست من نفسها القوة على مناهضة سلطان المسلمين جمعت الجيوش ورفعت راية العصيان ، وزحفت على جند العرب وهزمتهم هزيمة منكرة وطردتهم إلى برقة وأصبحت سيدة البلاد بعد نصرها المبين ، وظلت كذلك نحو خمس سنوات وفى سنة ٦٩ هـ أرسل عبد الملك جيشا لأمداد حسـان فاستأنف القائد زحفه غربا لمقاتلة جيوش الـكاهنة فلم تقو تلك السـاحرة على إيقاف زحف جيوش

المسلمين، وارتدت نحو الجنوب بعد أن خربت المدائن والقرى وهدمت القصور وأتلفت المزارع والبساتين فتحولت المروج العامرة إلى صحراء جرداء، وقد ظنت تلك المرأة أنها بعملها هذا قد نجت من الخطر وأوقفت سير الجيوش الظافرة، ولكنها أخطأت إذ أساءت تقدير القوة المعنوية العظيمة التى تحلى بها جند المسلمين وامتازوا بها فى صدر العصور الأسلامية الأولى . كما أنها أثارت غضب البربر فاستقبلوا حسانا بالابتهاج وهرعوا إليه يقدمون فروض الطاعة والاستسلام، وتقدم حسان بجيشه يطارد الكاهنة حتى أدركها عند جبل أوراس من جبال الأطلس وحارب قواتها وتغلب عليها وقتلها بعد معركة عنيفة، ورجع البربر إلى حظيرة حكم المسلمين بعد أن تعهدوا بامداد جيش حسان بخمسة وعشرين ألف فارس

انتشر الاسلام بعد ذلك فى شمال افريقية انتشارا سريعا واعتنقه البربر، وفى تلك الفترة هاجر كثير من الخوارج من فارس وبلاد العرب واستوطنوا بلاد البربر ولقنوهم الاسلام على حسب مبادئهم الثورية وبثوا فيهم روح الكراهية لبنى أمية وحكومتهم فى دمشق ، فنشأ البربر يكرهون الأمويين وينتصرون لأهل الشيعة مما كان له أثر فى الحوادث السياسية التى مرت بنا فى تاريخ الدولة الفاطمية وغيرها من الدول الاسلامية التى قامت فى تلك الاقطار مما سنبينه بعد

ظل حسان واليا على أفريقية حتى عزله الوليد بن عبد الملك فى سنة ٨٩ هـ وعين مكانه موسى بن نصير .

ولاية موسى بن نصير :

كان نصير والد موسى من كبار رجال الدولة الاموية فى زمن معاوية إذ كان صاحب الشرطة فى دمشق عاصمة الامويين ، وقد اشتهر بالوفاء والاقدام ونشأ

موسى بين أحضان والده وتربى تربية عسكرية وسياسية فنشأ قائدا قديرا وسياسيا محنكا ، فلما أوفده الوليد بن عبد الملك واليا على أفريقية أدار تلك البلاد بحزم وهزم ، وقابل الصعوبات التى اعترضته بهمة الرجل المقدام ، إذ انتهز البربر فرصة انسحاب حسان من البلاد ورفعوا راية العصيان فى وجه الادارة الاسلامية ، فنهض موسى يعاونه أولاده ، وقمع الفتن وقضى على الاضطرابات وعاقب الثوار من البربر وطرد الروم الذين دفعوهم إلى الثورة من أفريقية ، ثم صالح الزعماء وعاملهم بالحسنى ، وفرق رجاله بين القبائل المختلفة ليعلموا أهلها الاسلام ، وأخذ رهائن من قبائل مصمودة وصنهاجة وكتامة وهوارة ، وتقدم نحو طنجه وحاصرها وفتحها واعتنق أهلها الاسلام ووضع بها حامية كبيرة تحت إمرة أحد قواده الامناء من البربر وهو طارق بن زياد

التفت موسى بعد ذلك للقضاء على معاقل الروم الاخرى فى البحر الابيض المتوسط إذ كانت عشا للدسائس ، ومركزاً لتدبير الحركات الحربية والاغارات العسكرية على أملاك المسلمين ، فجهز أسطولا لقتالهم وأرسل الحملة بقيادة ابنه عبدالله ، ونجح المسلمون فى الاستيلاء على جزيرة ميورقة ومينورقة وايفيقية وضمها إلى الامبراطورية الاسلامية ، واتسعت أملاك موسى فى الغرب حتى أصبحت تضارع فى اتساعها أملاك الحجاج فى الشرق ، ولكنه امتاز بحسن ادارته وقيادته ، وخضعت أفريقية خضوعا اختياريا لحكم موسى وامتد نفوذه من حدود مصر الغربية إلى سواحل المحيط الأطلسى ما عدا مقاطعة سبتة (سوته) التى يحكمها أمير قوطى اسمه الكنت يوليان

تمتعت أفريقية بنعمة العدل والحرية تحت حكم المسلمين واختفت من بين طبقاتها الفوارق الاجتماعية ، وأصبح البربر بفضل الاسلام اخوانا مع الغزاة من

العرب يقفون معهم على قدم المساواة لا فرق بين حاكم ومحكوم ، وتكونت من الفريقين جبهة عسكرية واحدة تترقب الفرصة لأعلاء كلمة الدين ونشر مبادئه القويمة بين الأمم المجاورة ، وكانت أقرب أمة تجاورهم فى ذلك الوقت هى الأمة الاسبانية وكانت تئن من حكم القوط الجائر فانتهز العرب تلك الفرصة الذهبية وقفزوا على أسبانيا وفتحوها واليك البيان

الفصل الثانى

أسبانيا

١ — القوط فى اسبانيا:

عرف الفنيقيون أسبانيا قبل التاريخ الميلادى بعدة قرون واختلط تجارهم بأهلها الذين كانوا يعرفون بالايباريين ، وأقاموا فى أرضها مدائن ذات أسواق تجارية ، وأنشأوا على شواطئها نزلات بحرية اشتهرت منها قادس ، وكانوا يعيشون مع قبائلها فى صفاء ووداد ، وقد أثروا بحضارتهم فى أهل اسبانيا إلى حد كبير فتعلم الاسبانيون منهم فنونهم ولغتهم وتخلقوا بأخلاقهم واعتنقوا مذاهبهم الدينية ، وفى القرن الخامس قبل الميلاد ازداد نفوذ القرطاجيين وورثوا أملاك الفنيقين فى البحر الابيض واحتلوا نزلاتهم فى اسبانيا ، وأنشأوا نزلات جديدة منها برشلونه وقرطاجة وغيرها ، ثم حدث نزاع طويل بين القرطاجيين وروميه وقامت بينهم حروب شعواء عرفت بالحروب البونية وانتهت بفوز رومية وتخريب قرطاجة ، وانتزع الرومان أملاكها فى أسبانيا وحكموها فى سنة ١٣٤ قبل الميلاد فأصبحت اسبانيا من ذلك العهد ولاية رومانية تخضع وتسير على نظمها الاجتماعية وسننها القانونية

كانت حكومة رومية فى أول أمرها حكومة فنية فاستطاعت أن تبسط نفوذها وترفع لواءها على ربوع أوربا وأفريقية ، وعينت الحكام والولاة على مختلف الاقطار والامصار، وراقبتهم مراقبة دقيقة وحاسبتهم حسابا عسيراً على كل ما كان

يقع منهم من المخالفات، وسارت الأمور فى الامبراطورية الرومانية على خير منوال حتى القرن الثالث بعد الميلاد. ثم انقسمت الامبراطورية إلى قسمين: القسم الشرقى وكانت مدينة القسطنطينية عاصمة له، والقسم الغربى وظلت رومية عاصمة له، وبعد ذلك أدركها الهرم ودخلت فى دور شيخوختها بسبب انغماس أباطرتها فى أنواع الترف والملاذ: واختلت الادارة المركزية واعتلت الرأس فسرى الاضمحلال ثم الانحلال فى أنحاء جسم الدولة: وانتهزت الأمم المتبربرة التى كانت تعيش على حدودها الشمالية من الغرب والشرق تلك الفرصة الذهبية وأغارت على أطرافها وانتزعت منها أملاكها الواحدة تلو الأخرى، فأغار الافرنج على الأقاليم التى سميت فرنسا وأقاموا لأنفسهم حكومة منظمة، وفى سنة ٤٠٦ م اخترقت جبال البرانس بعض تلك القبائل المتبربرة ونزلت بأرض أسبانيا، واحتل السلافيون الشمال واحتل الفندال الجنوب وظلوا بها نحو نصف قرن، ثم طغت موجة أخرى من أمواج الغزو على أسبانيا، إذ تغلب الفرنج فى جنوب فرنسا على قبائل القوط الغربيين وطردوهم نحو الجنوب، فاخترقوا بدورهم البرانس ونزلوا على أسبانيا وحاربوا السلافيين وطردوهم الى شمال أفريقيه، فاستوطنوا أقاليم المغرب الأقصى وامتزجوا بأهلها وصاهروهم وتناسلوا، وتم الأمر للقوط فى أسبانيا واتخذوا مدينة طليطلة عاصمة لهم ودانت لهم البلاد وأسسوا بها حكومة قوية واعتنقوا المسيحية فى سنة ٥٨١ م

(٢) حكومة القوط:

سار القوط فى البلاد الأسبانية فى أول عهدهم سيرة الرومان الأولى فدانت لهم البلاد وخضعت لهم الرقاب، ولكنهم ما لبثوا أن انغمسوا فى الترف والتنعيم

وترفعوا عن الاختـلاط بالرعية ، ونظروا للشعب نظرة ازدراء واحتقار فانحلت الروابط الاجتماعية فى أنحاء المملكة وانقسمت البلاد الى طبقة الحكام ، وهذه تنعمت بكل نعيم الحياة ، والى طبقة المحكومين وتلك أنت من جراء الظلم وكل أنواع الاضطهادات السياسية والدينية ، وساد الفقر والجوع بين طبقات الشعب بسبب الضرائب الفادحة التى فرضها عليهم الأشراف وأمراء الاقطاعيات وكبار رجال الدين ، ومما زاد الطين بلة انقسام الامراء على أنفسهم ، فقامت المنازعات وعمت البلاد الحروب الأهليه والفتن الداخلية ، وانقسمت الأهالى إلى أحزاب وشيع وهجرت الصناعة والزراعة ، ووقفت حال التجارة فازدادت الحالة الاقتصادية تحرجا .

اليهود فى أسبانيا :

ولما افتقر أمراء الاقطاعيات بسبب حروبهم الفردية التفتوا إلى يهود أسبانيا وكانوا قد استوطنوا تلك البلاد منذ زمن بعيد واثروا بفضل جدهم ونشاطهم اثراء كبيرا ونهبوا متاجرهم وسلبوهم نقودهم ومتاعهم ، وتدخل رجال الدين من النصارى فى أمر دينهم وأجبروهم على التنصر فثاروا ضد هذا الظلم الصارخ فاخمدت ثورتهم بكل قسوة وسفكت دماؤهم وصودرت أملاكهم وهتكت أعراضهم

كان من نتائج هذه الفوضى السياسية والاجتماعية وذلكم البؤس والاضطهاد الشامل أن هجر البلاد الاسبانية كثيرون من أهلها نصارى ويهود وقصدوا شمال أفريقية ليتمتعوا بمزايا الحكم الاسلامى الذى اشتهر أمره وينعموا بنعم العدل والمساواة والتسامح الدينى وهى الصفات التى امتاز بها حكم العرب إذ ذاك .

العرش القوطى قبيل الفتح العربى :

جلس على العرش القوطى فى اسبانيا فى أوائل القرن الثامن الميلادى الملك وتيزا (٧٠١ — ٧١٠ م) ويعرف بين مؤرخى العرب بالملك غيطشة وقد سار فى حكمه سيرة رديئة ، إذ استسلم إلى نفوذ رجال الدين وتركهم يديرون البلاد ويضطهدون الرعية بكل أنواع الاضطهادات وفى أثناء حكمه هدم جميع القلاع والحصون التى كانت معاقل للأمراء وذلك رغبة منه فى التغلب على هؤلاء الأمراء عند ثوراتهم ضد العرش ، فخلت المدن والأقاليم من الحصون التى تحمى قلب المملكة عند الغزو الأجنبى ؛ فكان ذلك من الأمور التى عاونت الغزاة من العرب وهم يفتحون تلك الأقاليم

غضب الأهلون على الملك وتيزا فى أواخر أيامه وحرض الأمراء أفراد الشعب فثار فى وجه مليكه ، ولما مات وتيزا ترك ولدين قاصرين فاجتمع بعض الأمراء وانتخبوا رودريك (لذريق) وهو أحد أمراء القوط الكبار ملكا على أسبانيا ؛ فلم يدم له الملك غير ثمانية عشر شهراً إذ تهيأت الفرص واجتمعت الأسباب لدى موسى بن نصير لفتح اسبانيا ، فلم يدع الفرصة تفلت من يديه ، وشمر عن ساعد الجد وأمر قائده القدير طارقا بن زياد وكان قد عهد اليه فى قيادة الحامية بطنجه أن يغزو أسبانيا ففعل ، وكان التوفيق رائده

العوامل المباشرة التى ساعدت الفتح العربى :

أولا : انحلال الجبهة العسكرية التى كانت تدافع عن البلاد ضد الغزو الأجنبى ونشأ ذلك عن النزاع الذى قام بين الأمراء والملك رودريق بسبب اغتصابه

العرش من أولاد الملك المتوفى ، فان هؤلاء الأبنـاء التجئوا إلى أنصار أبيهم وتحالفوا على العصيان والثورة ، وآزرهم عمهم المسمى أوباش وكان أسقفا لطليطلة وإشبيلية وراعيا للكنيسة المسيحية فكان نفوذه كبيرا

ثانيا : حقد الكونت يوليان حاكم سبته (كيوتا) فى شمال أفريقية على الملك رودريك «وكان يوليان شديد البأس وافر القوة كثير الأتباع والانصار يقبض على مفتاح الجزيرة بحكمه لسبته والمضيق» وقد نشأ هذا الحقد (أولا) بسبب اعتداء الملك رودريك على عفاف ابنة الكونت المسماة فلورندا ، وكان أبوها قد أرسلها إلى البلاط القوطى لتنشأ نشأة اجتماعية راقية وكان تلك عادة كبراء القوم فى تربية أبنائهم وبناتهم (وثانيا) بسبب التنافس بين الكونت والملك إذ كان الكونت صهراً للملك المتوفى و بطبيعة الحال كان يعطف على أولاد صهره و يحقد على رودريك لاغتصابه العرش فأصبح ملكا وكان بالأمس أميراً مثله لا يزيد عنه فى الجاه والبأس

أراد يوليان الانتقام من رودريك فتقرب من موسى بن نصير واختلط به بحكم الجوار وراسله وقابله، وفى رسائله ومقابلاته عين لحاكم أفريقية مواضع الضعف من أمته . ووصف له جزيل خيراتها ووفرة غناها ، وحرضه على غزو أسبانيا ظناً منه أن العرب سيقتصرون على كسب الغنائم ومجد الفتح

ثالثا : ثبوت قدم العرب فى شمال أفريقية ونجاحهم بفضل إدارة موسى الرشيدة فى القضاء على عناصر الاضطراب فى تلك الأصقاع والتفاف البربر حولهم ودخول جندهم فى صفوف الجيوش الاسلامية، وكانوا جنداً أشداء امتازوا بالشجاعة والإقدام والتفانى فى خدمة الاسلام ونشر مبادئه ورفع لوائه بين الأمم النصرانية .

رابعا : معرفة العرب فى شمال أفريقية أحوال أسبانيا من عسكرية واجتماعية

وجغرافية معرفة تامة بسبب اختلاطهم بالأقوام الذين هاجروا إلى بلاد الغرب فارين من أسبانيا بسبب الاضطهادات التى أشرنا إليها سابقا ، فان هؤلاء الأقوام وبخاصة اليهود منهم تطوعوا فى ركاب الجيش الفاتح فكانوا خير المرشدين والادلاء لقواد العرب وهم يزحفون على أسابنيا وأقاليمها

الفتح

فى شهر رجب سنة ٩٢ هـ ابريل سنة ٧١١ م جهز موسى بن نصير جيشا اختلف المؤرخون فى تقديره اختلافا كبيرا فنهم من قال انه سبعة آلاف ومنهم من قال انه اثنا عشر ألفا ، وأمر مولاه طارق بن زياد قائد الجند بطنجة أن يسير لفتح بلاد الأندلس بعد أن اقتنع بالظروف الملائمة للفتح وذلك بعد أن خاضها بالسرايا طوعا لأمر أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك ، فأنه أرسل طريف بن مالك من جند البربر فى رمضان من سنة ٩١ هـ فى مائة فارس وأربعمائة راجل لغزو بلاد الشاطىء الجنوبى من الأندلس ، فجازوا البحر فى السفائن وغزوا بعض الثغور الجنوبية بمعونة يوليان ، ونزلوا بأرض الأندلس وأصابوا سبيا لم ير موسى ولا أصحابه مثله حسنا ، وغنموا مالا جسيما وأمتعة كثيرة

أبحر طارق من طنجة بسبته ، ومن هذه إلى الشاطىء المقابل ومعه يوليان يرشده ونزل هو ورجاله بجزيرة صغيرة عرفت فيما بعد بالجزيرة الخضراء ، واستولى المسلمون على جبل مجاور لها وتحصنوا فيه فسمى أولا جبل الفتح ، ثم أخذ اسم الفاتح فسمى جبل طارق ، ويقال إن طارقا بعد أن عبرت جنوده المضيق أحرق السفائن كى يقطع من عساكره أمل التقهقر ، وأن يختاروا إما الفوز وإما الموت ، وهى رواية تحتاج إلى شىء كثير من التمحيص اذ لم ترد فى أقوال الثقاة من المؤرخين ، ثم انساب جند المسلمين فى أرض الأندلس ، وأسرع الكونت تدمير عامل لزريق

على تلك الأقاليم لملاقاة العرب ، ولكنه فزع عند ما رأى الغزاة وكتب إلى الملك يخبره بخبرهم، وكان رودريك إذ ذاك مشتغلا بالحرب فى المقاطعات الشمالية فأمر أحد قواده بالزحف لملاقاة العدو وتمزيق شمله، فهزمه طارق ومضى فى فتوحاته ناشرا لواء الفزع والرعب فى أفئدة الأهلين المأخوذين من هجوم ما كانوا يتوقعونه ، فجمع رودريك جيشاً بالغ الرواة فى ذكر عدده وزحف جنوبا لملاقاة طارق ، والتقى الجيشان على شواطىء وادى لكه بالقرب من مدينة شذونة القديمة التى بنى فى محلها الآن مدينة شريش

معركة شريش الحاسمة

« على قيد فرسخين من قادس تجاه بلدة شريش على ضفاف نهر وادى لكه تلاقى العرب والقوط ، أوتلاقى الاسلام والنصرانية وذلك لليلتين بقيتا من رمضان سنة ٩٢ هـ »

اصطف المسلمون والكثير منهم يمتطى متون الخيل عليهم الزرد وفوق رؤوسهم العمائم البيض ، وبأيديهم القسى العربية، وقد تقلدوا السيوف واعتقلوا الرماح والاتحاد ملء أفئدتهم والحماسة تغلى فى صدورهم وكلهم اخلاص لقائدهم الاكبر طارق يرمون إلى غرض واحد ، إما الفوز وإما الموت فى سبيل رفع لواء الاسلام وإعلاء كلمة الدين الحنيف

والقوط بين مشاة وفرسان معتدون بالدروع والدرق والحراب والفؤوس والمناجل والمقاليع قلوبهم شتى

وقبل اشتباك الطرفين خطب طارق يحرض جنده فقال « أيها الناس أين المفر البحر من ورائكم والعدو أمامكم وليس لكم والله إلا الصدق والصبر —

اخ ما جاء بتلك الخطبة النفيسة التى ان دلت على شىء فقد دلت على ايمان القائد بالنصر والاستماتة فى مهاجمة العدو وحض الجند على اتباع الاقدام ، وهى تدل على المثل الأعلى لموقف القيادة والحماس الحربى (فلم يك موقف قيصر فى ألمانيا أو بونابرت فى إيطاليا ومصر بأدعى للأعجاب من موقف طارق فى سهل شريش) إذا اشتملت على الترغيب والترهيب و بث الأمل فى النفوس والرغبة فى نيل الأجر الدنيوى والاخروى معا ، وتذكير الجيوش النصر على العدو بأسلوب يدل على رسوخ ملكة البيان فى القواد وخبرتهم بالقيادة ونفوس الجند

فلما سمع الجند كلام قائدهم الباسل ثارت حميتهم ووطدوا نفوسهم على الموت فى قتال عدوهم ، وكان جيش طارق يظهر أنه كثير العدد إذ قسمه إلى طوائف ليلقى الرعب فى قلوب أهل الأندلس وانضم اليه يهود اسبانيا والنصارى

التحم الجيشان ووقعت معركة هائلة دامت ثلاثة أيام على قول بعض المؤرخين وسبعة على قول البعض الآخر، واستمال فى أثنائها يوليان وأو باش أسقف طليطلة وأخ الملك و يتزا كثيرا من جند النصرانيين ، و بذرا فى الجيش بذور الشقاق والتفرق ، وأخذ كل أمير يسعى فى سلامة نفسه، فدارت الدائرة على جيش رودريك ، وقد اختلف المؤرخون فى كيفية موته فمنهم من قال إنه قتل فى أثناء المعركة والذى قتله هو طارق ، ومنهم من قال إنه غرق فى مياه الوادى الكبير وهو يحاول الفرار

نتائج المعركة

تشتت شمل الجيش القوطى بعد المعركة وساد الرعب فى قلوب الأهلين وذاعت أنباء النصر فى طنجة وسبته وما جاورها، فاندفع إلى الجيش العربى سيل من المغامرين من العرب والبربر فازداد قوة ومنعة ، وزحف على البلاد يفتحها وعلى

القلاع والحصون يهاجمها و يستولى عليها عنوة الواحدة تلو الأخرى

سار طارق بعد الموقعة إلى مدينة شدونة فاستولى عليها بعد حصار شديد ثم زحف على قرمونه فاستولى عليها وفرض الجزية على أشبيلية ، ثم انتهى إلى مدينة استجه حيث التقى بفلول القوط . فاقتتل الفريقان قتالا شديدا ، وانتصر طارق ثم قسم جيشه إلى ثلاث فرق الأولى تحت أمرة مغيث الرومى ووجهه إلى قرطبة والثانية برأسها زيد بن قاصد وسيرها إلى مالقة ، ورأس هو الثالثة وتوجه بها إلى طليطلة من طريق جيان واحتلها بلاقتال ، وأصدر أوامر صريحة تمنع الجند من النهب والاعتداء وتهدىء روع الأهالين ، وتخول لهم الحرية فى دينهم والتمتع بأموالهم والتقاضى عند قضاتهم على شرط أن يدفعوا الجزية فى كل سنة . و بعد أن وطد دعائم السلام فى طليطلة اتجه نحو الشمال فوصل إلى وادى الحجارة وعبره. ثم إلى جبال وادى رامه فاخترقها من فج سمى باسمه. ثم استولى على مدينة سالم وهى التى أحرز منها على مايروى المائدة المشهورة المنسوبة إلى سليمان ، وعاد إلى طليطلة مثقلا بالغنائم ثم عهد بادارة المدينة إلى أو باش ، و بعد قليل استأنف زحفه إلى الشمال وغزا قشتالة وليون ، ثم عبر جبال استورقة إلى سواحل خليج غسقونية فكانت نهاية فتوحاته ، ووصله أمر موسى بالعودة إلى طليطلة وكان ذلك لعام من اقتحامه المضيق

طارق وموسى

رأى موسى ان الوقت قد حان للاشتراك مع قائده القدير فى اتمام فتح الأندلس فكتب إلى طارق ألا يتقدم و يتوغل فى بلاد القوط قبل أن يلحق به ، و يقال إنه توعده بالعقاب الشديد لأنه خالف أوامره بعد موقعة شريش وتقدم وزحف وفتح

ما فتح ولـكن الثقاة من المؤرخين لا يسردون تلك الروايات التى ان دلت على شيء فانها لا تدل إلا على ضعة النفس ومواطن الحسد والغيرة فى قلوب أبطال المسلمين مما نتزههم عن الاتصاف بها ، وهم هؤلاء الرجال الذين اتصفوا بنبيل الخلق وكامل الرجولة وانكار الذات فى سبيل اعلاء كلمة الدين ، ولذلك يجب أن نقابل كل ما كتب في هذا الصدد بغاية الحذر وتمام الحيطة

أقام موسى ابنه عبد الله فى مدينة القيروان وأعد جيشاً بلغ عدده ثمانية عشر ألفاً من العرب والبربر ، وسار به من أفريقية إلى الأندلس فى شهر رجب سنة ٩٣ ﻫ (ابريل سنة ٧١٢ م) وعبر البحر ونزل بولاية الجزيرة حيث استقبله يوليان فى شهر رمضان من السنة عينها ، ثم زحف على مدينة شدونة واستولى عليها وتقدم منها إلى قرمونة ، ودخلها ثم مضى إلى اشبيلية ، وحاصرها ، وكانت إذ ذاك من أعظم مدائن الأندلس شأنا وفتحها بعد حصار شهر ، ثم فتح مدنا أخرى بين النهر الـكبير ونهر تاجه ، ثم زحف على ماردة وكانت قوية الحصون متينة الأسوار فقاومته مقاومة عنيفة ولـكنه تغلب عليها وفتحها فى شهر شوال سنة ٩٣ ﻫ بعد أن وصله مدد من أفريقية بقيادة ابنه عبد العزيز ، وقد عامل أهلها معاملة قاسيه بسبب عنادهم فانه فرض عليهم جزية سنوية وأخذ أموال القتلى وأموال النازحين عن المدينة ، وطلب أن تسلم إليه أموال الكنائس وحليها وأن يحول نصفها إلى مساجد ، وأن يأخذ رهائن من أشراف القوط .

سار موسى بعد ذلك الى طليطلة وأسرع طارق لملاقاته ، وتقابل القائدان فى طلبيرة ، ويقال إن موسى أنب طارقا و بالغ فى إهانته لمخالفته أوامره وعزله من قيادة جيشه وحبسه ، وعهد بالقيادة إلى مغيث الرومى ، ولـكنه اعتذر ودافع عن

طارق دفاعا مجيدا فأرجع طارق إلى القيادة وتصالح القائدان [1] واتجه طارق نحو الشرق صاعداً الى منابع نهر التاجه ، واتجه موسى نحو الشمال الغربى وأخضع مدنا كثيرة منها سلمنقة ثم عاد الى الشرق سائرا مع مجرى نهر دورو ، وتقابل ثانية مع طارق خارج مدينة سرقسطة ، وساعده فى حصارها واستوليا على المدينة ثم احتلا وشقة وطركونة ولاردة ، ثم افترق القائدان ، فمشى موسى على شاطىء البحر الأبيض المتوسط متجها نحو الشمال ، ففتح برشلونة وجيرونة وغيرها من المدائن .

أما طارق فانه اتجه نحو الجنوب وفتح طرطوشة و بلنسية وشاطبة ودانية ، واستمر حتى وصل إلى حدود أمارة تدمير ، وكان عبد العزيز بن موسى قد استولى على أريولة عاصمة تلك الولاية بعد أن عقد معاهدة مع الكونت تدمير دلت على اعتدال السياسة العربية ولينها كما أنها دلت على تقدم فن الدبلوماسية عند هؤلاء الفتاح العظام

موسى فى جنوب فرنسا :

ترك موسى طارقا يفتح المدائن والأقاليم فى جليقية ، وزحف على رأس جيش كامل العدة قوى العزيمة واخترق جبال البرانس ونزل فى أرض فرنسا ، واستولى على ولاية لنجدوك ، وكانت من الولايات التابعة لحكومة القوط قبل سقوطها وهنا فكر القائد الجرىء فى غزو جميع أوربا والوصول إلى الشام عن طريق القسطنطينية ، ولو ترك وشأنه لاستطاع تنفيذ عزمه مكللا بالنجاح إذ كانت ممالك أوربا وأماراتها إذ ذاك غاية فى الضعف مفككة العري لا تربطها وحدة سياسية ولا تجمعها جامعة دينية ، ولكن الوليد بن عبد الملك تردد فى تأييد ذلكم الفاتح

(١) وهذه رواية أيضا يجب أن تقابل بشىء كثير من الحيطة والحذر

وأمره بعدم المجازفة بجند المسلمين فى أقطار وفيافى يجهلها كل الجهل فعدل عن مشروعه ورجع الى أسبانيا ليتمم اخضاع المعاقل الجبلية حيث اعتصم المسيحيون الذين فروا أمام موجة الفتح واجتمعوا تحت راية زعيم منهم يسمى بلايو فدخل جليقيه واستولى على حصونها وطرد النصارى وطاردهم حتى جبال استورقة الصخرية فى أقصى الشمال وكان يفكر فى سحق أعدائه سحقاً تاماً لولا أن أتاه رسول من قبل الخليفة يستدعيه وطارقا الى عاصمة الخلافة

استدعاء موسى وطارق :

كان استدعاء موسى إلى دمشق قبل أن يتمم سحق النصارى الذين اجتمعوا تحت راية بلايو فرصة ذهبية لهؤلاء النصارى إذ تمكنوا من جمع شتاتهم واتخذوا تلك المعاقل الحصينة موطنا لهم وهناك ترقبوا الفرص للاغارة على أملاك المسلمين وانتزاعها منهم والعمل على توسيع رقعة أملاكهم وظلوا يكدون و يجتهدون على مر الايام حتى نجحوا واستردوا أسبانيا وطردوا المسلمين إلى أفريقية بعد أن مكثوا بها نحو ثمانية قرون كما سنبينه بعد

نظم موسى حكومة أسبانيا قبل أن يترك البلاد فعين ابنه عبد العزيز نائبا عنه واختار مدينة أشبيلية مقراً للملك لقربها من البحر وترك ابنه الثانى عبد الله وكان قائداً قديراً حاكما على أفريقية وابنه الأصغر عبد الملك واليا على المغرب الأقصى ، وترك آخر من رجاله قائداً للأسطول وعهد اليه بادارة السواحل واتخذ مدينة طنجة مقراً له ، ثم رحل الى دمشق فى حاشية كبيرة مثقلا بالغنائم والنفائس وذلك فى شهر ذى الحجة سنة ٩٥ هـ ، سنة ٧١٤ م

سقوط موسى وطارق

اختلف المؤرخون اختلافا بينا فيما آلت إليه حال القائدين الكبيرين

موسى وطارق بعد تركهما أسبانيا ، و يروى الكثير منهم روايات هى أقرب إلى الخيال منها إلى الحقيقة ، فمنهم من قال إن طارقا وكبير قواده مغيثاً الرومى كتبا إلى الوليد يشكوان أمرهما من جراء المعاملة القاسية التى لقياها على يد موسى . وينسبون استدعاه موسى إلى دمشق بسبب غضب الخليفة عليه . ومنهم من قال إن الوليد مات قبل أن يصل موسى وقواده إلى دار الخلافة وأمره الخليفة الجديد سليمان بن عبد الملك بالتريث فى دخول العاصمة ، والانتظار فى طبرية فلسطين فلم يطع الأمر فحقد سليمان عليه ، ولما حضر مجلسه عنفه وعزله وعاقبه وسجنه وجرده من أملاكه ، وساءت أيامه الأخيرة حتى مات فى وادى القرى سنة ٩٧ للهجرة (٧١٦ م) وهو فى حالة عوز و بؤس شديدين

أما نهاية طارق فمثلها مثل نهاية الكونت يوليان إذ يمر عليها المؤرخون بالسكون والصمت ولا يذكرون ما حدث له بدمشق ، ولذلك فاننا نجهل تماما ما حل بهما بعد عهدنا بهما فى اسبانيا ، وعلى كل حال فانه من المتفق عليه أن سليمان بن عبد الملك انتقم من موسى ومن ولده عبد العزيز ، إذ دس عليه من قتله فى أشبيلية وذلك خوفا منهما ومن نفوذهما فى أفريقية وفى أسبانيا ، ولأنهما كانا من أنصار الوليد سلفه . ويقال إنهما وافقا مع غيرهم من حكام الولايات والأقاليم أمثال الحجاج ومحمد بن القاسم على نقل ولاية العهد لابن الوليد بدلا من سليمان ، ومهما كانت الدوافع التى اجتمعت لدى الخليفة فانها لا تبرر القسوة التى استعملها مع فاتح الأندلس الذى يعد بحق من أكابر رجال التاريخ الاسلامى على الرغم من اتصافه بالحقد والحسد على ما رواه بعض المؤرخين

أثرالفتح العربى فى أسبانيا:

قال الاستاذ عبد الله عنان « قضى الفتح العربى على امتيازات الأشراف ،

وخفف من عبء الضرائب الذى كان يثقل كاهل الشعب ، وفرضها المسلمون بالمساواة والعدل على جميع العناصر والطوائف لافرق بين دين أو جنسية، وأمنوا السكان على أموالهم وعقائدهم ، وأباحوا لهم اتباع قوانينهم وتقاليدهم ، واختيار حكامهم من بينهم ، وأخذوا بناصر الطبقات المستعبدة التى كانت إلى ذلك العهد فى أتعس حالات الذل والفاقة ، فعاد السكان إلى المدائن والقرى بعد التشتت فى الجبال والسهول ورحبوا بالنظام الجديد »

وقال الاستاذ لين بول « أنشأ العرب حكومه قرطبة التى كانت أعجوبة القرون الوسطى بينما كانت أوربا تتخبط فى ظلمات الجهل ، فلم يكن ثمة سوى المسلمين من أقام بها منار العلم والمدينة » .

الفصل الثالث

أسبانيا العربية بعد سقوط موسى:

قسم الفاتحون أسبانيا إلى عدة مقاطعات يدير شئون كل مقاطعة حاكم يختاره الأمير الذى يعينه حاكم أفريقية بتفويض من بلاط دمشق

وقد اشتملت المقاطعة الأولى على الأراضى الواقعة بين البحر الأبيض المتوسط ونهر الوادى الكبير ، وكذلك الجزء الواقع بين ذلك النهر و بين وادى يانه : واشتهر من مدنها الكبيرة قرطبة واشبيلية ومالقة وجيان .

أما المقاطعة الثانية فقد اشتملت على أواسط أسبانيا وعلى الجزء الواقع بين البحر الابيض المتوسط شرقا ، ونهر دورو شمالا ، وولاية البرتغال غربا ، واشتهر من مدنها طليطلة ووادى الحجارة و بلنسية ودانية وقرطاجنة ومرسية ولارقة .

أما المقاطعة الثالثة فقد اشتملت على جيليقية والبرتغال واشتهر من مدنها باجة ولشبونة واسترقة وسموره وسلمنقة

وقد امتدت المقاطعة الرابعة من شاطىء الدورو إلى جبال البرانس على شاطىء نهر الابرو واشتهر من مدنها سرقسطه وطرطوشة وطرقونه و برشلونه وجيرونه وقسطيلة وغيرها .

ولما اتسع نطاق الفتوحات الاسلامية أنشئت مقاطعة أخرى فى منطقة البرانس واشتهر من مدنها أرجونه وطرطوشة وغيرها

تفرقت القبائل العربية المختلفة فى هذه المقاطعات والمدائن ، فنزلت قبائل

حمص باشبيلية ، ونزلت قبائل دمشق بقرطبة ، وقبائل قنسرين بجيان ، وقبائل فلسطين بشدونه والجزيرة، ونزلت قبائل فارس واليمن بمدن رية وشريش وطليطلة وغرناطة وماردة وغيرها . ونزلت الحجاز بداخل الجزيرة

ولاية عبد العزيز بن موسى بن نصير فى أسبانيا :

كان موسى قبل الرحيل عن أسبانيا قد أقام ابنه عبد العزيز نائباً عنه فى فى إدارة الشئون فى أسبانيا. فأبدى عبدالعزيز همة فائقة فى ادارة الحكومة الجديدة واليه يرجع الفضل فى تنظيم أمورها، اذ أنشأ ديوانا لتطبيق الأحكام الشرعية وتنسيقها حتى توافق مشارب السكان ولتجمع كلمة القبائل ، وشجع الزواج بين الفاتحين والاسبان ، وتزوج هو بأرملة رودريك (أم عاصم) وشجع المهاجرين إلى البلاد الاسبانية ، فتوافد عليه المهاجرون من مصر والشام وفارس. فأحيوا فى الجزيرة موارد الصناعة والتجارة ، ولكنه قد قتل فى شوارع أشبيلية فى أواخر سنة ٩٥ هـ باغراء من سليمان بن عبد الملك إذ كان يخشى أن يجد فيه منافساً يسعى وراء الاستقلال لنفسه

الولاة فى أسبانيا بعد العزيز:

بعد قتل عبد العزيز أقام الجند فى أسبانيا أيوب بن حبيب اللخمى ابن أخت موسى بن نصير واليا على البلاد ، ولكنه لم يمكث أميراً إلا بضعة أشهر نقل فى أثنائها مقر الحكومة من أشبيلية إلى قرطبة ، وعزله حاكم أفريقية الذى كان من حقه أن يعين حاكم الأندلس : ثم ولى مكانه آخر ، فكثرت الاضطرابات والفتن فى البلاد ، فعزله عمر بن عبد العزيز وولى مكانه السمح بن مالك الخولانى .

ولاية السمح بن مالك الخولانى :

قبض على أزمة الحكومة بنشاط وحزم ، وبادر الى اصلاح الخلل الذى سرى الى الادارة والجيش ، وابتنى قنطرة قرطبة الشهيرة ، ومسح أرض الجزيرة ، و بعد أن تم له تنظيم الأمور فكر فى غزو فرنسا فزحف على سبتمانيا و بروفانس ، وشتت شمل الثوار هناك ، ثم تقدم لمحاربة دوق أكوتين أقوى أمراء الافرنج إذ ذاك ، واستولى على بلاد كثيرة ، ثم زحف على تولوز (طالوشة) عاصمة الأمارة لمحاصرتها وفتحها . ولكن الدوق قابله ونشبت بين الفريقين معركة قتل فيها السمح فى شهر مايو سنة ٧٢٠ م وارتد المسلمون الى بروفانس

انتخب الجند بعد مقتل السمح عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى لتولى قيادة الجيش فلبث فى منصبه سنتين ، وقد وصف المورخون عبد الرحمن بالشجاعة والمهارة الفائقة والأمانة والعدل ، إذ أخمد الفتن التى كادت أن تمزق الجزيرة ، إلى أن قدم الحاكم الجديد فى صفر سنة ١٠٣ هـ وسنة ٧٢١ م

عنبسة بن سحيم الكلبى :

تولى إدارة الشئون بعد السمح ، واستأنف الفتوحات الاسلامية فى الشمال فزحف على لنجدوق (مقاطعة سبتمانيا) مرة أخرى . وفتح الحصون الشمالية . وقوى شوكة الاسلام فى جنوب فرنسا . ولكنه لسوء الحظ قتل سنة ١٠٧ هـ سنة ٧٢٦ م قتله جماعة من الثوار الفسقونيين فى إحدى مفاوز جبال البرانس . فعادت الاضطرابات الى الجزيرة . وتوقف الجيش عن الغزو وانسحب الى الداخل

الاضطرابات فى أسبانيا :

عمت الاضطرابات البلاد بعد قتل عنبسة ، واختلت الادارة الحكومية وقوي ساعد الثوار من النصارى الذين كانوا قد اجتمعوا تحت قيادة زعيم منهم يسمى بلايو ؛ واختلفت القبائل العربية ، وظهرت العصبيات القديمة ، وتمرد البربر ، وظلت الحال كذلك مدة خمس سنوات تولى فى أثنائها خمسة ولاة ، وأخيرا عين الخليفة هشام بن عبد الملك فى سنة ٧٢٩ م عبد الرحمن الغافقى واليا على الأندلس .

عبد الرحمن الغافقى:

تولى عبد الرحمن الغافقى بلاد الأندلس للمرة الثانية بأمر من الخليفة هشام ابن عبد الملك سنة ١١٣هـ سنة ٧٢٩م ، و يعتبر عبد الرحمن أكبر حاكم وليها فى عهد الأمويين وأعظمهم اقداما وجرأة . إذ كان قائدا عظيما ومصلحاً كبيرا . فرحب المسلمون بتعيينه ، وأحبه الجند لعدله وكان عظيم الهيبة ، نافذ الكلمة فى جميع القبائل ؛ فتصالحت مضر وحمير ، وساد الوئام فى الجيش ؛ وانتظمت أحوال الجند

بدأ عبد الرحمن ولايته بزيارة المقاطعات المختلفة ؛ فنظم شئونها ، وعهد بادارتها إلى الأكفاء ، وقمع الفتن ورد المظالم ، وأعاد إلى المسيحين معابدهم وأملاكهم المغتصبة ، وعدل نظام الضرائب وفرضها على الجميع بالمساواة

وقضى صدر ولايته فى العناية باصلاح الخلل الذى تطرق إلى الادارة فى عهد أسلافه ؛ ثم التفت إلى اصلاح الجيش ، وزاد فى عدده وأضاف إلى الصفوف فرقا من فرسان البربر باشراف ضباط من العرب أولى شجاعة وبأس ، و بالغ فى اتخاذ

التدابير لتحصين الجهات الشمالية .

عبد الرحمن فى فرنسا :

أخذ عبد الرحمن العدة لغزو فرنسا . ليثأر لقتل السمح بن مالك وارتداد المسلمين عند أسوار تولوز (طالوشه) ، وكان الحماس الدينى إذ ذاك عظيما ، فاحتشد المسلمون تحت إمرته للغزو والجهاد ، وكان أحد أمراء المسلمين فى الشمال المسمى عثمان بن أبى نسعة قد خرج عن ولائه للمسلمين وصاهر الدوق أكوتين بأن تزوج ابنته وتحالف معه ضد المسلمين

كانت فرنسا تنقسم حين قصدها عبد الرحمن إلى أقاليم منها :

(١) أقليم سبتمانيا فى الجنوب الشرقى وعاصمته نربونه . وكان قد دخل فى حوزة المسلمين من جبال البرانس إلى نهر الرون

(٢) أقليم أوكتانيا على شمال وغرب سبتمانيا ، يحده من الجنوب جبال البرانس ومن الشمال نهر اللوار ، ومن الشرق نهر الرون ، ومن الغرب المحيط الأطلسى وعاصمته تولوز

(٣) أقليم استرازيه فى شمال نهر اللوار وكان يحكم هذا الاقليم شارل (قارله) وكان بين هذا الأمير وأمير أوكتانيا نزاع وحسد

قلنا إن عثمان بن أبى نسعة كان قد تحالف مع الدوق أوكتين ضد المسلمين لكن عبد الرحمن الغافقى لم يسمح له أن يتمتع بذلك الحلف بل نهض لمحاربته ، وأرسل جيشا إلى جبال البرانس حيث كان يقيم الثائر الخائن مع زوجه ، فتغلب الجيش عليه وقتله ، وأخذ زوجه وأرسلها إلى بلاط دمشق حيث تزوجها أحد أبناء الخليفة (على ما يقال)

وهبّ الدوق أكوتين للأخذ بثأره ، ودخل أملاك المسلمين ودمر وخرب ، فزحف عبدالرحمن بنفسه لتأديبه ، ودخل أرض فرنسا فى فصل الربيع سنة ٧٣٢م ، وتقابل مع الدوق أكوتين على ضفاف الرون فانتصر عبد الرحمن ، واتجه بعدئذ إلى بوردو ، واستولى عليها واخترق المسلمون أقليم برجونيا ، وخفق العلم الاسلامى فوق مدينة ليون وبيزنسون (مسقط رأس الشاعر فكتور هوجو) . وبعد أن حصنهما عبد الرحمن وترك فى كل منهما حامية قوية قرر الزحف على عاصمة الفرنجة .

قال ادوارد جبون : وامتد خط الظفر إلى ألف ميل من صخرة طارق إلى نهر اللوار ، وقد كان اقتحام مثل هذه المسافة يحمل الجيش الاسلامى إلى حدود بولونيا شرقا ، وآكام اسكتلندا شمالا ، فليس الرين بأمنع من النيل أوالفرات ، وربما اخترق الأسطول العربى عباب التيمس بلامعركة بحربية ! بل وربما كانت تعاليم القرآن تدرس الآن فى كليات اكسفورد ، وربما كانت منابرها تؤيد لمحمد صدق الوحى والرسالة »

معركة تور أو بلاط الشهداء : (٧٣٢ — ٧٣٣ — م — ١١٤— ١١٥ هـ)

أزعجت أخبار النصر الذى وفق إليه عبد الرحمن زعماء الأفرنج وأمراءهم وبعد أن اكتسح المسلمون مقاطعة أكوتين ، وشتتوا جيوشهم ، واستولوا على كثير من المعابد والمدائن لم ير دوق أكوتين بدا من الاستنجاد بمنافسه شارل ابن بيبين محافظ القصر بباريس .

وقد كان شارل أقوى أمراء الأفرنج إذ ذاك ، وكان قد تغلب قبل ذلك على الثوار فى ألمانيا وشمال فرنسا ، وقد كان نافذ الكلمة فى البلاط الميروفنجى (بلاط فرنسا) .

استنجد أمير اكوتين بشارل المذكور ، فلبى الدعوة إذ رأى فى تلبيتها تحقيقا لأطماعه من اغتصاب العرش الفرنسى ، والاستئثار بالسلطة والقضاء على منافسه ، فحشد جيشاً جرارا من الجند المرتزقة القاطنين على ضفاف الدانوب والألب ومن بين العشائر الجرمانية المتوحشة ، لمساعدة جنده من الأفرنج ، ثم زحف نحو الجنوب بين التلال والآكام لملاقاة العرب . وكان الجيش الاسلامى فى تلك الآونة قد زحف على مدينة تور الواقعة على نهر اللوار واستولى عليها .

ولما اقترب شارل بجيشه ، ورأى عبد الرحمن أن جيوش الأفرنج تفوقه كثرة انقلب راجعا من ضفاف النهر إلى السهل الواقع بين مدينتى تور وبواتيه

حال الجيش الاسلامى قبل الموقعة :

غنم المسلمون غنائم لا تحصى باستيلائهم على أكواتين ، ويقال إنه كان من نصيب كل جندى من الذهب والزمرد والياقوت والسوسن ما كان ينوء بحمله . خلا طعامه وعدته التى كان يحارب بها ، وقد أحدثت هـذه الغنائم فى صفوف المقاتلين اختلالا ، ودب الشقاق بين قبائل البربر إذ كانت تتوق إلى الانسحاب نحو الجنوب فارة بغنائمها . وخشى عبد الرحمن أن تكون هذه الغنائم سببا فى تعطيل حركات الجيش وانشغال الجند ، فحاول أن يحملهم على ترك جزء منها ، ولكنه لم يشدد فى ذلك خيفة التمرد ..

حال جيش الأفرنج أيضاً :

وكان جيش شارل مؤلفا من فرسان كثيرة ومشاة يتشحون بجلود الذئاب وتنسدل شعورهم المتجعدة فوق أكتافهم

المعركة :

عبر شارل نهر اللوار ، وعسكر على قيد أميال من العرب ، وتحصن على ضفاف النهر ؛ ثم نشبت بين الجيشين معارك كثيرة صغيرة لمدة أيام ثمانية على قول بعض المؤرخين ، وفى اليوم التاسع ، حدثت بينهم معركة هائلة فتقاتلا حتى انسدال الظلام ، وفى اليوم التالى استأنفا القتال ، فضاعف المسلمون قواهم ، حتى ظهر الاضمحلال فى جيش الأفرنج وأصبح النصر من المسلمين قاب قوسين أو أدنى ، ولكن حدث حينذاك أن صاح فى المواقع الاسلامية صائح إن جند المسلمين وغنائمهم فى خطر عظيم ، فوقع الاختلا فى صفوف المسلمين وتواثبت الجند للدفاع عن غنائمهم . فحاول عبد الرحمن أن يعيد النظام ، وأن يهدىء من ثورة الجند فلم يفلح ، وأصابه من جانب الأعداء سهم أودى بحياته ، فعم الاضطراب الجيش الاسلامى ، فانتهز الأفرنج هذه الفرصة ، وهجموا على المسلمين ، على أنهم قد رحبوا بقدوم الظلام ، وأوقفوا القتال عند انسداله

قام النزاع بين قواد الجيش العربى وضباطه بعد مقتل عبدالرحمن ، واختلفت القبائل وهاجت الخواطر ، فنبذ المسلمون فكرة النصر ؛ وعولوا على الانسحاب بأمن وسلام يحملون معهم غنائمهم ، وارتدوا إلى سبتمانيا فى ظلام الليل ، وفى فجر الغد أقلق شارل وحليفه الدوق اكوتين سكون المعسكرات الحربية ، فتقدما منها بحذر ، فألفياها خاوية إلا من بعض الجرحى الذين لم يستطيعوا مرافقة الجيش المنسحب ، فذبحوا على الأثر ، ولم يجرؤ شارل على مطاردة العرب بل ارتد بجنده شمالا

و يجمع مؤرخو الفرنج والنصرانية على أن مقتل عبد الرحمن فى صدر الموقعة

كان من أهم أسباب ارتداد العرب الذين بعد أن قتل قائدهم انسحبوا فى ظلام الليل دون أن يشعر بهم المسيحيون الذين كانوا يتوقعون هجومهم فى اليوم التالى وقد قتل كثيرون من المسلمين حال الارتداد : وقد وقعت الهزيمة بالمسلمين فى العام الخامس عشر بعد المائة من الهجرة . وكان من نتائج هذه المعركة أن سكن تيار الفتح الاسلامى فى فرنسا وباقى ممالك الشمال الأوربية .

يقول جبون :

« أنقذت موقعة تور أسلافنا البريطانيين وجيراننا الغاليين من نير القرآن المدنى والدينى ، واستبقت لرومية بهاءها وجلالها ، وأخرت استعباد القسطنطينية وشدت أزر النصرانية ، وأوقعت بأعدائها الفشل والتفرق »

ومما يؤخذ على مؤرخى العرب أنهم لم يحاولوا التعليق على أهمية الموقعة فاكتفى بعضهم بأن ذكرها فى بضع كلمات كما فعل المقرى وابن الأثير ، ولم يذكر عنها ابن خلدون شيئا أصلا

ويسمونها جميعا موقعة بلاط الشهداء لكثرة من استشهد فيها من عظماء المسلمين

أما أثرها فى اسبانيا الاسلامية فقد كان بعيدا ، إذ اضطربت البلاد وانتهز البربر هذه الفرصة وقاموا فى وجه الحكومة العربية الاسبانية. وقادهم مؤنس أحد أصحاب طارق بن زياد وأمدهم يوديس أمير أكوتين بجيوش أفرنجية

وترجع أسباب ثورتهم هذه أن العرب أجحفوا بحلفائهم البربر الذين أبلوا بلاء حسناً فى المواقع الحربية فى أثناء القتال ، وتحملوا عبأه بنفوس قوية وعزيمة

ثابتة ، ولكن لما تم الفتح وأراد الفريقان من عرب وبربر اقتسام البلاد والاستقرار فيها اعتبر العرب البربر فى منزلة تلى منزلتهم ، وجادوا عليهم بالأقاليم الجبلية الشمالية حيث تصعب المعيشة وحيث القتال كان أبداً متصلا بينهم وبين المسيحيين فى معاقلهم الجبلية كجبال ليون واستورقة وجيلقية ، وأقاموا أنفسهم فى أخصب البلاد وأجملها مما احنق البربر واستثار حفيظتهم. ولم يكتف العرب بهذا بل كثيرا ما تدخلوا فيما بين البربر وبين المسيحيين ، فاذا ما فرضوا الجزية على النصارى تدخل العرب ومنعوهم من جمعها ، وأنزلوا بالمخالف شديد العقاب من سجن وجلد وتعذيب

ولحسن حظهم ثار فى ذلك الوقت إخوانهم فى شمال أفريقية ضد الحكم الاسلامى ، وذلك لما رأوه من عسف بعض الولاة العرب ، والبربر مجبولون على حب الحرية وكراهية الخضوع لحاكم قوى حازم شأنهم فى ذلك شأن العرب فى جاهليتهم ، ولما تغلب عليهم العرب بعد معارك دموية كما رأينا خضعوا على مضض ، وترقبوا الفرصة للقيام بالثورة لاسترداد حريتهم ، وقد سنحت لهم تلك الفرصة عند ما أرسل عبيد الله حاكم أفريقية حملة إلى جزيرة صقلية ، وفرض حاكم طنجة الجزية على من أسلم منهم ، فأجمعوا أمرهم على الثورة وقادهم ميسرة أحد مشاهير قوادهم ، وعلقوا المصاحف فوق أسنه الرماح وانقضوا على طنجة فاستولوا عليها وقتلوا حاكمها وقتلوا معه عدداً كبيراً من العرب ، وبلغ الخليفة هشام أمر ثورتهم فأرسل جيشاً من سورية ومصر بقيادة كلثوم بن قشير ومعه ابن أخيه بلج ، وبعد حروب طاحنة ارتد الجيش منهزما أمام البربر ، ولجأ إلى حصن سبته واستولى عليه وتحصن فيه ، وحاصره البربر ، وبذلك أصبحت ثورة البربر فى كل من شمال أفريقية والأندلس ثورة خطيرة الشأن من الوجهتين السياسية والدينية ،

ولو نشط نصارى الشمال فى ذلك الوقت ، وأجمعوا أمرهم وهاجموا الأماكن الاسلامية لاستفادوا كثيرا بسبب تفرق كلمة المسلمين

قامت هذه القلاقل ، ولكنها لم تدم طويلا بسبب يقظة الخليفة هشام بن عبد الملك ، إذ أنه حينما علم بالخطب الجلل الذى أصاب المسلمين فى سهول تور ، وبحالة البلاد المضطربة عين عبد الملك بن قطن الفهرى حاكما للأندلس ، وأمره أن يعمل على استعادة هيبة المسلمين فى تلك الأقطار

ولاية عبد الملك بن قطن الأولى :

تسلم زمام الأمر ، ونهض لاخماد الثورات نهضة قوية ، وقد استطاع أن يخمد ثورة البربر بواسطة استقدامه جند الشام من شمال أفريقية ، ثم التفت بعد ذلك الى محاربة الثوار من الفرنجة فى شمال البرانس ، وأمر حاكم أرجونة المسلم أن يقوم لغزو شرق فرنسا الجنوبى ، فنجح نجاحا عظيما فى تلك الأصقاع واستولى على مدينة أفنيون ، ثم رجع نحو الجنوب فقابله نصارى الجبال الاسبانيون ، وشتتوا شمل جيشه ، فأضاعت هذه الهزيمة ثقة قبائل اسبانيا فيه ، فعزله والى أفريقية فى الحال ، وولى مكانه أخاه عقبة بن الحجاج . وكان ذلك فى شهر رمضان عام ١١٦ ﻫ نوفمبر عام ٧٣٤ م

ولاية عقبة بن الحجاج :

كان قائداً لقوات الخليفة فى شمال أفريقية . وأظهر فى محاربة الثائرين من بربر أفريقية مقدرة وشجاعة : فعين أميرا على بلاد الأندلس إذ عزل القواد المغلوبين ، والعمال الذين استأثروا بمال الحكومة ، وأقام فى المدن والقرى قضاة ، وعين لكل اقليم والياً ، ورتب جيشاً لحفظ الأمن فى كل اقليم ، ووضع نظاما عادلا

للخراج ، واشتهر عصره بانشاء مساجد كثيرة بجوارها مدارس ، وعرف بين الناس بالنزاهة والاستقامة ، وقد عين عبد الملك الوالى السابق عند ما ظهر له براءته مما نسب اليه أميرا على الولايات الشمالية (نفاره وأرجون) وجعل مقره مدينة بنبلونة

غزوه بلاد الفرنجة

أمره الخليفة بعد أن استقام له الحال فى أسبانيا أن يغزو الفرنجة، فجهز جيشاً وسار به من قرطبة إلى الشمال ، ووصل إلى سرقسطة ، وعزم على جعلها مركز أعماله ، ووضع الخطة الحربية للزحف على فرنسا ، ولكن قبل أن يتم ما أراده قامت ثورة فى شمال أفريقية من جانب البربر للمرة الثانية ، فأرسل اليه أخوه يطلب النجدة ، فترك أسبانيا وأسرع إلى أفريقية ومعه قوة من الفرسان فى سنة ١١٩ هـ ٧٣٧ م

يقول بعض المؤرخين : إنه فى أثناء المدة التى أدار فيها الشئون فى أسبانيا قد غزا فرنسا عدة مرات ودفع بالفتوحات العربية إلى أبعد مما كانت عليه ، وانتشرت الجيوش الاسلامية فى أنحاء فرنسا وهددت عاصمتها ، وقد نهض شارل زعيم الفرنجة وتحالف مع غيره من النصارى وقاوم الفتح الاسلامى مقاومة عنيفة واستولى على أفنيون بعد حصار طويل وذبح حاميتها الاسلامية، ثم حول السهل الواقع فى جنوب اللوار إلى بلقع قفر ليعرقل تقدم المسلمين إذا ما عادوا إلى غزو بلاده

عقبة فى أفريقية :

وصل إلى طنجة واتحد مع القواد المحليين ، فبددوا شمل الثوار ، وسكنت

الفتنة فى شمال أفريقية ، وقد بقى فى تلك الأقطار طويلا ليعمل بجانب أخيه على تهدئة الأحوال واستتباب الأمن والسلام

اختلت الأمور فى أسبانيا فى أثناء غيبته ! فعاد اليها سنة ١٢٢هـ. سنة ٧٤٠م ولكنه مات بعد ذلك. وقد اختلف المؤرخون فى كيفية موته فمنهم من قال : إن موته كان نتيجة لدسائس عبد الملك ، ومنهم من قال : إن الشعب الاسبانى ثار فى وجهه وطرده من اسبانيا

ولاية عبد الملك بن قطن الثانية :

أقر الخليفة هشام عبد الملك بن قطن الفهرى فى امارة الأندلس سنة ١٢٥هـ وسنة ٧٤٣ م . وقد ثار البربر للمرة الثالثة فى شمال أفريقية بقيادة خالد الزناتى وانتصروا فى المغرب الأقصى على جند الخليفة انتصارا باهرا بعد أن هزموا الأمير كلثوم بن عياض قائد الخليفة ، فلما بلغت الأخبار اخوانهم ثاروا أيضا فى وجه عبد الملك بن قطن . وأرادوا التخلص من حكم العرب ، فقسموا أنفسهم إلى ثلاث فرق ، اتجهت فرقة إلى طليطلة ، وكان يحكمها أمية بن عبد الملك وأخرى حملت على قرطبة ، وكان عاملها عبد الرحمن بن عقبة ، أما الثالثة فقد اتجهت نحو الشاطىء لتمنع وصول المدد من أفريقية إلى أسبانيا

استعانة عبد الملك بجند الشام لاخمادة الثورة :

كان بعض الجند من الشاميين والمصريين قد التجئوا الى سبته أمام انتصار البربر ، وكان يقودهم قائدان هما : ثعلبة بن سلامه ، و بلج بن بشر ، فاستنجد بهما عبد الملك ، فعبرا مع جندهما البحر ، وذهبا الى أسبانيا ، فتغلبوا

على ثورة البربر، وهكذا أنقذ السوريون الموقف ومزقوا البربر كل ممزق وأصابوا حظا عظيما ومغانم وفيرة

قتل عبد الملك :

وصفا الجو وهدأت الثورة فأراد عبد الملك أن يتخلص من حلفائه البغيضين وطلب إلى زعيمهم بلج أن يغادر الأندلس، ولكن السوريين كانوا يودون الاقامة فى الأندلس حيث قرت أعينهم وطاب عيشهم : وهكذا تفتحت الجراح المندملة وتبين بلج سوء نوايا عبد الملك لما رفض هذا أن ينقل عسكر بلج معه بحجة أن سفنه لا تتسع للسوريين وأموالهم وعبيدهم وجواريهم، وعرض أن ينقلهم من الجزيرة الخضراء إلى سبته لا إلى مدينة غيرها، فبيت بلج النية على غدر عبد الملك فانتهز فرصة خلو قرطبة من جندها وانقض بجنده السوريين على قصر عبد الملك وقبض عليه، ونصب نفسه أميرا على الأندلس فى سبتمبر ٧٤١م، وطلب الجند من أميرهم بلج أن يقتل عبد الملك فجادلهم طويلا ليثنيهم عن عزمهم، وأخيرا اضطر إلى الرضوخ لرأيهم ودفعه إليهم فاقتادوه إلى قنطرة قرطبة وضربوه بالسياط ضربا موجعا ثم أغمدوا سيوفهم فى جسمه وصلبوه على القنطره إلى جانب خنزير وكلب

حال أسبانيا بعد قتل عبد الملك :

واستثارت هذه الشناعة وهذا التمثيل الفظيع بزعيم قد تقدمت به السنون كامن السخط فى نفوس عرب الجزيرة وهم الطائفة الأولى التى استقرت بالأندلس فنادوا بالحرب وأمروا عليهم ولدى عبد الملك — أمية وقطن — وانضم إليهم البربر انتقاما لأنفسهم، وجاء إليهم حلفاء آخرون منهم عبد الرحمن بن حبيب الفهرى من بنى لخم حاكم أفريقية ، وعبد الرحمن بن علقمة حاكم ناربونه ،

وبلغ عدد المتحالفين ما بين أربعين ومائة ألف ، أما جيش بلج فلم يزد عن أثنى عشر ألفا ، وانضم إليه عدد من حراث الأرض المسيحيين ، وانتظر بلج أعداءه بالقرب من قرية صغيرة اختار موقفه عندها ، فأصبح السيف هو الحكم الفاصل بين المدنيين والسوريين فى التسيطر على الأندلس

ولما التقى الجمعان فى أغسطس ٧٤٢ م دافع السوريون عن أنفسهم دفاع الأبطال وصدوا أعداءهم ، ولكن عبد الرحمن بن علقمة حمل على بلج وقصده بالذات وطعنه فى رأسه طعنات عدة ، إلا أن فرسان قنسرين صدوا هجماته وأوقعوا الرعب فى قلوب الحلفاء فولوا الأدبار بعد أن جندل منهم عشرة آلاف ، ودخل السوريون قرطبة دخول الظافرين ، ولكن عكر عليهم صفو هنائهم موت بلج متأثرا بجراحه ، فتولى القيادة يمنى اسمه ثعلبة ، فأطلق يد جنده فى قتل أعدائهم المدنيين وأباح لهم السلب والنهب وبهذا عظم أمره فى أعينهم — وبدأ ثعلبة قيادته بمطلع غير موفق إذ هاجم العرب المدنيين وحلفاءهم البربر المتحصنين فى ماردة ، فهزموه هزيمة منكرة تحرج بعدها موقفه ، ولكن ساعده الحظ بأن جاء يوم عيد وفيه نسى الناس أمر ثعلبة واحتفل القوم بعيدهم وتفرق الجند عائدين إلى أهلهم ، فأخذهم ثعلبة على غرة وهاجمهم وشتت شملهم وقتل منهم مقتلة عظيمة وأسر ألفا من الأسرى وسبى نساء أعدائه وأطفالهم فى مايو ٧٤٣ م وساق ثعلبة النساء والأطفال والأسرى إلى الأسواق حيث بيعوا بأبخس الأثمان أذلالا لأعدائه ، حتى لقد بيع رجل من المدينة بكلب وآخر بعنز . ولم يحدث قط منذ موقعة الحرة أن صب السوريون إهاناتهم على أهل المدينة من أبناء المهاجرين والأنصار كما فعلوا هذه المرة

فى هذا الموقف المصيب فكر قوم من عقلاء الطرفين فى وضع حد لهذه

الفظائع الناجمة عن الحرب الداخلية التى مزقت البلاد شر ممزق خشية أن ينتهز المسيحيون من أهل الشمال سانح الفرصة فى شن غاراتهم على المسلمين ، فأرسلوا الى حنظلة الكلبى والى أفريقية يسألونه فى ارسال حاكم قدير الى الأندلس من قبله يقوى على اعادة الأمن الى نصابه ، فأرسل اليهم حنظلة أبا الخطار الكلبى فوصل يوم بيع الأسرى من المدنيين فكان أول عمله أن أطلق سراحهم

ولاية أبى الخطار:

فى سنة ١٢٥هـ تسلم أبو الخطار زمام السلطة ، فوطد دعائم النظام فى الجزيرة بالسياسة والحزم أكثر من العنف والقوة ، الى أن دخلت كلها فى دائرة سلطانه واعترف أهلها بالسيادة العامة ، ثم أخذ يقسم الأراضى بين الجند الذين هرعوا الى اسبانيا من اليمن والشام ومصر والمغرب ، لكنه لم يدم استتباب الأمن فى الجزيرة زمنا طويلا لأن أبا الخطار عند قسمته الأرض بين القبائل مال الى جانب اليمنيين ، والحميريين ، فحنق من ذلك المضريون ، وثاروا فى وجهه ، وقاد الثورة الصميل بن حاتم بن شمر

الصميل بن حاتم بن شمر بن ذى الجوشن :

ظهر هذا الزعيم فى الأندلس وقت أن حكمها أبو الخطار ، وكان شيخ بنى قيس وجده هو الذى قاد جند يزيد فى قتال الحسين بن على وهو الذى أصر على قتل الحسين فى كربلاء واحتز رأسه بيده وحمله الى يزيد ، ولما ثار الخوارج التوابون لبنى على قتل المختار بن أبى عبيد الشيعى شمر ورمى جثته للكلاب

وعندئذ فر حاتم بن شمر الى قنسرين حتى اذا جهز هشام جيشه لاخضاع البربر فى شمال أفريقيه انضم اليه الصميل بن حاتم ، وكان فى صحبة بلج عند مسيره

إلى الأندلس بطلب من عبد الملك بن قطن الفهرى ، وأصبحت له منزلة بين بنى قيس واعتبروه زعيما لهم

وسبب الثورة المباشر أن حدث ذات يوم أن تقاضى أمامه شخصان أحدهما من كنانة والآخر من كلاب ، ومع أن الحق كان فى جانب الأول إلا أن أبا الخطار انحاز الى الكلبى

وشكى القيسى إلى الصميل فذهب لفوره إلى أبى الخطار فى قصره يناقشه الحساب ، ولكن الأمير طرده من قصره. واستعمل عبيد الأمير العنف فى إخراجه حتى انهدلت عمامته ، فلما كان فى طريقه لقيه شخص فقال له ما أصاب عمامة ابن جوشن فكان جوابه :

سأنظر إذا كان حولى قوم يصلحونها ، ولم يكن الصميل بالذى يستهان به ، فلم يكد يصل إلى بيته حتى دعا قومه للمشورة ، فقالوا له بين لنا رأيك وستجدنا إن شاء الله صابرين ولا نعصى لك أمراً ، فقال لانتزعن الملك من يده ، ثم سعى فى التحالف مع بنى لخم وأميرهم يوسف ، وبنى خزيمة وأميرهم ذؤابه ، ونجح فى استمالة أبى عطاء زعيم غطفان اليه ، ولما انتظم شملهم جمعوا جموعهم فى مقاطعة شدونة فى ابريل ٧٤٥ م وأمروا عليهم ذؤابة

ولما علم أبو الخطار بخروجهم سار بنفسه اليهم ومعه يمانيون فى جيشه ، وقابل ذؤابة والصميل عدوهما المشترك عند نهر بقة (جواديليت) فتهاون اليمانيون فى مقاتلة بنى قومهم من لخم وجذيمة ، ثم عمدوا إلى الفرار فتولت الضربات على جيش أبى الخطار من بنى كلب

وفر هو منهزماً مع فلول جيشه، وجدّ أعداؤه فى مطاردته حتى وقع فى أيديهم

فشدوا وثاقه وساقوه أسيرا ذليلا إلى قرطبه ودخل ذؤابه (ثوابة بن سلامه) قرطبة دخول الظافر وجلس على كرسى أمارة الأندلس .

ولم يستكن بنو كلب للهزيمة فقام أحدهم : عبد الرحمن بن نعيم وانقض على قرطبة فى ليلة مظلمة ومعه أربعون فارساً ومائتا راجل ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها ، وهاجم حراس أبى الخطار فشتتهم وأطلق سراح زعيمه وقاده إلى باجه حيث يقيم بنو كلب

ولما رأى أبو الخطار نفسه حرا طليقا جمع شرزمة من اليمانين وزحف على قرطبة ، ولكن تصدى له الصميل وذؤابه وأغرى الصميل اليمانيين أن يتخاذلوا وينسحبوا حقنا للدماء ، وللمرة الثانية قلب اليمانيون لأبى الخطار ظهر المجن

ولما توفى ذؤابة بعد انقضاء عام على تلك الحوادث فى يناير ٧٤٧ م سادت الفوضى بلاد الأندلس مرة أخرى ، إذ تنازع أمارتها عمرو بن ذؤابة وابن حريث ولكن الصميل رشح للامارة يوسف بن عبد الرحمن الفهرى

ولاية يوسف بن عبد الرحمن الفهرى :

وقد أراد من اختياره إياه أن يكون آلة فى يده يديرها كيف يشاء ويحكم هو البلاد من وراء ستار وفق هواه ومشيئته

ولم ير الصميل أن يحكم الاندلس جهرا وعلانية لعلمه ان بنى قيس أضعف من أن ينتصر بهم على مناوئية من بقية القبائل العربية

وكان يوسف الفهرى من سلالة عقبة بن نافع قد تقدمت به السنون إذ بلغ السابعة والخمسين من عمره .

ولما رأى الصميل أنه أصبح فى مقدوره جمع كلمة كل القبائل من معدّ لم

يخش إظهارحقيقة كراهيته للقحطانيين ، وحدثته نفسه أن يتخلص منهم فانقلب على جذيمة وسلب زعيمهم ابن حريث ما كان يحكم من المدن فتحالف هذا مع أبى الخطار ، واتفقا على أن يعملا معا وتكون الامارة لابن حريث وانضم اليهما بنو كلب وجند اليمن عامة من كل حدب وصوب ، كما انضم بنو معد إلى يوسف والصميل والتفوا حولها ، فكان الجار ينعزل عن جاره والصديق يفارق صديقه ، و يعتذر كل للآخر عما قد يكون من أمرهما إذا تلاقيا فى الميدان

ولتعادل القوتين كانت الحرب صراعا طويلا انحصرت فى جنوب الاندلس اشترك فيها زهرة فرسان وأبطال الفريقين وأشرافهم ، ودارت الحرب على شاطىء الوادى الكبير على الضفة المقابلة لقرطبة ، و بحث كل عن خصمه بعد صلاة الصبح ، فكانت مناجزة رجل لرجل، وأرخى الليل سدوله ولم يكتب لفريق النصر على خصمه ، وعندئذ لحق الفريقين الاعياء وأجهدهما النصب بعد إذ تكسرت السيوف والقسى والنصال ، فأشار الصميل على يوسف بدعوة رعاع قرطبة فحضر منهم ٤٠٠ معظمهم أعزل من السلاح ومع قليل منهم سيوف ورماح : ومع القصابين من بينهم مدى وسكاكين ، وعند وصولهم انقضوا على أصحاب ابن حريث المنهوكى القوى لما أبلوه طيلة اليوم ، وهزموهم ووقع أبو الخطار فى أيديهم أسيرا فلما أرادوا قتله غاظه أن يهرب شريكه ابن حريث و ينجو بحياته فدل الاعداء عليه فقادوه من مخبئه وضربوا عنقيهما معا

ولما تم الأمر ليوسف بن عبد الرحمن الفهرى رأى أن يتخلص من الصميل وتدخله فى شئون الحكم فعينه حاكما على سرقسطه ، وأطاع الصميل الأمر ورحل اليها عام ٧٥٠ م

ولما عم القحط البلاد فى تلك السنة ، ومرت خمس سنين عجاف هلك الناس

جوعا . عندئذ تجلت فى الصميل شمائله العربية فنسى عداءه وغيظه وعصبيته وفرق الأموال ، ووزع الخبز وأطعم الجائع وأهدى العبيد ، وأغاث كل مسكين لافرق فى ذلك بين قومه وخصومهم

ولكن ذلك لم يكسبه القلوب ، ولم يستطع الصميل أن يؤلف به بين القبائل المتناحرة ، ولو انه أثمر ثمرته المرجوة لكفى الأندلس شر الفتن والحروب الداخلية وماتجره من كوارث ونكبات ، ولكن انى للاحسان أن ينسى من ناله ماله من ثأر عند من أحسن اليه . لهذا لم تكن تلك المكارم العدنانية لتجدى إلا هدنة وقتية فما كان اليمانيون بالذين يرضخون لسيادة العدنانيين وهم الذين دوخوا الأندلس فى اعتقادهم ، لهذا قطعوا العزم على أن يستردوا سؤددهم القديم فى أول بادرة تسنح لهم . كذلك استاء القرشيون لما رأوا من اعتلاء أحد بنى فهر الامارة

ظهور عامر وحباب :

وتحالف القرشيون واليمانيون . وكان ليوسف أمير قرطبه قائد قرشى يدعى عامرا كان له الفضل فى اخضاع المسيحيين فى الامارات الشمالية ، ولكن يوسف عزله من القيادة فأحفظه ما لقى من سوء معاملة ففاوض اليمانيين فى محاربة يوسف وخلعه

وأشار الصميل على يوسف باغتيال عامر ، ولكن عامرا علم بالنية المبيتة فهرب إلى الشمال حيث جمع جموع اليمانيين بالقرب من سرقسطة ، ومالبث أن ظهر قرشى آخر يدعى حباب وانضم لعامر عند سرقسطة ، وتقاطرت جموع اليمانيين كافة من جميع جهات الاندلس و بلاد البربر ، وزعم عامر وحباب أنهما تلقيا أمرا بمقاتلة الصميل و يوسف عن الخليفة العباسى

وهزم الصميل فى هذه المرة وحوصر فى سرقسطة ، على أن عاملا لم يكن فى الحسبان تدخل فى انقاذه ، وذلك أن الامويين فى بلنسية وكذا بنى قيس وكلاب ومحارب وسليم و بكر بن وائل و بنى على ساروا لانقاذه ، ولما رآهم المحاصرون من بنى معدتفرقوا وتخلوا عن الحصارخشية أن يحاط بهم من كل جانب ، وهكذا نجا الصميل فدخل بنو قيس وحلفاؤهم سرقسطة وأجزل الصميل مكافأتهم على حسن صنيعهم

وظل يوسف حاكما على البلاد نحو ١٠ سنوات فى أثنائها حدثت حوادث جسام فى المشرق : إذ سقطت الدولة الأموية وحلت محلها الدولة العباسية ، وكان لهذا الانتقال أثره فى أسبانيا ، إذ تجدد الشقاق بين القبائل العربية ، ونشط كل من نصارى الفرنجة ، ونصارى شمال أسبانيا ، وأغاروا على أملاك المسلمين

واستولى الفرنجة على أرجونة سنة ٧٥٧م وذبحوا أهلها من المسلمين ، وخربوا مساجدها ودمروا دورها ومعاهدها

وكذلك استظهر ثوار المقاطعات الشمالية فى مقاطعة ليون ، وطردوا المسلمين من المعاقل الجبلية ، واتخذوها مقرا لهم لتشييد مملكة قوية ، وظلت أسبانيا فى اضطرابات فظيعة ، كما ظل يوسف يكافح الثورات حتى سنة ١٣٨هـ ، سنة ٧٥٧م حيث تمكن أحد الأمويين الذين نجوا من مطاردة العباسيين وهو عبد الرحمن الداخل من دخول أسبانيا واستطاع أن ينتزع الامارة من يوسف ، وأسس فيها حكما أمويا مستقلا . و بهذا انقرضت امارة الامراء ومدتها من دخول طارق نحو ٤٥ سنة

الفصل الرابع

اسبانيا النصرانية بعد الفتح العربى

فتح العرب أسبانيا فى أواخر القرن الأول من الهجرة ، وفى أوائل القرن الثامن الميلادى كما مر بنا ، وخضع أهلها لحكم العرب وعاشوا فى كنفه متمتعين بحريتهم السياسية والدينية ، وقد بهر الاسلام الكثيرين منهم فاعتنقوه ، وصاهروا الغزاة من العرب والبربر فأصبحوا بفضل نعمة الاسلام يقفون على قدم المساواة مع الفتاح ، لهم ما لهم وعليهم ما عليهم ، وتمتع الذين آثروا البقاء على دينهم من نصارى ويهود بحرية دينية واقتصادية لم تألفها تلك القرون المظلمة التى عاصرت الفتح الاسلامى لبلاد الاندلس . أما المتمنتون من نصارى الاسبان والقوط الذين فروا أمام موجة الفتح إلى شمالى أسبانيا وشماليها الغربى فان العرب أهملوا أمرهم فى ذلك الوقت استصغارا لشأنهم . ونشطوا لمحاربة الفرنجة والتوغل فى أرض جنوب فرنسا ، وكان موسى بن نصير قد فكر فى ابادتهم ، وسحق عدوانهم واقتحام معاقلهم الجبلية ، ولكنه لم يفعل بسبب استدعائه قبل تنفيذ مشروعه

وقف تيار الفتح العربى فى فرنسا بعد موقعة تور ، وعصفت نيران الثورة فى أسبانيا العربية ، واشتغل ولاتها بقمع الفتن الداخلية ، فانتهز هؤلاء النصارى تلك الفرص وعملوا على توطيد أقدامهم وتوسيع رقعة أملاكهم فى الأقاليم الجبلية فى الشمال والغرب ، وذلك بفضل الجهود الجبارة التى بذلها زعيم ظهر من بينهم يسمى بلايو . يقول هـ . ادوارد واتس المؤرخ الشهير « فر نفر من القوط ومعهم فريق من الاسبان الوطنيين الذين تحلوا بصفة الوطنية الحقة المتعصبين لدينهم إلى أقاليم أستورقة الجبلية ،

تلك الأقاليم التي كانت معقلا للوطنيين الاسبان من قديم ، وفي أحضانها ، وعلى هضاب جبالها وفي كهوفها ومغاورها امتزج القوط بالأسبان وكونوا عنصرا واحدا واختاروا بلايو زعيما لهم » .

وفي تلك البقاع تكونت أمارتهم يحدها البحر من الشمال ، والجبال من الجنوب ، وفي سنة ٧١٨ م يذكر المورخون أن بلايو انتصر على المسلمين في موقعة دموية تسمى كوفادونجا « Covadonga » و يقدس هؤلاء المؤرخون من الاسبان اسم هذه الموقعة . مثلهم في ذلك مثل الاغريق في تقديسهم لموقعة « مارثون » إذ بانتصار بلايو المزعوم أنقذ إمارته الفتية من الدمار على أيدى العرب ، كما أنقذت مرثون بلاد الاغريق من الدماء على أيدى الفرس

بعث هذا الانتصار روح الأمل والمقاومة في نفوس الاسبان وعلموا أن الاتحاد والاقدام لها ثمرتهما ، وأصبحت تلك المقاطعة من ذلك العهد مأوى يأوى إليه الحاقدون على حكم العرب والخارجون على طاعتهم ، و بعد كفاح طويل مات بلايو ٧٣٧ م ، ورفعه المورخون من الاسبان إلى مقام القديسين والأولياء — وخلفه في زعامته ابنه فافيلا ، ولما قتل بعد ذلك بعامين جلس على عرش الأمارة صهر له يسمى الفونسو الكاثوليكي إذا كان أليق النبلاء لشغل ذلك المنصب الخطير الشأن ، وقد استطاع بحزمه وحسن قيادته أن يوسع رقعة ملكه إذ ضم لأمارته معظم مقاطعة جليقية (البرتغال الحالية) ، وامتدت حدوده حتى وصلت نهر دويره ، وانتزع من العرب ليون وسلمنقة وزامورة واستورقة وغيرها من المدن التي تقع نحو الشمال الشرقي حتى وصل إلى مقاطعة قشتالة ، واستمر في فتوحاته مستردا البلاد والأقاليم من سيطرة العرب حتى قيل إنه استرد نحو ربع أسبانيا . وقد ساعده على ذلك اشتغال المسلمين إذ ذاك بحروبهم الداخلية . وتنازعهم الحكم

فيما بينهم ، ولكن العرب ما لبثوا أن سووامشاكلهم واستقامت الأمور فى أسبانيا العربية عند ما أسس عبد الرحمن الداخل الأموى إمارة أموية عربية فى أسبانيا وأصبحت تلك المدن والأقاليم ميدانا للقتال بين المسلمين ونصارى الاسبان طورا يستردها المسلمون وطورا يستولى عليها النصارى ، وفقدت أهميتها الاقتصادية والعمرانية بسبب تلك الحروب المتكررة ، و بسبب انتقال ملكيتها من يد عربية اسلامية إلى يد اسبانية نصرانية

مات الفونسو الأول فى سنه ٧٥٧ م ، وخلفه على العرش ابنه فرويلا وتبعه كثيرون من أبنائه وأصهاره يحكمون اسبانيا النصرانية التى كانت تارة تصمد للعرب فى ميادين القتال وتحافظ على استقلالها ، وتارة تضعف أمامهم وتقر لهم بالتبعية وتدفع الجزية — وظلت سائرة على ذلك المنوال حتى النصف الثانى من القرن التاسع الميلادى عند ما جلس على عرشها الفونسو الثالث الذى يعده المؤرخون المؤسس الثانى والحقيقى لاسبانيا النصرانية. إذ فى عهده (٨٦٦— ٩١٠)م أصبح الاسبان أسياد الاقاليم الجبلية يحكمون على مقاطعات استورقه ، و بسكاى وجليقية وشمال البرتغال ومعظم بلاد النفار ، وقاتلوا المسلمين فى اثناء تلك المدة قتالا عنيفا مما سنفصله ونحن نتتبع الاخبار السياسية والحربية لاسبانيا العربية الاسلامية

الباب الثاني

قيام الدولة الاموية بالاندلس

الفصل الأول

عبد الرحمن الداخل (صقر قريش) :

سقطت الدولة الأموية عام ١٣٢ هـ ، وتولى السفاح أمر الخلافة الاسلامية بعد أن تغلب على قوات الأمويين فى معركة نهر الزاب بانتصار عمه عبد الله بن على على جيوش مروان بن محمد آخر خلفاء الامويين ، وقد طارد العباسيون من بقى من الامويين مطاردة عنيفة فى أنحاء الاقطار الاسلامية ، وقتلوا عددا كبيرا منهم بطريقة الغدر ونكث العهود، وكان من نتائج هذه المطاردة أن اختفى عدد من هؤلاء الإمراء ، واستطاع احدهم وهو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام ان يفر من وجوه المطاردين وينجو بنفسه وكان إذ ذاك فى العشرين من عمره

تربى عبد الرحمن يتيما فى بيت الخلافة الاموية ، فقد مات ابوه معاوية سنة ١١٨ هـ وهو ابن خمس سنين فكفله واخوته جده هشام بن عبد الملك عاشر الخلفاء الامويين ، وكانت امه من قبائل البربر تسمى راح ، وكان الخليفة يقطعه اخماس الاندلس فاتجهت انظاره إليها بعد نكبة اسرته بالمشرق

جدّ بنو العباس فى طلبه ففر منهم إلى افريقية وإليك ما قاله عن كيفية فراره :

« وإنى لجالس يوما فى قرية على شط الفرات فى ظلمة بيت تواريت فيه لرمد كان بى وابنى سليمان يلعب أمامى ، إذ دخل الصبى نازعا باكيا فأهوى إلى حجرى فجعلت أدفعه لما كان بى ، ويأبى إلا التعلق بى وهو دهش يقول ما يقوله الصبيان عند الفزع ، فخرجت لانظر فاذا بالروع قد نزل بالقرية ، ونظرت فاذا بالرايات السود عليهامنحطة ، وأخ لى حدث السن كان معى يشتد هاربا ويقول لى « النجاة يا أخى فهذه رايات المسودة » ، فضربت بيدى إلى دنانير تناولتها ونجوت بنفسى والصبى أخى معى ، وأعلمت أخوتى متوجهى وأمرتهن أن يلحقننى ومولاي بدر معهن ، وخرجت فكمنت فى موضع ناء عن القرية . فما كان إلا ساعة حتى أقبلت الخيل فأحاطت بالدار فلم تجد أثرا ، ومضيت ولحقنى بدر فأتيت رجلا من معارفى بشط الفرات . وأمرته أن يبتاع لى دواب وما يصلح لسفرى فدل علىّ عبد سوء له ، فما راعنا إلا جلبة الخيل تحفزنا ، فسبحت حاثا لنفسى وسبح الغلام أخى فناداتا القوم من الشط أرجعا لا بأس عليكما ، فلما قطعت نصف الفرات قصر أخى فالتفت لأقوى من قلبه ، وإذا هو قد أصغى اليهم وهم يخدعونه عن نفسه فناديته « تقتل يا أخى إلى إلىّ » وإذا هو قد اغتر بأمانهم وخشى الغرق فاستعجل الانقلاب نحوهم ، وقطعت أنا الفرات ، ثم قدموا الصبى أخى الذى صار اليهم بالأمان فضربوا عنقه ومضوا برأسه وأنا أنظر اليه ، فاحتملت فيه ثكلا ملأنى مخافة ، ومضيت إلى وجهى أحسب أنى طائر ، فلجأت إلى غيضة فتواريت فيها حتى انقطع الطلب ، ثم خرجت هاربا أروم المغرب حتى وصلت إلى أفريقية وهناك لحق بى مولاى بدر وسالم ومعهما دنانير وجواهر »

حال أفريقية وقتئذ

كان يحكم أفريقية وقتئذ عبد الرحمن بن حبيب الفهرى ، وكان يأمل أن تبقى ولاية أفريقية له فى ظلال العهد الجديد ، ولذلك قلب ظهر المجن للأمويين أسياده القدماء ، ودار مع الدهر ونسى احسانهم اليه ، ولذلك جد فى طلب عبد الرحمن الأمير الأموى حتى يفتك به ، واستطاع عبد الرحمن أن يهرب من وجهه وفتك الوالى بولدى الوليد بن يزيد بن عبد الملك

جاب الأمير الأموى بلاد برقة على غير هدى . وانتقل بين قبائلها وكان يلقى فى كل بلد حل فيه كراما يكرمون مثواه لما اتصف به من دماثة الخلق ونبل الصفات ، وأخيرا انتهى به المطاف إلى مدينة تاهرت حيث تقيم قبيلة زناته وهى من القبائل المشهورة بين البربر ، واليها ينتسب طارق بن زياد ، وكانت منتشرة فى جزء عظيم من ساحل أفريقية ولها أعوان وأنصار كثيرون . وقد لقى الأمير بينها ما كان ينشده من عطف وبخاصة بين قبيلة نفزة الضاربة حول سبته والتى تنتسب أمه اليها ، فكان منها أخواله ، وكان قد قضى نحو الخمس سنوات فى مطافه وتأكد فى أثنائها أنه لا يستطيع إقامة ملك له فى أفريقية فاتجهت أنظاره إلى أسبانيا

حال اسبانيا فى ذلك العهد :

كانت الحروب الأهلية تمزق أسبانيا ، وكان أميرها يوسف الفهرى يطارد الثوار فى طليطلة وسرقسطه ، فرأى الأمير الأموى ان الفرصة سانحة للاتصال بانصار أسرته ، فيها وأرسل بدرا مولاه يحمل خطابا إلى هؤلاء الأنصار يشرح فيه ما لاقاه من نفى وتشريد وما ناله من اضطهاد فى أفريقية ، وسافر بدر

لاتمام رسالته ونزل بين قبائل الأمويين النازلة فى مقاطعة البيرة وجيان ، واجتمع بالزعماء وكانوا حاقدين على إدارة يوسف الفهرى ووزيره الصميل لميلهما إلى الفهريين والقيسيين وتفكيرهما فى سلخ الأندلس عن خلافة العباسيين والاستقلال بها

كاشف بدر هؤلاء الزعماء بمقصده وأخبرهم بأمر عبد الرحمن الأموى فرحبوا بالفكرة ، وقرقرارهم على دعوة عبد الرحمن إلى بلاد الاندلس وعقدوا الخناصر على مؤازرته ، وأرسل الزعيمان الأمويان أبو عثمان عبيد الله وصهره عبد الله بن خالد الدعوة الى الامير الاموى ، وطلبا اليه الاسراع بالحضور الى الاندلس ، وسافر وفد بصحبة بدر لتنفيذ ما استقر الرأى عليه ، وفى حضرة الامير فى تهارت تقدم رئيس الوفد وهو تمام بن علقمة وعرض أمارة الاندلس عليه باسم جند الشام بها وخطب قائلا :

« اجمع المسلمون الصادقون على ائتمامك امير الجزيرة فيسعك ان تبنى فيها ملكا مشيد الاركان ، موطد الدعائم على اساس اقوى من الجبال ، معتمدا على عزائمهم القوية وطاعتهم الصادقة . لا ريب انك ستجد مقاومة و بعض الخطر ولكنك لست وحدك ، بل بجانبك فتيان اشداء من ابناء من فتحوا الغرب ، وشعوب ترغب فيك وتدعوك اليها ونحن جميعا نهب الى الوغى ، ونبذل الارواح فى سبيل ارتقائك الى عرش الامارة التى نلقى مقاليدها اليك ، ونحفظ بنيانها من ان يثلم »

واجاب عبد الرحمن الدعوة بخطاب جاء فيه :

« ايها السراة الامجاد . اجابة لرغائبكم . وسعيا وراء امانيكم فى اصلاح شؤون مسلمى اسبانيا اذهب معكم ، باذلا النفس فى سبيل الدفاع عن هذه الغاية الحميدة ، فاذا صدقت عزائمكم ودامت طاعتكم وفتح الله لنا باب الفوز رأيتم منى اخا ثقة يقاسمكم الشقاء والهناء » .

فرح شيوخ زناته لهذا التوفيق، وهنأوا عبد الرحمن بالمنصب الخطير، وأمدوه بسبعمائة وخمسين فارساً من فرسان تاهرت فعبر بهم البحر ، ونزل بحصن المنكب على ساحل البيرة وكان ذلك فى ربيع الآخر عام ١٣٨ هـ سبتمبر سنة ٧٥٥ فى خلافة أبى جعفر المنصور

عبد الرحمن بالاندلس:

انتشر خبر دخول عبد الرحمن الاندلس بسرعة فى جميع أنحاء اسبانيا الجنوبية، فهرعت اليه وجوه القبائل وفى مقدمتهم أبو عثمان وابن خالد وكانوا يبايعونه ويلقبونه بالداخل . وفى مدة وجيزة جمعوا له عشرين ألف جندى ، فأخذ ينتقل على رأس هذه القوة من أقليم إلى آخر قاصدا قرطبة ، وكان رؤساء اليمنية ينضمون اليه فى أثناء المسير ، وقد سلك الطريق فى زحفه من الشرق إلى الغرب فى البلاد التى يسكنها المضريون والسوريون الموالون له ، وكانت المدن تفتح له أبوابها ، ولما قرب من اشبيلية سارع أهلها وهم من قريش لاستقباله ، والآن نتركه يزحف على قرطبة ونعود إلى أمر يوسف الفهرى ووزيره الصميل

يوسف الفهرى والصميل :

ثار عامر القرشى فى وجه يوسف وانضم اليه قرشى آخر يسمى حباب، وعملا على التخلص من يوسف ووزيره الصميل كما رأينا ، وقد نجح الثائران فى جمع الأعوان وحاربا الصميل وحاصراه فى سرقسطه ، ولكن الامويين فى بلنسية وبنى قيس وبنى كلاب وبنى محارب وبنى سليم وغيرهم هبوا لانقاذه ، ولما رآهم المحاصرون تخلوا عن الحصار ولاذوا بالفرار. ونجا الصميل مما كان أحاط به وطلب اليه زعماء الامويين أن يسمح لهم بمقابلة خاصة ، ولما قابلوه اطلعه عبيد الله على

رسالة الأمير الأموى وسأله رأيه فيها ، فوعد الصميل بالنظر فى الأمر و إبداء الرأى فيه بعد وقت قليل ، ورجع الأمويان وأتباعهم إلى أوطانهم

أما يوسف فقد كان يجهز الجند للخروج بهم من قرطبة لمعاقبة ثوار الشمال وطلب إلى الأمويين الانضمام اليه ، وزحف حتى وصل إلى طليطلة ومنها سار إلى سرقسطه ، و بالقرب من ممرات جبال الشارة لحق به الأمويان بمفردهما وطلبا اليه أن يمهلهما قليلا حتى يجمع أنصارهم محصول الربيع ثم ينهضون لمؤازرته فى حملته التأديبية ، فأعطاهما يوسف بعض المال وقفلا راجعين ، وفى طريقهما قابلا الصميل وهو يريد اللحاق بيوسف وسألاه عما استقر عليه رأيه فى أمر عبد الرحمن ، فوعدهما أولا بالمساعدة ، ثم رجع وعدل عن الرأى وأخبرهما بأنه لا يوافق على ارتقاء عبد الرحمن عرش البلاد خوفا منه وحرصاً على مركزه فى الأندلس ، وأنذرهما بأنه سيكون من المؤازرين ليوسف ضد هذا الأمير ، فتظاهر الامويان بالموافقة على رأيه ، ورجعا إلى مقر نفوذهما وهما يضمران المضى فى خطتهما

كان على الصميل وقتئذ أن يكاشف يوسف بأمر الأمير الأموى ولكنه لم يفعل ، وجد يوسف فى طلب ثوار سرقسطه ووصل اليها ، ووجد أن الثائرين لاذوا بالفرار ، وتقدم اليه زعماؤهم يطلبون الصلح والأمان ، فقبل منهم على شريطة أن يقدموا له من القرشيين عامرا وابنه وهب وحبابا ، فسلموهم اليه ، فأمر بوضعهم فى الاغلال وأخذ فى محاكمتهم ثم سجنهم ، وكان من رأى الصميل أن تضرب أعناقهم ، ولكن يوسف لم يأخذ برأيه بسبب معارضة القرشيين

رجع يوسف إلى طليطلة فرحا بانتصاره على الثوار وذلك فى أواخر سنة ١٣٧ هـ ٧٥٥م ، ولكن ما لبث أن انقلب فرحه ترحا إذ فاجأه خبر دخول عبد الرحمن الاندلس وما لاقاه من ترحاب بين أهل الجنوب ، وكان وقتئذ فى وادى نهر الرمل

على بعد خمسين ميلا من طليطلة ، وعندئذ قتل الثلاثة المصفدين طعنا بالرماح ، وكان فى قتلهم أفول نجم سعده . و بزوغ شمس سعادة خصمه عبد الرحمن

الصراع بين الاميرين :

أرسل يوسف فى طلب مستشاره الصميل و أخبره بما سمعه عن عبد الرحمن فأظهر الصميل استخفافه بالأمر ، وأشار عليه بالزحف لملاقاته معتقدا أن أنصاره قليلون ، وأن هزيمة واحدة تنزل به كافية لاحباط غرضه والخلاص من شره ، فأخذ يوسف برأى وزيره واستعد للقتال

حال جيش يوسف :

ذاع فى عسكر يوسف نبأ قدوم عبد الرحمن وانضواء الجنوب تحت لوائه والتفاف الانصار حوله ، وأنهم سيدعون لقتاله ، فسخط الجند لتأخر أعطياتهم كما ساءهم قتل القرشيين ، وأنهاك قواهم فى حروب طويلة لا تنتهى ، فتسلل اليمنيون بقطع من الليل عائدين إلى بلادهم ، وطلب القيسيون و بنى معد إلى الصميل أن يؤخر الحرب الى مستهل الربيع لأن الشتاء كان منهم قريب فلم يقبل ، وأجبرهم على المسير ، ولكن السماء أمطرتهم مدرارا أثناء مسيرهم ، فرأى يوسف استحالة الاستمرار فى الزحف ، ومن ثم أمر بالعودة إلى قرطبة ، وكان يوسف يعتقد أن عبد الرحمن لا يبغى ملكا ولا جلد له على الكفاح فى سبيله ، وانما يطلب رغد العيش فى الاندلس و يمنى نفسه بأن يتزوج عبد الرحمن باحدى بناته ، و يكتفى بذلك عن خوض غمار الحروب ، فلم يكد يصل إلى قرطبه حتى أرسل بعثة إلى عبد الرحمن من خالد كاتبه وعيسى موزع أرزاق الجند وعبد الله القيسى ومعهم الهدايا ، ففاوضته البعثة فى مهمتها فأجاب عنه زعماء الأمويين ان الأمير انما جاء

فى طلب ما خلفه جده هشام من مال وعقار لا لانتزاع الامارة من يوسف ، ولم يكن هذا رأى عبد الرحمن ولكنه قبل مرغما ما ارتآه أنصاره ، فطلب إلى أبى عثمان عبد الله أن يكتب بذلك إلى يوسف ، ولكن لفظة نابية من خالد كاتب يوسف ورئيس مفوضيه لأبى عثمان عبيدالله زعيم الامويين ، وكبير حاشية الامير عبد الرحمن غيرت مجرى التاريخ : ذلك ان خالدا تفاخر على أبى عثمان ، لأنه لم يكن ماهراً فى الكتابة ولا قديرا على التحبير والتسطير ، فقال له : سترى العرق يسيل من ساعدك قبل أن تكتب ما تريد. عندذلك غير أبو عثمان رأيه وغضب لما حسبه اهانة فصاح بخالد : صه أيها الكاذب لن ترى عرقا يجرى من ساعدى لأنه لا رد على مثل هذا الخطاب ، وألقى بخطاب يوسف فى وجهه ، وضربه بقبضة يده على رأسه ، وأمر باعتقاله موثوقا بالسلاسل والأغلال ، وقال إن هذا أول انتصار لنا ، إن هذا الرجل يدير أمر يوسف ومن غيره لا يستطيع يوسف أن يعمل شيئا ، فقال عبيد القيسى : لقد علمت ان خالدا رسول ، وان الرسول لا يمسه سوء . فقال أبو عثمان: « انت الرسول ولك منا الأمان ، فسر إلى صاحبك تحرسك عناية الله »

وهكذا فشلت مهمة البعثة ، وقطعت المفاوضات وأصبح السيف هو الحد الفاصل فيمن سيؤول اليه ملك الاندلس

الحرب بين الفريقين:

انضم إلى عبد الرحمن فى هدنة الشتاء جند اليمن وقسم من البربر وستة من أمراء قيس لحزازات شخصية ، منهم جابر بن شهاب الذى قذف به يوسف إلى غمرة الحرب فى الشمال فقتل ، وحسين القرشى صاحب شهاب الذى عاد منهزماً ، وأبو بكر بن هلال العبدى لشىء فى نفسه ضد الصميل ، وثلاثة من بنى ثقيف

من قبيلة الحجاج المشهورة بولائها لبنى أمية

انقضى الشتاء وكل يوالى الاستعداد وحل الربيع فبدأ عبد الرحمن زحفه مجتازا أرض الجند اليمنيين ، فدخل أرقيدونة صبيحة يوم عيد الفطر ٨ مارس ٧٥٦ م وخطب له فيها ، ومنها ذهب إلى شذونه ، فانضم اليه أثناء مسيره ٤٠٠ من المغاربة ، وخرج بنو كنانة من معد للانضمام ليوسف ، ولما اقترب من اشبيلية انضم اليه حاكمها أبو الصباح اليحصبى وبايعه أهلها ، وعلم يوسف باقترابه من قرطبة فتهيأ لقتاله ، وسار كل على ضفة من ضفتى نهر الوادى الكبير ، وأصبح المسير سباقا للوصول إلى قرطبة والنهر يفصل بينهما ، ووقف عبد الرحمن يتهيأ للقتال فى وقفة عيد الاضحى ١٣ مايو ٧٥٦ م وقد صمم على عبور النهر والهجوم على عدوه ، وتذكر عبد الرحمن أن فى مثل يوم عيد الاضحى قد انتصر الامويون فى معركة مرج راهط على قائد فهرى يناصره وزير قيسى فقال : ليكن الغد مجددا لذكرى هذا الانتصار ، واحتال عبد الرحمن على عدوه مراوغة ، فأرسل إلى يوسف انه على استعداد لقبول الصلح ، والشروط السابق عرضها عليه ، والتى كادت أن تقبل لولا وقاحة خالد . وانه سيعبر النهر فى وضح الغداة لابرامه ، وان حالة جنده تستوجب التعجيل فى هذا الصلح لقلة الطعام لديهم ، وانه وقد خطا إلى السلم هذه الخطوات يرجو أن يمده يوسف بمؤن تفرج من ضائقة عسكره ، وصدق يوسف ما زعم عبد الرحمن ووقع فى الشرك فأرسل أغناما وماشية ، وفى صبيحة يوم العيد كشف يوسف أمر خديعة عبد الرحمن إذ شاهد جنده يتهيئون للقتال فتهيأ هو أيضاً ، وظهر عبد الرحمن على ظهر جواد وإلى جانبه أمينه وكبير مستشاريه أبو عثمان عبيدالله يحمل اللواء ، وهجمت جيوش عبدالرحمن بعداجتياز النهر فهزموا أعداءهم ، وفر يوسف وحليفه الصميل ناجين بنفسيهما إلى

الشمال ، واستبسل القيسيون فى القتال بعد فرار زعيمهم الصميل ، وباعوا أنفسهم غالية ، وسلب جيش عبد الرحمن معسكر يوسف وساروا مثقلين بالغنائم والاسلاب إلى قرطبة فدخلوها ظافرين ، وأسرعت جموعهم إلى قصر يوسف وقصر الصميل تسلب وتنهب ، ووقع فى يد الجند غنائم قيمة وأموال طائلة ، ولما دخل عبد الرحمن قرطبة بادر إلى قصر يوسف فمنع السلب منه وحمى من به من النساء ورأى أم عثمان زوجة يوسف ومعها ابنتاها فقالت له خذ بناصرنا كما أخذ الله بناصرك فدعا عبد الرحمن بصاحب الصلاة من اتباع يوسف وأمره أن يحتفظ بهن فى أحد المساجد ، وكان جزاء عبد الرحمن أن أهدته احدى بنات يوسف جارية تدعى حللا تزوجها ورزق منها ابنه هشاما ثانى أمراء الأمويين فى الأندلس

استتباب الأمر لعبد الرحمن وسقوط يوسف والصميل :

هرب الصميل ويوسف الفهرى وبذلا مجهود اليائس ، فجمع يوسف أهل سرقسطة وطليطلة وسار إلى مرسية فاستولى عليها ، وأسرع عبد الرحمن لملاقاته وباغت أبو زيد بن يوسف الفهرى قرطبة وهى خلو من الجند فاستولى عليها ، ولكن كل هذه الجهود كان مقضيا عليها بالفشل ، إذ لم يكد يعلم عبد الرحمن بما كان من أمر أبى زيد حتى عاد إلى قرطبة ، وأسرع أبو زيد بالهرب وأخذ معه أبا عثمان عبيد الله أسيرا ، ولم يلبث يوسف والصميل أن أدركا عقم جهودهما ضد عبد الرحمن فاستسلما اليه ودخلا فى طاعته ، وأمنهما عبد الرحمن على نفسيهما وما لهما ، وأخذ عنده أبا زيد وأبا الأسود ولدى يوسف الفهرى رهينة ، وأطلق يوسف أبا عثمان عبيد الله كما أطلق عبد الرحمن خالدا كاتب يوسف ، ودخل عبد الرحمن قرطبة فى يوليه ٧٥٦ م دخول الظافر ويوسف إلى يمينه والصميل إلى يساره . ولكن يوسف ما برح أن فر يبغى جمع أنصاره لاسترداد الملك فساء

ذلك عبد الرحمن وامر بسجن ولديه وسجن الصميل الذى اتهمه بأن له ضلعا فى فى تدبير هذا الهرب . وجمع يوسف جموع رجال مارده وعرب المغرب وسار الى أشبيلية وتردد فى حصارها وكانت عدة جيشه عشرين الفا ، فسار يبغى قرطبة ولحقه أمير أشبيليه لمناجزته تأخيرا له حتى يصل الخبر إلى عبدالرحمن فيعد للأمر عدته ، وأخذ امير أشبيلية يطاوله ويراوغه كرا وفرا ، ثم قاتله مبارزة رجل لرجل ثم حمل عليه فهزم يوسف وانتصر عبد الملك أمير أشبيلية ، وفر يوسف يريد طليطلة ولكن كشفه رجل فى الطريق وعرفه فصاح بمن حوله أن يطاردوه فلحقوا به وقتلوه ، وحمل أحدهم رأسه إلى عبد الرحمن فأمر بقتل ولده أبى زيد وإبقاء أبى الأسود سجينا ، وفى صبيحة يوم لقى القوم الصميل جثة هامدة ، والمعروف أنه مات خنقا بأمر عبد الرحمن ، ولكن عبد الرحمن تبرأ من كل ريبة وسمح للناس أن يفحصوا جثته حتى يروا أنه مات حتف أنفه نتيجة لكثرة الشراب .

عبد الرحمن أمير البلاد :

وهكذا تم الأمر لعبد الرحمن ، ومكن له فى الأرض تفرق كلمة خصومه وانقسامهم على أنفسهم ، وإحياؤهم للعصبية الجاهلية ، وبراعته فى الانتفاع بما بينهم من حزازات ، وحزمه وعزمه ، وبعد همته ، ومكره ، وخداعه ، وسياسته التى اتبعها ومزج فيها اللين بالشدة والرحمة بالقسوة ، وسعة حيلته فى مواجهة المشكلات وحل المعضلات ، على أن استتباب الأمر له لم يكن مؤذنا بانتهاء متاعبه وحلول صفو أيامه ، إذ واجهته ثورات متتابعة وخطوب بعضها إثر بعض .

الثورات الداخلية فى عهده :

أولا — ثورة طليطلة : حيث يقيم الفهريون من قبيلة يوسف ففى ٧٦١ م

١٤٤ هـ ثار هشام بن عزرة زعيم الفهريين، واستمرت ثورته سنتين، ولكن عبد الرحمن تمكن من اخمادها ٧٦٣ م وصلب عبد الرحمن زعماء الثورة عبرة لغيرهم.

ثانيا — حملة علاء بن مغيث والى أفريقية :

أرسل المنصور إلى الأندلس العلاء بن مغيث واليـا على أفريقية وأمره أن أن يزحف على رأس حملة لاسترداد الأندلس إلى حظيرة الدولة العباسية، فنزل باقليم باجة، ورفع العلم الأسود، علم بنى العباس، ولم يكن معه جيش، ولكن القبائل المتطاحنة، وبخاصـة القبائل الموتورة من بينها أسرعت للانضمام اليه، فحاصر قرمونة، واشتد الأمر بعبد الرحمن، ولكن شجاعته لم تخنه فى مأزقه هذا إذ خرج من أشبيلية، واختار ٧٠٠ من شجعان جنده، وأوقد نارا، وقال :

يا قوم ليس لنا إلا أحد أمرين أما موت وأما حياة، وهذا غمد سيفى أرمى به إلى النار، وأنى لأفضل فخار الموت فى ميدان القتال على عار الفرار، واقتدي به من حوله ثم انقضوا على المحاصرين وهاجموهم هجوما عنيفا فهزموا وولوا الأدبار وقتل قائدهم أبو العلاء و ٧ آلاف من جنده، ووضع عبد الرحمن رأس أبى العلاء ورءوس زعماء جنده فى حقيبة وفى أذن كل رأس رقعة عليها اسم صاحبها، واستأجر رجلا من تجار قرطبة ليحمل الحقيبة إلى مكة : وكان المنصور يحج اليها إذ ذاك، ولما علم المنصور بما كان قال : الحمد لله الذى جعل بينى و بين صقر قريش هذه البحار الواسعة

ثالثا — ثورة أهل اليمن بالأندلس :

ثار اليمانيون مطالبين بثأر العلاء بن مغيث ومن قتل معه من رجال، وتغلب

الثوار على أشبيلية وشدونه ، ونهض عبد الرحمن لمقاتلة الثوار وطاردهم مطاردة عنيفة ، وضيق عليهم الخناق فى الأماكن التى تحصنوا بها ، وقتل كثيراً من زعمائهم ، وأمن الباقى وعاد إلى قرطبة فى عام ١٤٩ هـ ٧٦٦ م منتصراً .

رابعاً — ثورة أبى الصباح اليحصبى :

ما أشبه الليلة بالبارحة وما أشبه ما فعله عبد الرحمن مع أبى الصباح بما فعله المنصور مع أبى مسلم ، كان أبو الصباح يمن على عبد الرحمن أن انضم اليه فى مسيره إلى قرطبة وسلم اليه أشبيلية ، ولكن عبد الرحمن كان يرتاب فى حسن ولائه فأبعده إلى أشبيلية وجعله حاكما عليها ثم عزله من منصبه ٧٦٦م ، فاستنفر قومه لنصرته فهبوا جميعا للقتال ، وخشى عبد الرحمن سوء العاقبة فلجأ إلى الخداع فأرسل أمانا لأبى الصباح واستدعاه إلى قرطبة للنظر فى مظلمته ، وسار أبو الصباح فى أربعمائة من رجاله تركهم بباب القصر ، ثم دخل لمقابلة عبد الرحمن وأغلظ أبو الصباح القول لعبد الرحمن وعنفه على ما كان من سوء معاملته له ، فاشتد الغضب بعبد الرحمن وأراد أن يطعن أبا الصباح ولكن هذا أفلت من الضربة فاستدعى عبد الرحمن الجند فقتلوه ، وكان عبد الرحمن قد تآمر مع جند أبى الصباح قبل الاقدام على قتله ، واستاء من هذا الغدر ابن خالد وزير عبد الرحمن وهو الذى حمل الأمان لأبى الصباح فاعتزل منصبة ورفض العودة إلى الوزارة مرارا رغم إلحاح عبد الرحمن عليه فى ذلك .

خامسا — ثورة البربر :

ظهر فقيه من البربر يسمى محمد بن عبد الله وادعى أنه من نسل فاطمة من قبيلة مكناسة الضاربة فى شرق الأندلس ، وكان من المجتهدين فى البحث فى الدين

والأحاديث والتفسير ، واشتغل بمهنة التعليم وثارت معه مكناسة ، فزحف إلى الاقليم الواقع بين نهرى الوادى اليانع والتاجه واستولى على ما رده واقليم ريه وماحولها ، وسار إلى طليطلة فانضم إليه عرب المغرب من اليمانيين ، وهزم جيوش أبى عثمان عبد الله حاكم الاقليم مرارا . ونهب معسكره واعتصم بالجبال واستفحل أمره ودامت ثورته عشر سنوات وعبد الرحمن لا ينال منه منالا ، وقام أنصار أبى الصباح زعيم اليمانيين بهجوم مفاجىء على قرطبة أثناء انشغال عبدالرحمن بحرب محمد بن عبد الله فعاد اليهم عبد الرحمن وشتت شملهم وقتل منهم ثلاثين ألفا ، ثم واصل هجماته على جيش محمد بن عبد الله حتى أخمد الثورة بعد أن قتل محمدا رجل من أتباعه

سادسا: اجتماع عصبة المتآمرين وانضمام شرلمان اليهم:

تآمر سليمان بن يقظان الاعرابى الكلبى حاكم برشلونة وعبد الرحمن بن حبيب صهر يوسف الفهرى وأبو الأسودين وكان قد فر من سجن عبد الرحمن الداخل بعد أن تظاهر بالعمى على ثل عرش عبد الرحمن ، وبلغ من شدة مقتهم له أن استعانوا ٧٧٧م بشرلمان ملك الفرنجة والدأعداء المسلمين، وقابلوه عبر الحدود ٧٧٧ م فلم يتردد شرلمان فى الانضمام اليهم . إذ كان إذ ذاك مطلق اليدين فى مشروعاته الحربية خاليا من المشاغل نظرا لخضوع السكسون واعتناقهم المسيحية وهرب زعيمهم ويتكند إلى بلاد الدنمرك ملتجأ الى اميرها . وتقرر ان يعبر شرلمان الحدود حيث ينضم اليه الاعرابى وحلفاؤه فى شمال نهر ابرو معترفين بسلطانه عليهم ، وأن عبد الرحمن بن حبيب المعروف بالصقلبى يجند البربر من أفريقية ويعبر بهم البحر إلى الأندلس رافعا العلم الأسود ، داعيا الناس الى الدخول

فى طاعة الخليفة العباسى حليف شرلمان ، ولو تم للمتآمرين ما بيتوه لعبد الرحمن لقضوا عليه قضاء مبرما ، ولـكن من سعد طالع عبد الرحمن ان طرأ على خطط المتآمرين ما افشلها . فان عبد الرحمن بن حبيب الصقلبى ابحر بجيش من البربر إلى اقليم مرسيه قبل ان يجوز شرلمان الحدود ، ولما طلب مساعدة الاعرابى أجابه هذا : ان الخطة المتفق عليها ان يظل فى الشمال لمساعدة جيش شرلمان ، فأحنق هذا الجواب عبد الرحمن بن حبيب الفهرى الشهير بالصقلبى ، ووجه من وقته جيشه لقتاله فصده الاعرابى واعاده الى مقاطعة تدمير حيث قتله بربرى من اتباعه المغاربة ، وذلك بإيعاز من عبد الرحمن الداخل امير الأندلس . فلما عبر شرلمان جبال البرانس بعد ذلك ٧٧٧ م كان حلفاؤه قد تفرق جميعهم ولم يبق منهم على ولائه له غير الاعرابى وحليفيه ابو ثور حاكم وشقه وجلندر كونت سردانيةوانضم اليهم الحسين بن يحيى الانصارى من نسل سعد بن عبادة الذى استولى على سرقسطة ، فلما اقترب منهـا كبر على أهلها أن يدخل مدينتهم ملك الفرنج ونقموا على الاعرابى سعيه فى نصرة المسيحيه على الاسـلام ، وكبر على الحسين أن يسقط قدر نسبه وعراقة حسبه ، ولما لم يستطع الاعرابى أن يقنعهم بالانضام الى شرلمان وكان يخشى ان يسىء شرلمان الظن به القى بنفسه بين يديه ، وعندئذ تجهز شرلمان لحصار سرقسطة . و بينما هو يحاصرها بلغه خبرعودة و يتـكند من منفاه وانضمام قبائل السكسون اليـه ونقضهم الصلح المعقود بينهم و بين القوط واكتساحهم للبلاد حتى ضفة نهر الرين يقتلونو يحرقون و يخربون ، فاضطر شرلمان الى الاسراع فى المسير من الابرو الى الرين ، و بينما هو يجتاز وديان رونسفال المشجرة المحفوفة بسلاسل الجبال الشاهقة انقض عليه مسيحيو متقاطعة باسك واوقعوا بمؤخرة جيشه فأفنوها عن بكرة أبيها وجمعوا الاسلاب وفروا هاربين ، وهكذا ختمت المؤامرة

اسوأ خاتم بعد إذ بدأت بالآمال العريضة ، وعادت على من اشتركوا فيها بالوبال ، وحاق بهم ما كانوا يمكرون ، وأسرع عبد الرحمن الداخل فى انتهاز الفرصة السانحة للقضاء على أعدائه الخائنين ، فزحف عجلا على سرقسطة وكر العصاة ، وكان قد عاد اليها الاعرابى فعدمه الحسين بن يحيى الانصارى خائنا لدينه وقتله فى المسجد فلما جاء عبد الرحمن امير الاندلس لحصار سرقسطة سلمها اليه الحسين وعفاعنه عبد الرحمن ، لكنه مالبث ان غدر وثار مرة أخرى فأسلمه اهل سرقسطة لعبد الرحمن وهذا امر به فقطعت يداه ورجلاه وضرب حتى مات ، ومن سرقسطة زحف عبد الرحمن على إقليم الباسك واخضع سكانه وفرض عليهم الجزية ، والتقى بعد ذلك بجيش ابى الأسود بقية العصابة المتآمرة ، وكانت بينهما معركة دموية قتل فيها من اصحاب ابى الأسود الفهرى اربعة آلاف كانت اشلاؤهم اقواتا للسباع والنسور ، واسر عبد الرحمن ابا الأسود فأمر بقتله

وهكذا خرج عبد الرحمن من كل حرو به ظافراً منصوراً وأقام لنفسه ملكا أكسبه رهبة الجانب ، على أنه تغالى فى شدته حتى فرق من حوله القلوب ، فمن ذلك عزله أباعثمان عبيد الله ، ونفيه مولاه بدرا إلى الحدود ، وقبضه على زعماء الأمويين وقتلهم لتآمرهم عليه ، وكذلك قتله هزيل بن الصميل للسبب نفسه ، ولما خشى على حياته من كيد الكائدين كان لايخرج من قصره معظم أيامه ، وإذا خرج أحاط نفسه بحرس من البربر المرتزقة ، على أن شدته الاضطرارية هذه كانت وليدة ظروفه القاسية ، ولقد أقام دولته بالسيف فانشأ جيشاً عدده ٤٠ ألفاً من البربر والمماليك يدين له بالولاء ولكنه كان لا يبالى بمصلحة الشعب ولا بمنفعة البلاد .

فكان حكمه صراعا بين الملكية الاستبدادية وبين العرب الذين لا يميلون إلا لنظم قبائلهم وعاداتهم الديمقراطية

رأى أبى جعفر المنصور فى عبد الرحمن :

وقد ذكر أن أبا جعفر المنصور قال يوما لبعض جلسائه أخبرونى من صقر قريش من الملوك ؟ قالوا ذاك أمير المؤمنين الذى راض الملوك وسكن الزلازل وأباد الأعداء وحسم الأدواء ، قال ما قلتم شيئا ، قالوا فمعاوية قال لا ، قالوا فعبد الملك بن مروان قال ما قلتم شيئا ، قالوا يا أمير المؤمنين فمن هو ؟ قال صقر قريش عبد الرحمن بن معاوية الذى عبر البحر وقطع القفر ، ودخل بلداً أعجمياً منفردا بنفسه ، فمصر الأمصار وجند الأجناد ، ودون الدواوين وأقام ملكا عظيما بعد انقطاعه بحسن تدبيره وشدة شكيمته ، ان معاوية نهض بمركب حمله عليه عمر وعثمان وذللاله صعبه وعبد الملك ببيعة أبرم عقدها .

ولعبد الرحمن شعر رقيق فما قاله يتشوق إلى معاهده بالشام

أيها الراكب الميمم أرضى   أقر من بعضى السلام لبعضى
إن جسمى كما علمت بأرض   وفؤادى ومالكيه بأرض
فارق البين بيننا فافترقنا   وطوى البين عن جفونى غمضى
قد قضى الله بالفراق علينا   فعسى باجتماعنا سوف يقضى

ورأى مرة فى إحدى حدائق قرطبة نخلة منفردة فقال

يا نخل أنت فريدة مثلى   فى الأرض نائية عن الأهل

هذا ولم يكن تتابع الثورات حائلا دون سعيه فى ترقية بلاده فى الزراعة والعلم والعمران ، وبلغت قرطبة فى عهده شأواً بعيداً فى الحضارة والعلم والفلسفة والطب حتى أصبحت منتجع القصاد من طلاب العلوم من أسبانيا ومصر والشام والعراق ، وكانت بها شوارع متسعة ومبان ضخمة وقصور مشيدة وحمامات وفنادق

و بساتين على ضفة الوادى الـكبير ، وجوامع ومدارس فأصبحت تضارع بغداد في العظمة والشهرة . وفى سنة ١٧٠ هـ — ٧٨٦ م شيد عبد الرحمن جامع قرطبة الشهير الذى تضل العين فى وصف بدائعه ، وأنفق على عمارته ١٠٠ ألف دينار عدا ٨٠ ألف دينار دفعها ثمناً لـكنيسة كانت مكانه ، وقيل فى وصفه ان به ٣٦٥ طاقة على عدد أيام السنة ، و إن الشمس تدخل كل يوم من طاق ، وأن به تنورا من نحاس أصفر يحمل ألف مصباح ، ومصحفا من القرآن كتبه عثمان بن عفان

وفاته

ولما أحس عبد الرحمن بقرب منيته دعا إلى حضرته الحاجب وقاضى القضية ووزراءه وغيرهم من وجوه القوم وعمال الأقاليم وأشهدهم على أنه عهد بالولاية بعده الى ابنه هشام فبايعوه على ذلك ، ومات عبد الرحمن عام ١٧٢ هـ — ٧٨٨ م

الفصل الثانى

هشام بن عبد الرحمن (١٧٢ — ١٨٠) هـ (٧٨٨ — ٧٩٦) م

تولى الامارة بعد وفاة أبيه وعمره ٣٣ سنة ، ولقد كان والياً على ماردة عند وفاة والده ، وكان أخوه الأكبر سليمان والياً على طليطلة ، وكان أخوه عبد الله حاضراً فى قرطبة وهو الذى صلى على أبيه ثم ذهب الى قصر الامارة مؤملا أن يقبل عليه كبار القوم ويحيوه بتحيات أمير جديد فلم يحم حول القصر منهم أحد ولما تحقق أن رغبات الأهلين منصرفة عنه الى أخيه هشام ولى العهد رأى من الحكمة أن يجدد البيعة لأخيه ، وكتب اليه ينعى أباه وطلب اليه الحضور الى قرطبة ليتسلم زمام الامر فيها ليذهب هو الى ماردة بدلا عنه

أسرع هشام الى مقر الامارة وتسلم مقاليد الحكم فى البلاد ، وسار فيه سيرة عمر بن عبد العزيز، واشتهر بالتقوى والعدل والكرم اذ قضى على الرذائل وعاقب مرتكبيها بأشد العقوبات ، وواسى المرضى وعاون المعوزين وكثيرا ما شارك الأهلين فى أفراحهم ومآتهم فأحبه الناس حبا جما ولقبوه بالعادل و بالرضى وكان يبعث بقوم من ثقاته الى الاقاليم فيسألون الناس عن سير عماله وحقائقها فاذا انتهى اليه حيف من أحدهم أوقع به وأسقطه ، وكان فوق ذلك حكما حازما قمع الفتن ، وساد الأمل فى عصره ، وأتم بناء الجامع الكبير الذى أسسه أبوه ، و بنى عدة مساجد أخرى وزين قرطبة بالمبانى الشاهقة الفخيمة ، وجدد قنطرتها التى بناها السمح بن مالك الخولانى

الثورات فى عهده :

أولا : خروج أخويه . غضب سليمان غضبا شديدا عند ما علم ببيعة هشام إذ كان يطمع فى الامارة لنفسه ، وكتب إلى أخيه عبد الله يستقدمه من ماردة إلى طليطلة ليتفقا على نبذ الطاعة وشق عصاها فى وجه أخيهما ، واتفق الاخوان أن يستقلا فى أقليميهما و يتصرفا تصرف الحاكم المطلق بدون ارتباط بالأمير ، فلما عارضهما وزير طليطلة غالب بن تمام فيما اتفقا عليه سجنه سليمان ، وعلم الأمير بذلك فأرسل رسولا إلى طليطلة يسأل سليمان عن سبب سجن الوزير فكان الجواب إن جاء بالمسجون وخنقه أمام الرسول ، وقال له :

« قل لمولاك يدعنا نحكم فى اقليمينا أحراراً جزاء ما ألم بنا من الضرر من أمارته »

فغضب هشام وكتب إلى ولاة الأقاليم وقضاتها يخبرهم بخروج أخويه عليه وأمرهم بالمحافظة على مدائنهم وحصونهم من اعتدائهما ، وألا يطيعوا لهما أمراً ، وألا يسمحوا لهما بالايواء اليهم ، ثم جهز عشرين ألف جندى وزحف على طليطلة ، واستعد سليمان بدوره وجمع جيشاً زحف به على قرطبة تاركا ابنه وأخاه ليدافعا عن طليطلة ، والتقى الجيشان بالقرب من حصن بلج ودارت بينهما معركة دموية رجحت كفة القتال فيها إلى جانب هشام ، فتقدم إلى طليطلة وحاصرها ودافع عنها عبد الله دفاع المستميت ولكنه اضطر إلى طلب الصلح عند ما نفدت المؤنة وضعفت عزائم الأهلين ، وقبل هشام الصلح وعفا عن أخيه ، ودخل المدينة ظافراً وأقام أحد أقارب الوزير غالب عاملا عليها ، وأسكن أخاه عبدالله قصرا فى ضواحيها ثم عاد الى قرطبة ليعد العدة فى اخضاع سليمان وكان ذلك ١٧٣ هـ .

جمع سليمان فلول جيشه بعد هزيمة بلخ ونزل على قرطبة واحتل قلعة شقنده فخرج اليه عبدالله بن عبدالملك المروانى وقاتله وأخرجه من القلعة، ففر الى الجبال ثانية وأرسل الى وزير مارده وكبارها مستنجدا، ولكنهم بدلا من الخروج لمعاونته خرجوا لمطاردته وطردوه الى أرض تدمير، وفيها حاول أن يجمع الانصار والجند فأرسل اليه هشام جيشا على رأسه ابنه الحكم وكان شابا فى مقتبل العمر، وسار الحكم وتقابل مع قوات عمه ونازلها بالقرب من لورقة و بدد شملها وانتصر عليها نصرا مبينا، وفر سليمان ومعه بعض الفرسان الى بلنسية ومنها الى دانية ثم ألقى بنفسه الى جزيرة شقر وهى محل حصين، وهناك كتب الى أخيه يطلب الصلح فأجابه اليه بشرط ان يترك الاندلس و يأخذ ماله وستين الف دينار مصالحة على تركة ابيه، فرضخ سليمان ورحل عن اسبانيا الى المغرب وسكن مدينة طنجة وذلك فى اوائل سنة ١٧٤ هـ ٧٩٠ م

ثانيا : الثورة فى طرطوشة و برشلونه :

انتهز سعيد بن الحسين بن يحيى الانصارى (بشاغنت من اقليم طرطوشة فى شرق الاندلس) فرصة الحرب بين هشام واخويه وثار فى وجه الأمير واجتمع حوله خلق كثير وزحف على طرطوشه وامتلكها واخرج عاملها يوسف القيسى، فلمابلغ هشاما الخبر ارسل الى والى بلنسية امرا بالزحف على سعيد واخراجه من طرطوشه، فزحف وقاتله بالقرب من المدينة وتغلب عليه وقتله ثم استرد المدينة فى اواخر عام ١٧٢ هـ ٧٨٩ م

أما فى برشلونة فقد خرج فيها مطروح بن سليمان بن يقظان عام ٧٩٠م والتف حوله نفر كثير، وزحف على سرقسطة وملكها وتغلب على وشقه وأصبح سيدتلك

الجهة ، فبعث هشام أمرا إلى والى بلنسيه الجديد المسمى عبدالله بن عثمان لينهض لمحاربته فأطاع الأمر وزحف على رأس قوة كبيرة وقابل الثائر على ضفاف نهر الأبرو وقاتله وانتصر عليه ، وفر مطروح وقد قتل بعد ذلك بيد اثنين من أعوانه فاستراح الأمير من شره . وهدأت البلاد وانتشر السلام فى ربوع الاندلس الغربيــة فاستطاع هشام أن يلتفت لمحاربة أعداء البلاد من الفرنج ونصارى الاسبان .

ثالثاً : حروبه الخارجية :

طلب هشام إلى ولاة الأقاليم ووجوه القوم فى الاندلس القيام إلى الجهاد بخيلهم ورجالهم وسلاحهم ضد أعداء البلاد ، فلبوا دعوته وجمعوا الجيوش فى أوائل ١٧٥ هـ ، فأخذ يرسل هذه القوات بعضها إلى الحدود لرد البلاد التى استولى عليها هؤلاء الاقوام ، وبعضها إلى داخل بلادهم للاستيلاء عليها ، وفى سنة ١٧٦ هـ زحف أبو عثمان إلى إلبة والقلاع والتقى بالاعداء وهزمهم وقتل عدداً كبيرا منهم ، وكذلك زحف يوسف بن بخت على جليقية وحارب برمود ملكها وهزمه ، وفى السنة التالية أرسل جيشا عرمرما تحت قيادة وزيره عبدالملك بن عبدالواحد إلى أرض الفرنجة لمحاربة شرلمان الذى كان مشتغلا بمحاربة اللمبرديين وقتئذ ، ودخل القائد العربى اقليم سبتمانيا ومنها تقدم إلى البلاد الفرنسية حتى وصل إلى مدينة نربونة واستولى على كل ماقابله من المدائن ، ثم جاس البلاد شهورا يخرب الحصون ويحرق ويغنم والسكان يفرون أمامه طالبين النجاة ، ثم رجع ومعه غنائم واسعة من الذهب والفضة والانسجة النفيســة ، وبلغ خمس هذه الغنائم الذى كان باسم الأمير ٤٥ ألف مثقال من الذهب العين ، وقد فرح أهل قرطبة بهذا الفوز المبين ، وحبس

الأمير الخمس على بناء الجامع الكبير فى قرطبة وهذه الغزوة من أشهر عزوات المسلمين

هذا وقد ذكر ابن الاثير فى حوادث سنة ١٧٩ هـ « ان هشاما صاحب الاندلس سير جيشا كثيفا عليه عبد الملك بن عبد الواحد بن مغيث إلى جليقية فساروا حتى انتهوا إلى أستورقة ، وكان ادفونش ملك الجلالقة قد جمع وحشد ، وأمده ملك البشكنس وهم جيرانه فصار فى جمع عظيم ، فاقدم عليه عبد الملك فرجع إدفونش إلى جليقية وتبعهم عبد الملك يقفو أثرهم و يهلك كل من تخلف منهم فدوخ بلادهم واوغل فيها يغنم و يقتل و يخرب ورجع سالما »

وكان قد سير هشام جيشا آخر من ناحية اخرى فدخلوا ايضا على ميعاد من عبد الملك فخربوا ونهبوا وغنموا ، فلما ارادوا الخروج من بلاد العدو اعترضهم عسكر الفرنج فنالوا منهم وقتلوا نفرا من المسلمين وعاد الباقون سالمين .

ذكر مؤرخو الفرنج هذه الغزوة فى حوادث سنة ١٧٨هـ ٧٩٤م ، وذكروا فيها ان المسلمين خسروا وهم راجعين متقلين بالغنائم خسارة كبيرة ، وقتل عدد من شجعانهم منهم يوسف بن بخت الذى كان يقود فرقة من جند المسلمين ، واسترد النصاري الغنائم التى كانت معهم . و يظهر ان هذه الغزوة بدأت فى اواخر سنة ١٧٨هـ وانتهت فى السنة التالية وهى آخر غزوة غزاها هشام

ازدياد نفوذ الفقهاء فى عهده :

اشتهر هشام بالتقوى والصلاح كما تقدم ، فقرب اليه الفقهاء والادباء وقوى نفوذهم وكثر تدخلهم فى مصالح الدولة مما ادى الى صراع عنيف بين السلطتين الزمنية والدينية بعد وفاته مما ستفصله بعد .

وقد نبغ فى الشعر فى عصره عامر بن أبى جعفر ، واشتهر بالفقه زياد بن عبد الرحمن الذى رحل الى الشرق ليتلقى الموطأ عن مالك بن أنس ، ثم عاد إلى الأندلس فأدخل هذا المذهب فيها تحت كنف الأمير ورعايته ، وكان مذهب الاوزعى هو السائد فى البلاد قبل ذلك

وفاته :

فى عام ١٧٩ ﻫ ٧٩٥ م جمع هشام فى القصر الحاجب والوزراء وقاضى القضاة والولاة والخطباء وأعلنهم بأن ابنه الحكم هو ولى العهد بعده ، ثم مرض هشام فى أوائل عام ١٨٠ ﻫ ومات فى شهر صفر من السنة عينها بعد مرض قصير ، وحكمه لم يدم إلا سبع سنين قمرية وتسعة أشهر وثمانية عشر يوما .

الفصل الثانى

الحكم بن هشام (١٨٠ – ٢٠٦ ﻫ) (٧٩٦ – ٨٢٢ م)

تولى الملك بعهد من أبيه فى شهر صفر عام ١٨٠ ﻫ (إبريل سنة ٧٩٦ م) وكان فى السنة الخامسة والعشرين من عمره، وقد اختلف المؤرخون فى وصفه، فنهم من قال إنه كان عالما فطنا فصيحا شاعرا صارما حازما متكبرا سريع الغضب قاسى القلب، ومنهم من قال إنه كان طاغيا مسرفا ومستهترا، له آثار سوء قبيحة، واليك أعماله لتتعرف منها أى الصفات تصدق عليه

الاضطرابات الداخلية فى عهده :

اختار الحكم عبد الكريم بن عبد الواحد كبيرا لوزرائه (حاجبا) لانه كان رفيق صباه وكان يعجب به لأمانته وشجاعته، ولكنه ما لبث أن واجهته الاضطرابات من كل جانب فنهض لأخمادها بكل قوة وحزم

أولا : خروج عميه سليمان وعبد الله :

كان سليمان يعيش فى طنجه منذ عام ٧٩٠ م كما مر بنا، وفيها كثرت أتباعه وازدادت ثروته، وأصبح فى تلك الأقاليم نافذ الكلمة مهيب الجانب، وعاش عبد الله بضواحى طليطلة بعد أن تصالح مع هشام، وفى تلك الجهة كون له حزبا قويا على رأسه عبيد الله بن حمزة، والتزم الاخوان الهدوء والصمت طوال المدة الاخيرة من عصر الامير هشام، فلما توفى واعتلى ابنه الحكم كرسى الامارة ظنا أن الفرصة قد سنحت لاغتصاب العرش من ابن أخيهما، ونهض عبد الله

للعمل وأسرع بترك الاندلس لمقابلة سليمان بطنجة ، وهناك اتفق الاخوان على منازعة الحكم واثارة الاضطرابات فى أنحاء أسبانيا ، واعتمدا على محالفة شرلمان لتحقيق مأربهما ، وتنفيذا لهذه الخطة سافر عبد الله إلى مدينة إكس لاشابل عاصمة شرلمان وقابل هذا العاهل العظيم عام ٧٩٧ م ، وكشف له عن نيته فرحب بالفكرة ولبى الطلب من فوره إذ رأى من وراء قيام الثورة فى بلاد الاندلس العربية تحقيقا لمطامعه القديمة ، وهى اضعاف المسلمين وكسب الشهرة والقوة بين ملوك النصرانية نتيجة لذلك .

استدعى شرلمان ابنه لويز من ولاية أكوتين ، وأرسل إلى الفونس ملك استورية وجليقية واتفق معهما على امداد عبد الله بالقوات التى يحتاج اليهما ، وفى الوقت نفسه يزحف كل منهما على أملاك المسلمين بالاندلس من جهة الشمال والشرق ، وقامت الثورات فى عدة جهات من اسبانيا فى آن واحد ، واستطاع عبد الله أن يستولى على ابواب وقصر طليطلة فى خريف سنة ١٨١ هـ ٧٩٧ م ، وزحف سليمان على رأس جيش كبير على البلاد من جهة الجنوب ، واجتاز لويس بجيشه الثغور واستولى على نربونه وجيرونه ، وهدد مدن الحد الشرقى وخضعت له بنبلونه ووشقة ولاردة ، واعلنت برشلونه الثورة وسلمها الثوار الى رسل شرلمان ، وبلغت أخبار هذا العصيان مسامع الامير فلم يفقد توازنه ونهض بقلب ثابت لمكافحة الثورات ، وأمر بتعبئة الجيوش ووجه بعضها لمقاتلة سليمان وصده ومنعه من الاتصال بقوات أخيه عبد الله ، وقاد هو بنفسه جيشا وزحف به على طليطلة ثم ترك قيادة هذا الجيش إلى قائد قدير يسمى عمروسا قائد طلبيرة ، واتجه على راس قوة اخرى نحو الحدود ، وحارب الفرنج واسترد وشقة ولاردة وبرشلونة وجيرونة ثم واصل زحفه ودخل ارض فرنسا ، واستولى على نربونة وفتك بالأفرنج فتكا

دريعا واسر وغنم غنائم وفيرة ورجع إلى قرطبة ، ودخلها دخول الظافر ولقب بالمظفر .

التفت بعد ذلك الى محاربة عميه حول طليطلة وضيق عليهما الخناق ففرا امامه الى ارض تدمير عام ١٨٣هـ ، فسير عليهما الجيوش وظلت الحرب قائمة بينهما لمدة عام آخر ، واظهر فى اثنائها سليمان واخوه عبد الله شجاعة ليس فوقها شجاعة ، واخيرا انتهت هذه الحروب الطاحنة بانتصار الحكم على عميه اذ قتل سليمان فى احدى المعارك عام ١٨٤هـ ، وطلب عبد الله الصلح فقبل الحكم منه ما طلب وصالحه عام ١٨٦هـ ، واجرى عليه مرتبا يتناسب ومركزه الاجتماعى وبذلك انتهت هذه الثورة

اما فى طليطلة فقد نجح عمروس فى القضاء على الثورة فيها فى سنة ١٨٤ هـ وقبض على زعيم الثوار عبيده بن خمزه وقطع راسه وارسلها الى قرطبة ، واقام ابنه يوسف محافظا عليها ، واسرع بالقوات التى كانت معه لمعاونة الامير فى حروبه ضد عميه .

إغارة الفرنج الثانية :

انتهز الفرنج فرصة اشتغال الحكم باخماد ثورة عميه وقرر لويس حاكم اكوتين إرسال حملة على الاندلس فى ٧٩٨م ، وزحفت جيوش الفرنجة واستولت على جيرونه وغيرها من المدائن وأقامت قلاعا قوية على الحدود ، ثم نزلت على اسبانيا فى سنة ٨٠٠م واتجهت نحو برشلونه ، ونهض زيد محافظها واستقبله باجلال وتعظيم ولكن لم يسلمه المدينة ، فزحف لويس على لاردة ووشقه ، وهاجمها وأخذها ثم خرب عدة قصور وقلاع على الطريق بين لاردة ووشقة ، ولما جاء الشتاء رجع إلى

بلاده ليستعد للزحف ثانية على برشلونة ، وفى السنة التالية زحف على رأس جيش كبير وحارب المسلمين ودافع أهل برشلونه عن مدينتهم دفاع المستميت ولكن الفرنج تغلبوا عليهم واستولوا على المدينة عام ٨٠١ م ١٨٥ هـ . بعد حصار دام سبعة أشهر

نهض الحكم لمحاربة الفرنج وحلفائهم من زعماء المسلمين وسار بنفسه إلى شرق اسبانيا ومعه قائد فرسانه محمد بن مفرج واسترد مدينة سرقسطة ، ثم توجه إلى مدن الحدود الأخرى ليستردها وأخذ تطيلة وأقام يوسف بن عمروس قائدا له وكان قد ترك طليطلة بسبب ثوران أهلها فى وجهه لقسوته وقلة درايته بأساليب الحكم ؛ ثم تقدم الأمير واحتل بنبلونه ونزل على شاطىء نهر الابرو واستولى على وشقة ، ثم سار إلى طرقونه ودخلها وطارد بهلولا قائدها الثائر وتغلب عليه وقطع رأسه فى ١٨٨ هـ ٨٠٤ م .

اما برشلونه فلم يستطع الاستيلاء عليها بسبب ضعف قوته التى نالها التعب والاعياء نتيجة للحروب الطويلة التى اشتبكت فيها مع الثوار المختلفين ، وقد رجع الامير الى قرطبة فى اوائل سنة ١٨٩ هـ ٨٠٥ م

علاقته بالادارسة :

استطاع ادريس ان يفر من وجه الهادى واسس له امارة ببلاد المغرب واتخذ مدينة وليلى عاصمة له ، فأرسل الية الحكم وفدا يهنئه بالامارة وطلب اليه التحالف على من يناوئهما فقوبل الوفد بالحفاوة والاجلال ، وعقدت المعاهدة بين الأميرين .

مذبحة الحفرة :

رجع عمروس إلى طليطلة وحكمها من قبل الأمير بعد أن ثارت فى وجه ابنه يوسف ، وعزم على التخلص من زعمائها وكبار القوم فيها ، ودبر لذلك مؤامرة أحكم تنفيذها ، إذ انتهز فرصة زحف جيش على أسبانيا الشرقية على رأسه عبد الرحمن بن الحكم لأخضاع الثائرين فى تلك الجهات ، وطلب إلى الأمير الشاب أن يعرج على المدينة ليكرمه فيها ، فقبل الأمير الدعوة وتوجه إلى طليطلة لحضور المأدبة ، وأوعز عمروس وحرسه بأن يقبضوا على الزعماء المدعوين ، ويأخذوا كل مدعو ويقودوه إلى حفرة حيث تقطع رقبته ويرمى بها فيها ، وقد نفذ الحرس أوامر سيدهم وقتلوا بهذه الطريقة الشنيعة عددا كبيرا من وجوه طليطله وأشرافها ، فكانت مذبحة عظيمة أراحت الحكم فترة من الزمن من ثورات طليطله المتكررة ، ولكنها تركت أثرا سيئا فى نفوس الطليطليين وترقبوا الفرصة السانحة للانتقام من أمير قرطبة ، وقد اختلف المؤرخون فيما بينهم عما إذا كان الامير الشاب قد علم بأمر هذا التدبير قبل وقوعه أم عرفه بعده ، وغضب على عمروس وانتقد غدره ، وستقوم طليطله بثورة فى عصر عبد الرحمن القادم ليثأروا لمن ذبحوا على يده فى عصر أبيه .

مؤامرة قرطبة :

أورد دوزى المؤرخ الشهير خبر هذه المؤامرة فى حوادث عام ٨٠٥ م على الصورة الآتية :

اتفق يحيى بن يحيى وعيسى بن دينار وفقهاء آخرون و بعض الأعيان على خلع الحكم وتولية ابن شماس ابن عم الامير عرش أسبانيا العربية ، وفاتحوه فى

الأمر فطلب اليهم أن يعرفوه أسماء أنصارهم حتى يرى إذا كان من الممكن الاعتماد عليهم ، فأجابوه إلى ما طلب ووعدوه بأن يعودوا اليه فى وقت معين ، ولما خرجوا من عنده أسرع لمقابلة الحكم سرا وأبلغه الامر ، فغضب الحكم وارتاب فى الامر وثار فى وجه ابن شماس ، فسأله هذا أن يرسل معه نفرا ممن يثق بهم ليسمعوا أسماء المتآمرين فى الموعد المضروب ، فأجابه الحكم إلى ما طلب وأرسل اليه كاتب سره وخادمه الخاص ، وفى الليلة المعينة ذهب من ائتمروا إلى ابن شماس وسألهم عن أسماء باقى المؤتمرين فذكروا له الاسماء ، وكان كاتم السر يكتب كل اسم يذكر من وراء ستار ، واستمر الكاتب يكتب حتى وقعت منه حركة أفهمت الحاضرين أن ابن شماس غدر بهم فقاموا مذعورين وخرجوا فارين وفر يحيى وزميله عيسى إلى طليطلة ، وقبضت الحكومة على اثنين وسبعين من المتآمرين وصلبتهم

ذكر بعض المؤرخين خبر هذه المؤامرة على صورة أخرى وفى تاريخ آخر فقال كندى ورومى أن من صلبوا كانوا ثلثمائة وأن الحادثة وقعت عام ٨٠٦ م و ١٩٠ هـ وأن من كانوا اختاروه ليكون أميرهم هو قاسم بن عبد الله عم الحكم وانه هو الذى أفشى سرهم ، وسردها ابن الاثير فى حوادث عام ١٨٧ هـ وقال إن عدد المصلوبين اثنان وسبعون ، وأن محمدا بن القاسم القرشى المروانى عم هشام ابن حمزه هو الذى أخبر الحكم بأمر المؤامرة

ثورة الربض:

قام الشعب فى قرطبة أو الصراع بين السلطتين الزمنية والدينية فى عصر الحكم بسبب اثارة جماعة الفقهاء لأهل قرطبة على أميرهم ، إذ نقموا منه انهما كه

ولذاته وانصرافه إلى الصيد والقنص وتركه الصلاة و بعده عن مجالس العلم والفقهاء وثار الربض على الامير وعرضوا به ، وكانوا ينادون عند انقضاء الاذان « الصلاة يا مخمور الصلاة » وشافهه بعضهم بالقول وصفقوا عليه بالاكف ، وتعرضوا لجنده بالأذى والسب، فحصن الحكم قرطبة وعمر اسوارها وحفر خنادقها، واستكثر من المماليك ورتب جمعا لا يفارقون باب قصره بالسلاح ، وأخيرا هاج الربض وهجموا على جند الامير وتغلبوا عليهم وأحاطوا بالقصر ، فنزل الحكم من أعلاه ولبس سلاحه وركب وحرض أنصاره فقاتلوا بين يديه قتالا شديدا ، وأمر ابن عمه عبد الله أن يخترق السور و يذهب مع نفر من الجيش إلى مساكن الربض و يشعل النار فيها ففعل ، وارتد الربض لاطفاء الحرائق فطاردهم الحكم وقتل منهم عددا كبيرا، وأقام النهب والقتل والاحتراق والتخريب فى أرباض قرطبة ثلاثة أيام ، ثم طلب اليه حاجبه عبدالكريم أن يعفو و يمهل من بقى ثلاثة أيام للخروج من البلاد ، فخرج عدد كبير من الفقهاء وطلبة العلم والرعاع من الأندلس إلى أفريقية ، وذهب بعضهم إلى بلاد الادارسة فى المغرب الأقصى، وذهب الآخرون وعددهم خمسة عشر ألفا إلى مصر، وكانت مصر إذ ذاك ثائرة ضد المأمون الخليفة العباسى ، فانتهز الاندلسيون الفرصة ونزلوا بالاسكندرية وامتلكوها وظلوا بها حتى عام ٨٢٦م ، وفى تلك السنة تغلب عليهم قائد المأمون عبد الله بن طاهر بن الحسين وأخرجهم من الاسكندرية فذهبوا إلى كريت ونزلوا بها وظلوا فيها حتى عام ٨٦١ م حين فتحها الاغريق .

خرج الحكم من تلك الثورة فائزا و بذلك انتصرت السلطة الزمنية على السلطة الدينية ، وعفا الحكم عن يحيى بن يحيى وعن طالوت وعمن بقى من الفقهاء وقربهم اليه وأجزل لهم العطاء ، هذا وقد وقعت هذه الحادثة فى سنة ٢٠٢ هـ

علاقته بحاكم مارده :

ولى الحكم ابن عمه وزوج أخته المسمى أصبغ حكم مدينة ماردة ، فاختلف اصبغ مع وزيره وعزله ، فغضب الوزير المعزول وتوجه إلى قرطبة وقابل الأمير وأخبره بأن أصبغ يتحين الفرصة للاستقلال بمارده ، فهاج الحكم وأمر بعزل ابن عمه وتولية الوزير مكانه ، ورجع الوزير إلى مادرده يحمل أمر التولية والعزل الى اصبغ فلم يذعن هذا الى الأمر ، وكتب الى الحكم يعتب عليه سماع الوشاية وطرده له من عمله كما تطرد السوقة ، فغضب الحكم لعصيان اصبغ لأمره وأرسل قوة من الفرسان لاخراجه من المدينة وتنصيب الوزير فلم تستطع ، فذهب الأمير بنفسه الى المدينة وعزم على اقتحامها بالقوة ، وعندئذ تمكنت كنز زوج اصبغ أخت الحكم من مقابلة الأمير وأفهمته حقيقة الأمير وأقنعته ببراءة زوجها ، فاقتنع الحكم ودخل المدينة مع أخته وأقام فى ضيافة ابن عمه أياما ، ثم رجع الى قرطبة عندما بلغه خبر المؤامرة على خلعه كما مر بنا

الحروب مع نصارى الاسبان والفرنج :

ثار نصارى الشمال فى وجه الحكومة الاسلامية وأغاروا على الحدود ، فأرسل الحكم قواده فى سنة ١٩٠ هـ ٨٠٦ م الى حدود جليقية لصد هذه الاغارات ونجح القواد فى مطاردة نصارى الاسبان ، وطلب الفونس امير تلك الجهات الهدنة لمدة ثلاث سنين فأجيب الى طلبه ، وفى السنة التالية خرج حزم بن وهب فى باجة وزحف على لشبونه فأرسل اليه الحكم جيشا أذله واضطره الى طلب الأمان .

اما الفرنج فقد انتهزوا اشتغال الحكم بقمع الاضطرابات الداخلية واغاروا على على املاك المسلمين ، واستولوا على جزء عظيم منها بين جبال البرانس ونهر ابرو ،

وفى أوائل عام ١٩٢ هـ حاصر لويز أمير أكتانيا مدينة طرطوشة فزحف عبد الرحمن بن الأمير على رأس جيش لصده وانضم اليه جيش من بلنسية وحارب المسلمون الفرنج وانتصروا عليهم انتصارا باهرا ، ورفعوا الحصار عن المدينة ، وتقهقر لويز إلى ولايته وكان ذلك عام ١٩٣ هـ (٨٠٩ م)

وفى تلك السنة جدد نصارى الاسبان فى جليقية اغاراتهم على أملاك المسلمين فخرج اليهم الحكم وصدهم ثم عاد إلى قرطبة ، وترك قواده فى ميدان القتال تحارب هؤلاء النصارى ، ثم رجعت ماردة إلى العصيان فى المدة بين ١٩٤ هـ ١٩٦ م فزحف الحكم عليها وأخضعها وأخرج اصبغ منها وأسكنه قرطبة ولكنه اضطر إلى محاربة الفرنج الذين عادوا إلى الثغور وأغاروا عليها وقتلوا ونهبوا وسبوا ، وفى عام ١٩٦ هـ سار إلى بلاد الفرنج وافتتح عدة حصون وخرب البلاد وقتل عددا كبيرا من الرجال وخلص كثيرا من أسرى المسلمين ومن بينهم امرأة كانت قد استغاثت به عند ما أسرها الفرنج و بلغه خبرها من عباس الشاعر، فلما خلصت المرأة من الاسر قالت للعباس « والله لقد شفى الصدور وأنكى العدو ، وأغاث الملهوف فأغاثه الله وأعز نصره » فارتاح الحكم لقولها وأنشد :

ألم تر يا عباس أنى أجبتها ... على البعد اقتاد الخميس المظفرا
فأدركت أوطارا و بردت غلة ... ونفست مكروبا وأغنيت معسرا

ثم رأى الحكم أن يضع حدا لتلك الاغارات فارسل بعثة إلى شرلمان تطلب الصلح ، وفعلا تم الصلح بين الفريقين فى أواخر عام ٨١٠ م فى مدينة اكس لاشبل ، ولكن لم يدم الصلح طويلا وتجدد العداء بين الفرنج والمسلمين فى السنة التالية وذلك بسبب الدسائس الكثيرة التى كان يقوم بها بعض الطامحين من ولاة الأقاليم المسلمين ، وفى سنة ٨١١ م تأهب لويز بن شرلمان لأخذ طرطوشه ،

وفى السنة التالية زحف عبد الرحمن بن الحكم على جيرونه وغزا أرض تربونه وقاتل أهلها وعاد ومعه كثير من الاسرى والغنائم

وقد ذكر ابن الاثير فى حوادث عام ٢٠٠ هـ ان الحكم جهز جيشاً مع عبد الكريم بن مغيث إلى بلاد الفرنج بالأندلس (نصارى جليقية) فسار بالعساكر حتى دخل أرضهم وتوسط بلادهم فخربها ونهبها وهدم عدة من حصونها، فلما رأى ملكهم ما فعله المسلمون ببلاده كاتب ملوك جميع تلك النواحى مستنصرا بهم فاجتمعت اليه النصرانية من كل أوب — ثم اقتتل الفريقان قتالا شديدا عدة أيام ثم هطلت الأمطار وطغى النهر الذى كان يفصل بين المتقاتلين وتعب الفريقان فقفل عبد الكريم ظافراً لسبع خلون من ذى القعدة »

هذا وقد جاء فى بعض الروايات ان عبد الكريم جرح برمح ومات متأثرا بجروحه فأخذ جيشه فى الهرب بعد أن دام القتال ثلاثة عشر يوما

ولايه العهد :

أظهر عبد الرحمن بن الحكم مهارة فائقة فى إدارة الامور التى عهد بها اليه أبوه كما أنه أظهر بسالة وشجاعة فى الحروب التى تولى أمرها ضد الخارجين والثائرين على امارة قرطبة فجمع والده الأمراء والوزراء وقاضى القضاة والولاة والسراة والقواد وعهد اليه أمامهم بولاية الأمر من بعده؛ فارتضوه جميعا وحلفوا له يمين الطاعة وكان ذلك فى يوم مشهود ساد فيه الفرح والسرور، ومن ذلك الوقت سمى ولى العهد سنة ١٩٩ هـ

وفاة الحكم :

قال ابن خلدون « توفى الحكم بن هشام آخر سنة ست ومائتين لسبع وعشرين سنة من ولايته ، وهو أول من جند بالأندلس الأجناد المرتزقة ، وجمع الأسلحة والعدد ، واستكثر من الحشم والحواشى ، وارتبط الخيول على بابه ، واتخذ المماليك وكان يسميهم الخرس لعجمتهم ، وبلغت عدتهم خمسة آلاف ، وكان يباشر الأمور بنفسه ، وكانت له عيون يطالعونه بأحوال الناس ، وكان يقرب الفقهاء والعلماء والعباد والصالحين وهو الذى وطأ الملك لعقبه بالاندلس » .

الفصل الثالث

عبد الرحمن الثانى (الاوسط) (٢٠٦ — ٢٣٨ هـ) (٨٢٢ — ٨٥٢م)

صار الية الملك بعهد من أبيه ثم لأخيه المغيرة من بعده ، وكان مولده بطليطلة سنة ١٧٦ هـ

تجلت عظمة الملك بالأندلس فى عصر عبد الرحمن الثانى إذ اتخذ من أبهة العباسيين مثلا فجعل له حاشية ، وجمل قرطبة و بنى مساجد وقصورا ، وأنشأ حدائق و بساتين ؛ وسير اليها الجداول من أعالى الجبال ، وشجع الأدب وأعطى الشعراء وكان رحيما برعيته نقى السيرة والسريرة ؛ جعل أمر ملكه لأربعة : فقيه وهو يحيى ونعرفه فيما مر بنا ، وموسيقى يدعى زريابا ، وجاريته طروب ، وخصى اسمه نصر: جعل عبد الرحمن ليحيى أمر القضاء والنظر فى كافة الأحوال الدينية ، فأصبح بين العلماء و بين طبقات الشعب على اختلافها رفيع المنزلة ذا نفوذ وسلطان ، له أن يعين أو يعزل من شاء من القضاة ، وكان قاسيا فهابه الناس وخافوه . ولم يكن زرياب الموسيقار واسمه (على بن نافع) أقل نفوذا من يحيى ، وقد أتى إلى الأندلس من بغداد سنة ٢٠٦ هـ ، وكان قد تعلم فن الموسيقى على اسحاق الموصلى وقيل ابراهيم فنبغ وذهب به معلمه مرة إلى الرشيد فغناه .

يأيها الملك الميمون طائره   هرون راح اليك الناس وابتكروا

فطرب الرشيد كثيرا فخاف الموصلى منافسة تلميذه له ، فخيره بين أمرين إما أن يبقى فى بغداد فيعمل على قتله ولولاقى حتفه من جراء ذلك . وإما أن

يخرج إلى أرض بعيدة وفى هذه الحالة يمده بما يحتاجه فى سفره من مال وغيره ، ففضل زرياب ثانى الأمرين ، وسار إلى أفريقية حيث وصله كتاب من الحكم يستدعيه إلى قرطبة فقصدها ، وقبل وصوله علم بموت الحكم فتردد فى الذهاب ، ثم دخلها فى عهد عبد الرحمن الأوسط فأكرم مثواه ، وجعل له مائتى دينار شهريا وألف دينار يوم عيد الفطر ومثلها فى عيد الاضحى ، وخمسمائة فى منتصف الصيف ومثلها فى أول المحرم ، والواقع أنه نال رضاء عبد الرحمن فكان نديمه يقص عليه الأخبار ويروى له عجائب البلدان ، وغير زرياب بعض عادات القوم فجعلهم يقصون شعرهم وكانوا يسدلونه على أكتافهم ، وحبب اليهم استعمال كوبات الزجاج بدل الكؤوس الذهبية والفضية ، وأرشدهم الى تغيير ملبسهم مع تغير الجو فى الفصول ، فصارت له مكانة سامية ، وعد بين فلاسفة وشعراء وقواد وأمراء وقته ، وكان زرياب فطنا نبيها فلم يتدخل فى السياسة أبدا ، وتركها للسلطانة طروب وأصلها من نافارا (نبرة) والخصى نصر . أما طروب فكانت امرأة ذات أنانية تميل الى الدس جشعة فى حبها للمال ، ولم يكن فى قلبها موضع للرحمة ، وكان نصيرها فى أعمالها خصيا شاركها فى صفاتها وهو من أب اسبانى وكان لا يتكلم العربية يمقت المسيحية والمسيحيين وفيما أوردناه الكفاية لوصف الحالة فى دار الملك فى قرطبة .

الثورات الداخلية فى عهده :

(أولا) فى أثناء ذلك كانت البلاد تسير فى طريق الفوضى وقد انتابتها الحروب الداخلية ، فكانت الحرب قائمة لمدة سبع سنوات بين اليمنيين وبنى معد فى مقاطعة مرسية ، وكان الأمير يرسل القواد بالجيوش ليزيلوا الشقاق المستحكم بين

بين الفريقين و يكفوهم عن القتال ، فكان إذا جاء قائدا أميرى يسكنون و إذا رحل يهبون .

(ثانيا) ثورة ماردة :

كان لنصارى المدائن العظيمة فى الاندلس ارتباط بأهل أوروبا لأن كثيرين منهم كانوا يسافرون الى فرنسا وألمانيا وغيرهما من بلدان أوربا للمتاجرة ، وكانوا عند مايختلطون بأقوام تلك البلدان يبالغون فى سرد الروايات التى تدل على سوء معاملة الحكام من العرب لهم ، فتحرك لويس ملك فرنسا عطفا على هؤلاء النصارى ، وأرسل كتابا عام ٢١٣هـ (٨٢٨م) الى ماردة يحرضهم على القيام فى وجه الحكومة الاميرية ويعدهم بالمساعدة فى ثورتهم ، وقد صادف هذا الكتاب هوى فى نفوس الاهلين لما كانوا يلقونه من القسوة على يد عمال الامير ، فهبوا بالثورة وقادهم محمود بن عبد الجبار الذى كان جابيا فى عهد الحكم وفصل من وظيفته فى أوائل عصر عبد الرحمن بسبب إنضمامه الى ثورة عم أبيه عبد الله ثم هجموا على بيوت العمال ونهبوا وخربوا وفتكوا بعدد كبير منهم ، وعلم الامير بخبر الثورة فأرسل الى عبد الرؤف بن عبد السلام والى طليطلة أمرا بالزحف على ماردة وقمع الثورة ، فأطاع الوالى الامر ، وزحف على المدينة الثائرة وحاصرها وخرب ضواحيها وأما كن النزهة بها، فكتب له الامير بأن لايتمادى فى التخريب حتى لايزيد نار الحقد فى قلوب الثائرين ، وقد استمر الحصار زمنا طويلا ساءت فيه حال المدينة الى درجة كبيرة ، وقرر عقلاؤها أن يفتحوا أبواب المدينة ، وأرسلوا الى القائد نفرا يطلبون اليه الدخول فى ساعة معينة من الليل ، ودخل عبد الرؤوف المدينة ، وطارد زعماء الثورة وقتل عددا عظيما منهم ، ثم نادى بالامان سنة ٢١٣هـ ،

وقد تمكن عدد من قواد الثورة من الفرار ومنهم محمود بن عبد الجبار الذي فر إلى جليقية ، ولكن الثوار عادوا إلى ثورتهم بعد أربع سنوات ، فخرج إلى المدينة الامير بنفسه ولما وصلها أراد ألا يدخلها سافكا للدماء . فأمر جنوده أن يعلقوا في سهامهم رقما كتبوا فيها إن الامير يعفو عن الثائرين اذا فتحوا أبواب المدينة ما عدا زعماء الثورة ، ونجحت المناورة وفتح الثوار أبواب المدينة ، ودخلها الامير وجنده وفر محمود بن عبد الجبار الذي كان قد عاد إلى المدينة وقاد الثورة ، وظل خارجا على الامير في جهات أخرى حتى قتل عام ٢٢٥ ﻫ

ثالثا — ثورة طليطلة :

وثورة طليطلة التي نحن بصددها ترجع إلى أيام الحكم في دورها الاول والثاني وذلك أن أهلها هدموا الحصن الذي كان بناه عمروس ، فسار اليهم الحكم وأخذهم على غرة وأحرق بيوتهم ، فلما كانت امارة عبد الرحمن جددت طليطلة الثورة بزعامة هاشم ، وطرد جند عبد الرحمن الثاني من المدينة (٨٢٩ م) وأحرق بيوت ومزارع المسلمين بها ، وقوى أمر الثورة بانضمام الكثيرين اليه من الجهات المجاورة فأمر عبد الرحمن الثاني عامله على الحدود محمد بن وسيم باخضاعها فهزم ، وظل الثوار منتصرين سنة كاملة حتى أرسل المدد فهزم الثوار وقتل زعيمهم هاشم

وفي عام ٨٣٤ م ثارت طليطله للمرة الرابعة فذهب اليها الأمير أمية فهزموه وأرادوا أن يقتفوا أثره وكان أعد لهم كمينا فخرج عليهم الكمين وكان يقوده ميسرة فلاقوا هزيمة منكرة ، غير أن هذه الضربات المتتالية لم تزحزح أهل طليطلة عن عزمهم على نيل استقلالهم ، فاذا كان عام ٨٣٧ م حاولوا للمرة الاخيرة تحقيق أمانيهم ، فسار اليهم الوليد أخو الأمير وحاصرهم حتى كادوا

يموتون جوعا ، ولما لم يسلموا هاجمهم واستولى على مدينتهم عنوة فى ١٦ ينايرسنة ٨٣٧ م ، وأقام حصن عمروس ثانية وأخذ الرهائن إلى قرطبة وهكذا فقدت طليطلة استقلالا ظلت تحلم به مدة ثمانى سنوات .

رابعا — ثورة قرطبة أو حركة الاستشهاد :

أقام بقرطبة وفيما حولها كثير من المسيحيين المتعلمين ، وكانوا آمنين على حياتهم وأموالهم لهم حرية العبادة ، والتحق بعضهم بجيش العرب ، وشغل آخرون وظائف أخرى بقصر الامارة ، فطاب لهم العيش وتعلموا العربية ، وأجادوها وحفظوا أشعار العرب وفلسفتهم ودرسوا كتبهم الدينية ، وشغلهم هذا عن لغة قومهم وعباداتهم غير أن فئة قليلة منهم ظلت نار الحقد والتعصب الدينى تتأجج فى صدورهم ، وعز عليهم أن يروا أجمل مدنهم فى يد الاسلام ، وكم تاقت نفوسهم إلى النزوح إلى الشمال حيث المسيحية فى الاستقلال ، وزاد من كراهيتهم بعض الأوامر الاستثنائية التى كان يصدرها الأمير من وقت إلى آخر ، وشجعهم القسس على موقف العداء نحو الاسلام ، وكان يولوجيوس ألدهم عداء (وتجدنا أبعد من أن ندنس هذه الصفحات بنقل ما كتبه هذا القس عن النبى محمد صلى الله عليه وسلم)

وجملة ما كان يتذمر منه المسيحيون سوء معاملة الرعاع لهم ، فتذكروا أيام كانت تدق النواقيس فى الكنائس . وكانت للمسيحية الكلمة الأولى .

ودفعهم موقفهم هـذا من حيث تعصبهم الدينى وتذكرهم مجد المسيحية فى الأندلس قبل ظهور الاسلام بها واستهزاء العرب بهم إلى احداث الفتن فى الجهات الجبلية ، وتكوين عصابات تعكر صفو الأمن فى داخل البلاد ، ولما لم يستطيعوا ذلك فى قرطبة نفسها عمدوا إلى تضحية أنفسهم وسموا أنفسهم الشهداء

متبعين خطوات المبشرين الأولين ، وما لقيه هؤلاء من جراء نشر المسيحية فى بداية ظهورها ، وقاد تلك الفئة شخصان يولوجيوس والفارو وثانيهما من أثرياء قرطبة ، وكانت تعيش بهذه المدينة فتاة تدعى فلورا وكانت لأب مسلم مات فى حداثة سنها ، فكفلتها أمها المسيحية ، وطبعا اعتنقت المسيحية بحكم الوراثة عن أمها ، وتذرعت بها وتعصبت لها مما جعل أخاها المسلم يتدخل فى أمرها ويمنعها عن الذهاب إلى الكنائس . ورغم هذه الرقابة كانت تذهب سرا اليها ، وصارت على رابطة دينية وطيدة بالقس يولوجيوس ، ومما ثبت فى نفسها أن المسيح لا يرضى عنها ما دامت تخفى حقيقة دينها فعزمت على اعلان مسيحيتها فهربت مع أخت لها ، واختفت بين جماعة من المسيحيين

ثم اضطرت للعودة إلى بيت أخيها وصارحته أنه لن يستطيع تغيير عقيدتها وانتهى به الأمر أن ساقها إلى القاضى فأنكرت أنها يوما ما كانت مسلمة ، وأعلنت أنها لا تعرف غير المسيحية دينا ولا تعترف بغير المسيح إلها ، فأمر القاضى بجلدها رحمة بها وشفقة منه عليها علها تتوب إلى رشدها ، وقبل أن تبرأ من جروحها هربت ثانية من بيت أخيها وآواها مسيحى صديق لها ، وأصبحت على اتصال بيولوجيوس وكان يقدسها لعلو همتها وذكائها وريعان شبابها وندورة جمالها ، ثم خرجت من قرطبة وتوارت عن الأنظار ، وفى عام ٨٥٠ م تجرأ فتى يدعى برفكتوس على الطعن فى الدين الاسلامى وفى نبى المسلمين جهارا فحوكم أمام القاضى فأمر بأعدامه . وحدد نصر يوم الاعدام واختار لذلك أول يوم عيد الفطر وقبيل غروب الشمس نفذ حكم الاعدام ولاقى المجرم حتفه بكل ثبات بعد أن أكثر من اللعنات على الاسلام والمسلمين عامة ونبيهم خاصة ، وعد المسيحيون قتيلهم بين القديسين ومما زاد من حسن ظنهم بقديسهم أن غرق اثنان من المسلمين يوم

بالاعدام ، وان نصرا لاقى منيته ولم تمض سنة على ذلك الحادث .

ولهذا الظرف نوجز كيف كانت نهاية نصر فنقول : — انها كانت جزاء خيانته لسيده وذلك أن طروب أوعزت اليه أن يساعدها على اخلاء عرش الاندلس لابنها عبد الله بقتل منافسه أخيه لأبيه محمد وبقتل زوجها نفسه فحصل نصر على سم زعاف وقدمه لسيده على شكل دواء نافع ، ولكن شاءت الظروف والاقدار أن يعلم الامير بأمر هذا السم فلما قدم اليه أظهر خوفه ومنعا للريبة اضطر نصر أن يشرب به فشربه ومات لساعته

وحدث بعد ذلك بقليل أن اتهم تاجر مسيحى يدعى (حنا) بالتعريض بالنبي محمد ، وذلك أنه كان دائما يقسم بالنبي وحياته كذبا بأنه صادق فيما يقول عن جودة بضاعته واعتدال أثمانها ، فخاطبه القوم فى ذلك فقال « لعنة الله على كل من يذكر اسم محمد » وكان فى قوله الاخير الكفاية فأمر القاضى بجلده أربعمائة جلدة ، وعلى أثر هذه الحادثة صمم جماعات الشهداء على أن ينالوا رضاء المسيح بتقديم أنفسهم للسياف ولم يجدوا لذلك طريقة سوى لعنهم النبي وسبه علانية ، وكان أسبقهم إلى ذلك قس يدعى « اسحاق » وكان فى بداية أمره ناموسا لعبد الرحمن الثانى ثم دخل خدمة الكنيسة حيث تشبعت نفسه بنظرية وجوب الاستشهاد ، فذهب يوما من تلقاء نفسه إلى القاضى وقال « أريد أن أعتنق الاسلام ، فأرشدنى إلى السبيل » فسر القاضى و بدأ يحدثه عن الاسلام ، وهنا قاطعه القس قائلا « لقد كذب نبيكم وخدعكم بكذبه وافترائه » ثم لعنه وقال « لقد ذهب إلى حيث مصيركم إلى جهنم و بئس القرار » فلطمه القاضى على وجهه ثم قال :

« لعلك ثمل من كثرة الشراب أو بك مس فى عقلك فتبين ما تقول »

فأجاب القس « إنى أملك قواى العقلية تماما ولم أذق الشراب فى يومى وإن إخلاصى لدينى دفعنى إلى ما كان منى ، فأمر القاضى بسجنه وهو يعتقد أن الرجل به جنون ، ولكن عبد الرحمن وقد هاله ما سمع أمر بقتله وصلبه ثم إحراقه ، وفى ٣ يوليو سنة ٨٥١ م نفذ حكم الاعدام وضم المسيحيون اسمه إلى أسماء القديسين .

وبعد مقتل اسحاق بيومين تقدم سانكو وسب النبى فضرب عنقه ، وفى يوم الأحد ٧ يوليو نال ستة منهم نفس الجزاء لنفس السبب ، وكأن هذا الجزاء قد زاد من اقدامهم فتطوعوا بقطع رءوسهم ، و بلغ عدد شهدائهم أحد عشر شهيدا فى أقل من شهرين ، ويجدر بنا أن نبين هنا أن أغلبية المسيحيين وقد خلت نفوسهم من ذلك التعصب الشديد أنكروا على إخوانهم ما كان منهم وعدوا عملهم جنونا أصابهم وأدى بهم إلى الانتحار . وحاجوهم بآيات من أنجيلهم تبين لهم جهلهم ، وقد وافق قسسهم على هذه الآراء وأيدوها ، وعبثا حاول يولوجيوس إثارة نفوسهم ثانية

أما الحكومة الاسلامية فقد وجدت نفسها أمام مسألة خطيرة ، ففكرت فى حل يضع حدا لهذه المذابح من جهة ومنع أولئك القوم من طعنهم الدين الاسلامى من جهة أخرى ، فدعت ذوى الكلمة والنفوذ من المسيحيين إلى عقد مجمع يقرر بطلان طريقة الاستشهاد ، وناب عن عبد الرحمن فى حضور هذا الاجتماع رسول مسيحى من قبله وأسمه جوميز بن انطونيان ؛ وهذا شرح للمجلس سوء عاقبة أعمال الشهداء ، وأنها قد تؤدى إلى استئصال شأفة المسيحيين فى البلاد ، وسأل المجلس أن يصدر نداء يوجهه إلى العالم المسيحى بالأندلس يبين خطأ نظرية الاستشهاد وأن يجيز للأساقفة والقسس سجن من تظهر عليهم هذه النزعات ، وصدر قرار المجلس بذلك ، فلم يأبه يولوجيوس وأتباعه بهذا النداء ، فطوردوا من مكان إلى

مكان وأخيراً قبض عليهم وسجنوا ، وفى السجن قابل يولوجيوس فلورا مرة أخرى وفى ٢٤ نوفمبر سنة ٨٥١ م أعدمت تلك الفتاة وزميلة لها تدعى مارى

عقب ذلك عفا عبد الرحمن عن يولوجيوس ومن معه ، غير أن هذا العفو لم يضع حداً لتلك الحالة

أغارة النورمان :

جاء فى كتاب تاريخ العرب فى اسبانيا لمؤلفه المرحوم محمد بك دياب ما يأتى :

فى سنة ٢٢٩ هـ (٨٤٣ م) جاء على شواطىء أشبونه أربع وخمسون سفينة تقل كثيرا من أقوام متوحشين جاءوا من البطليق وشواطىء النرويج يعرفون عند الأوربيين بالنورمان أى رجال الشمال و يعرفون عند العرب بالماجوج فنهبوا البلاد وقتلوا العباد ، وأحرقوا المدائن ، فاجتمع المسلمون وحملوا السلاح وجاءوا ليدفعوا غائلتهم فلما رأوهم ركبوا السفن بغنائمهم واختفوا ، ثم نزلوا فى شاطىء الغرب ويظهر أنهم لما اجتمعوا عند مصب النهر الكبير انقسموا أقساما : قسم توجه إلى افريقيـة وقسم توجه إلى قادس ثم إلى شدونه . والقسم الثالث دخل النهر وصعد نحو اشبيليه فى ٨ المحرم سنة ٢٣٠ هـ (٢٥ سبتمبر سنة ٨٤٤ م) ، وكانوا ينهبون القرى التى على الشاطئين و يملؤن سفنهم بالنهاب ، وقد ملؤا سكان الشواطىء رعبا حتى فروا من وجوههم ؛ ولما وصلوا إلى جزيرة قبطيل قابلتهم جنود العرب المجتمعه هناك وحاربتهم فغلبوها ، ثم نهبوا اشبيليـة ، وكان السكان قد اخلوها وفروا إلى قرمونه ، وتحصنوا فى طليطلة ، فلما جاء الماجوج اليهـم غلبهم مسلموا هذه المدينة ، وفى ثانى عشر هذا الشهر علموا أن الامير أرسل خمس عشرة سفينة تقل جيوشا شجعانا لتصدهم عن المرور فى النهر فانسحبوا واختفوا فى المحيط ، وعادوا

إلى شواطىء المغرب ، وقد أمر عبد الرحمن جنود ماردة وشنترين وقلمرية بالتوجه لمراقبتهم والمحافظة على السواحل، ولكنهم كانوا قد فعلوا افاعيلهم قبل ان تجتمع هذه الجنود ، وفى هذه الأثناء اخذ عبد لرحمن فى السير وتحت امرته فرسان ليساعدوا اشبيلية ، فلما حضر وشاهد ما اتلفته ايدى هؤلاء البربر المتوحشين بدون أن يقابل منهم أحدا حزن وأمر بأصلاح الفاسد ورتق فتوق التلف » .

وفى تاريخ ابن الاثير « إن عسكر المسلمين قاتلوهم وقتلوا منهم سبعين رجلا وهزموهم حتى دخلوا مراكبهم ، وسير الأمير جيشا آخر وأتاه المدد من كل ناحية فخرج اليهم المجوس وقاتلوهم فكاد المسلمون ينهزمون ثم ثبتوا وهزموا مقاتليهم إلى مراكبهم ، وقتلوا منهم خمسمائة رجل وأخذوا منهم أربع مراكب وأحرقوها بعدما أخذوا ما فيها ثم خرج المجوس إلى لبلة فأصابوا سبيا ؛ ثم نزلوا جزيرة قوريس (قورة) وقسموا ما كان معهم من الغنيمة ، فحمى المسلمون ودخلوا إليهم فى النهر وقتلوا منهم رجلين ، ثم رحل المجوس ، فطرقوا شدونه فغنموا أطعمة وسبيا ثم وصلت مراكب عبد الرحمن إلى أشبيلية فلما أحس بها المجوس لحقوا بلبلة فأغاروا وسبوا ، ثم لحقوا باكشونية ، ثم مضوا إلى باجه ثم انتقلوا إلى أشبونه ثم ساروا وانقطع خبرهم عن البلاد »

أمر عبد الرحمن بانشاء سفائن فى قادس وقرطاجنة وطرجونه لتحفظ وترد اغارة المغيرين إذا عادوا إلى البلاد وناط ذلك بابن يعقوب

أثر حكم عبدالرحمن الثانى :

كان له أثر كبير فى ترقية الحركة الفكرية وذلك بتشجيع العلماء وميله إلى الأدباء ، فكان بلاطه مزدحما برجال العلم والأدب والدين والفلسفة والشعراء ،

و بسبب وفرة المال فى خزانته عمد إلى الاصلاحات الداخلية فبنى القصور وأقام الجسور وزاد فى جامع قرطبة

ومن شعره

ولقد تعارض أوجه لأوامر فيقودها التوفيق نحو صوابها
والشيخ إن يحو النهى بتجارب فشباب رأى القوم عند شبابها

وكان عبد الرحمن يا كرامه زريابا أكبر ناصر لفن الغناء .

هذا وقد مات عبد الرحمن فى سبتمبر سنة ٨٥٢ م قبل أن تنتهى حوادث النصارى المستشهدين

الباب الثالث

اسبانيا العربية الثائرة

(٢٣٨ — ٣٠٠ هـ) (٨٥٣ — ٩١٢ م)

قام صراع عنيف فى أثناء هذه الفترة بين الحكومة الأميرية فى قرطبة وبين حكام الأقاليم فى أنحاء الأندلس العربية ، و بذل كل طرف منهما الجهود الجبارة للوصول إلى بغيته ، ووقعت البلاد بأسرها فى حروب طاحنة أهلكت النسل والزرع والضرع ، وقاست الحكومة الأموية أهوالا على أيدى الثوار الذين أحاطوا بها من كل جانب ، وكادوا ينتزعون السلطة من أيديها و يقيمون حكومات اقليمية مستقلة عنها فى كل مظاهر السلطان والنفوذ ، وقاد هذه الثورة زعماء قادرون عريقون فى الحسب والنسب ، وأسرع نصارى الشمال وتدخلوا فى شؤون الأندلس الداخلية وأمدوا الثورة بكل ما استطاعوا من رجال وأموال فاستفحل أمرها ، وأصبحت شراً مستطيراً على البلاد والعباد ، وهب الأمير الأموى ومن حوله من الأنصار والقواد يكافحون للاحتفاظ بالسلطة المركزية كفاح المستميت ، وطال أمد الثورة ، وأصبحت خزينة الدولة خاوية على عروشها ، وقلت الأقوات وزاد الغلاء وعم البلاء ، وأصبح لا محيص عن تمزق ملك عبد الرحمن الداخل وسقوط دولة بنى أمية فى الأندلس ، ولكن سرعان ما تبدلت الحال وظهرت بوادر الفرج بصعود عبد الرحمن الثالث عرش البلاد ، وكانت الثورة قد فقدت حدتها بموت زعمائها فاستطاع الملك الشاب استرداد مجد الأمويين بالأندلس واليك التفصيل :

الفصل الأول

عصر محمد بن عبد الرحمن : (٢٣٨ — ٢٧٣ هـ) (٨٥٢ — ٨٨٦) م

مات عبد الرحمن فجأة قبل أن يختار أحد أبنائه ولياً للعهد ، وكان له ولدان عبد الله بن الملكة طروب ومحمد ، فأغلق الخصيان باب القصر حتى لا يتسرب خبر الوفاة الى الخارج ، وعقدوا مجلسا تحت رياسة أحدهم أبى المفرح و بعد المشاورة قر رأيهم على اسناد منصب الامارة إلى محمد لحسن سيرته وصلاحه وتقواه ، وحمل الخصى سعدون النرار وذهب إلى محمد ومعه خاتم الامارة إلى قصره فى الهزيع الأخير من الليل ، وأعلمه بوفاة أبيه وانعقاد الرأى على المناداة به ملكا ، فارتاب محمد فى الأمر وظن أن سعدونا أرسل من قبل أخيه عبدالله لاغتياله ، ولكن سعدونا أكد له صدق رسالته ، وطلب اليه النهوض والذهاب إلى قصر الامارة فوراً ، فأجاب محمد الطلب واحتال على الحراس حتى دخل القصر قبيل الفجر وأخذ البيعة لنفسه على من حضر ، وأعلن نفسه أميراً فى الصباح

يقول دوزى : « اعتلى محمد عرش الامارة وغير سيرته الاولى فقد طاب له أن يمضى سحابة يومه فى قصر الرصافة ، ويكثر من الشراب وأظهر أنانية وضعف عقل فى تصرفاته ، وكان أول أعماله أن أنقص مرتبات الموظفين وقلل أعطية الجند ، ثم حرم البلاد من خدمات الأكفاء من وزراء أبيه . وعين أحداثا تعوزهم التجارب نظير أخذ نصيب من رواتبهم ودخلهم ، وكان بخيلا حريصاً على أموال الدولة لم يسمح لأحد بمشاركته فى تدبيرها ، وكان يحاسب وزير المال

على درهم نقص من دخل قدره مائة الف دينار

كرهه الناس لموقفه هذا عدا جماعة الفقهاء ، وذلك لانهم رأوه شديد الغيرة على الدين الاسلامى يستطيع كبح جماح المسيحيين المتعصبين ، ولما شعر بتأييد هذه الطائفة له طرد كافة الموظفين والجند النصارى ولم يبق فى خدمته الاجوميز، ثم خالف سياسة آبائه فى نظرية التسامح الدينى وصمم على إقامة الاسلام وتأييده بكل ما استطاع من قوة ، فأمر بهدم ما كان قد بنى من الكنائس وما كان باقيا منها ثم أخذ ينشر الاسلام بين رعاياه واضطهد من لم يعتنقه من النصارى فدخله الكثيرون خوفا »

وقد اعتنق جوميز الاسلام حتى يحصل على منصب المتصرف ببيت المال الذى خلا بوفاة شاغله عبد الله بن أمية ، وقد قلده إياه الأمير بعد اسلامه ، وأخذ جوميز يحافظ على إقامة الشعائر الدينية فى أوقاتها ولم ينقطع عن الصلاة فى الجامع فرضاً واحداً فاطلق عليه الفقهاء اسم « يمامة الجامع » وسمى ابنه عمر .

القضاء على حركة الاستشهاد ومحاربة طليطلة :

غضب يولوجيوس غضبا شديدا بسبب ماحل بنصارى قرطبة ، وذهب إلى طليطلة وأخذ يخطب بين أهله خطبه النارية حتى أثارهم على الأمير ، واختاروا زعيما من بينهم يسمى سندولا ، وقبضوا على حاكم المدينة العربى وانذروا محمداً بأنهم سيقتلونه إن لم يطلق يطلق سراح الرهائن الموجودة لديه ، فأجاب الأمير طلبهم وأطلق سراح الرهائن حتى ينقذ الحاكم فأطلقوه وأجبروا الحامية العربية على مغادرة المدينة .

جهز محمد الجيوش وأرسلها إلى قلعة رباح فى سنة ٢٣٩ هـ (٨٥٣ م) تحت قيادة أخيه الحكم لاصلاح اسوارها التى خربها أهل طليطلة ، ثم تقدم نحو طليطلة

بعد أن رم أسوار القلعة ، وكان الأمير قد سير جيشا آخر عليها ، فخرج أهل طليطلة على الجيوش الأميرية وهزموها وقتلوا عددا كبيرا من جند المسلمين ثم زحفوا على قرطبة فغضب الأمير وجمع جيوش الدولة وخرج على رأسها لمعاقبة الثوار وذلك فى السنة التالية ، ولما علم سندولا الخبر استنجد بأردونو الاول ملك ليون فأمده بجيش عظيم بقيادة جاتون ، ويقول ابن خلدون ان ملك نفارا أرسل أيضا نجدة لشد أزر النصارى

تقدم محمد بالجيش نحو طليطلة ، وتقهقر الحلفاء من النصارى واعتصموا بأسوار المدينة الحصينة وحاصرهم الأمير بجنده ، ثم زحف على المدينة بقوة صغيرة بعد أن أعد كمينا لهم بوادى سليط ، ولما رأى جاتون قلة العدد الذى يحاصر المدينة تشجع وفتح الأبواب وخرج للقتال ، فتظاهر الأمير بالتقهقر وتراجع نحو الكمين وتبعه الأعداء هاجمين حتى إذا ماوصلوا إلى مكان الكمين خرج منه باقى الجند وأحاطوا بالحلفاء فأبادوهم عن آخرهم ، واحتز عسكر محمد ٨٠٠٠ رأس من رؤوس أعدائهم وأقاموا منها أكداسا ، وعاد محمد ظافرا بعد أن قتل ٢٠ ألفا ، ثم أمر بأن تعلق بعض هذه الرؤوس على أسوار قرطبة ، ثم أمر قواده وابنه المنذر بمداومة غزو طليطلة وإرهاق أهلها بشتى الضرائب ، ثم ضاعف الجزية على مسيحى قرطبة وهدم أحد اديرتهم ، ولكن على الرغم من ذلك استمر بعض المتهوسين فى حركتهم الاستشهادية ، ولم يمض وقت طويل على هذه الحوادث حتى اختارت طليطلة يولوجيوس رئيسا لأساقفتها ، وامتنع الأمير عن الموافقة على هذا الاختيار ولكن الاساقفة أصروا على رأيهم فوافق الأمير ، وما لبثت أن ثارت طليطلة مرة أخرى فهاجمها الامير بجيوشه وحرق مبانيها واغرق جيوشها فى نهر التاجة وتركها قاعا صفصفا

ولما عاد إلى قرطبة سنحت له فرصة للتخلص من ألد أعداء المسلمين وهو يولوجيوس ، وكان قد عاد إلى قرطبة وأخفى فتاة تسمى ليوكريتا فى منزله ، وكانت من أبوين مسلمين واعتنقت المسيحية باغراء إحدى الراهبات ، ولما بلغ خبر اختفائها القاضى أمر بمهاجمة منزل يولوجيوس وقبض الجند عليها وعليه ، وحاكمه القاضى وأمر بجلده ، ولكن القس رفض الجلد وأخذ يسب النبى حتى يأمر القاضى باعدامه ولكن القاضى تردد فى توقيع العقوبة رأفة به وأرسله إلى الوزراء حتى يراجع نفسه وينكر السب ، ولكنه لم يفعل فضربت عنقه فى ١١ مارس سنة ٨٥٩ م وأعدمت الفتاة بعد ذلك بأربعة أيام ، وقد حزن النصارى حزنا شديداً لموت شهيدهم ورفعوه إلى مقام القديسين ، وطلب الفونسو ملك ليون بعد ذلك بأربع وعشرين سنة من الأمير الأموى أن ينقل رفات هذا القس مع الفتاة إلى ليون فأجيب إلى طلبه

أخذت حركة الاستشهاد بعد ذلك فى الضعف لأنها فقدت مثير ضرامها وبعد زمن قليل انقلبت هذه الحركة الجنونية إلى حرب علنية بين المسيحيين والمسلمين فى أنحاء اسبانيا

انتشار الفتن والفوضى فى البلاد

أولا — إغارة النورمان للمرة الثانية :

بينما كان الامير يطفىء نار الثورة فى طليطلة ويخضعها لسلطان قرطبة أعاد النورمان الكرة على شواطىء اسبانيا فى عام ٢٤٥ هـ ، فأغاروا أولا على سواحل جليقية ، ثم مضوا فى ستين مركبا إلى شواطىء الاندلس فنزلوها وعاثوا فى أقاليم ريه ومالقه ورندة ، واحرقوا المدائن المجاورة للبحر ، وهدموا كثيرا من

المبانى والقلاع التى كانت معدة لمراقبة الطوارىء الخارجية ، وخربوا جامع الجزيرة الخضراء المسمى بمسجد الرايات ، ولما بلغ خبرهم الامير ارسل فرسانه ليدفعوا غائلتهم ، ففر النورمان إلى شواطىء افريقية ثم عادوا إلى ساحل تدمير ودخلوا عاصمتها اريولة ونهبوا كثيرا من قرى المسلمين ، وحمل عليهم الاسطول الاندلسى فحطم بعض سفنهم بعد قتال عنيف استشهد فيه كثير من المسلمين ، وتراجع النورمان الى جزائر ميورقة ومنورقة وخربوها ، ثم ساروا الى سواحل الفرنجة وروعوا الأهلين وغنموا غنائم لا تحصى ، ووصلوا الى بنبلونه عاصمة نافار واستولوا عليها واسروا حاكمها وفدى نفسه بسبعين الف دينار ، ثم انصرفوا فلقيتهم مراكب الأمير وقاتلوهم وغنموا مركبين ، ورجع النورمان الى شواطىء اسكندناوة ومراكبهم مثقلة بالغنائم وذلك فى عام ٢٤٦ هـ ٨٦٠ م .

ثانيا : اغارة اردونو :

واغار اردنو ملك ليون على الأملاك الأسلامية الواقعة فى جنوب نهر دويره فى عام ٢٤٦ هـ ، وتغلب على والى الحدود زيد بن قاسم ، واستولى على كثير من المدن والحصون منها كوريا وسلمنقه وقتل رجال هاتين المدينتين ، ففزع الامير من انتصار اردونو ، وارسل جيشاً على رأسة ابنه المنذر لمحاربة هؤلاء النصارى والعمل على استرداد المدن والحصون ، ونجح المنذر فى حملته واسترجع المدينتين وقتل عددا كبيرا من اعداء قرطبة ؛ ثم حول جيشه الى الشمال الشرقى وعبر نهر الابرو ، ودخل نفارو باغ ارض بنبلونه واتلف ثمارها وحاصلاتها ، وافتتح ثلاثة حصون منها حصن قشتيل واسر بطلها المسمى فرتون بن غرسيه ، وحمله إلى قرطبة فمكث بها ٢٠ عاما .

أغار نصارى جليقية بعد ذلك بثلاث سنوات على أملاك المسلمين المتاخمة لهم ونهبوها وخربوا كثيرا من المدن والمبانى ، فأمر محمد قواده وجيوشه بالزحف عليهم ، وخرج بنفسه غازيا وانضم اليه فرسان ماردة وحارب هؤلاء النصارى ودخل بلادهم ، وتقهقر الأعداء أمامه ورجع الأمير عن طريق طلبيره واتجه نحو طليطلة لتأديبها .

ثالثا : ثورة حفصون:

قامت ثورة هائلة فى بلاد ارجون العليا على حدود الفرنك يقودها شقى يعرف بحفصون وذلك فى سنة ٢٥٠ هـ ، واتخذ حصنا من حصون اليهود يعرف بروطة اليهود مقرا له ، وهو حصن منيع على قمة جبل صخرى ويقع فى ولاية سرقسطة ، وقد انضم اليه نصارى تلك الجهة وشقوا عصا الطاعة ضد الأمير ، وكانت جموع حفصون تنقض من الجبال كالسيول الجارفة على البلاد فتروعها وتخربها ، وتحرض أهلها على نبذ الطاعة والانضمام اليهم ، ومن أبى منهم كان جزاؤه القتل ، وبواسطة هذا الارهاب التف حول حفصون نفر كبير ، وانضم والى لارده اليه ، وسلمه المقاطعة وتبعه قادة القلاع الأخرى وغيرهم من اليهود والنصارى ، وامتد لهب الثورة فى زمن يسير حتى عم جميع الأقاليم الواقعة على شاطىء نهر أبرو الأيسر ، ولم يحرك والى سرقسطة ساكنا فى إيقاف هؤلاء الثوار عند حدهم بسبب غضب الأمير عليه ونهض الأمير لأطفاء نار الثورة ، وكتب إلى ولاته المخلصين بجمع الجيوش ، وذهب بنفسه إلى طليطلة على رأس جيش كبير ، وأمر ابنه المنذر بمراقبة حدود جليقية ، واجتمع جنود مرسية وبلنسية تحت قيادة زيد بن قاسم حفيد الامير ، وزحفوا للانضمام إلى جيش قرطبة ، وذلك بقصد الزحف على شاطىء نهر الابرو

لمطاردة حفصون الثائر واسترداد المدن والحصون التى استولى عليها ، ولما رأى الثائر أن لاقبل له على منازلة كل هذه الجيوش الجرارة عمد إلى الخداع ، وكتب إلى الأمير يسترضيه ويطلب اليه أن يأمر الجيوش الزاحفة عليه بالانضمام اليه حتى يحارب الفرنج فخدع الامير ورجع بالجيوش التى كان يقودها إلى معاونة ابنه المنذر فى حروبه ضد جليقية ، وأمر حفيده بالانضمام إلى حفصون ، ونفذ زيد الامر . وتظاهر حفصون بالاخلاص والولاء ، ولكنه انقض على جيش زيد فى ظلام الليل وإباده وقتل زيد فى المعركة بعد أن دافع دفاع المستميت ، وكان ذلك عام ٢٥٢ هـ ٨٦٦ م .

هاج الامير لنبأ هذه الفاجعة واستدعى ابنه المنذر من حدود جليقية ، وطلب اليه محاربة الخائن وحليفه عبدالملك والى لاردة حربا عوانا ، وزحف المنذر على أودية العصاة ، وقاوم حفصون وحليفه مقاومة عنيدة . ولكن المنذر انتصر وأسر عبد الملك وقطع رقبته وأرسلها إلى قرطبة ، ثم استولى على روطة اليهود وكر الخائن الذى فر إلى ركن منيع من أركان جبال البرانس . وكان من نتائج هذا الانتصار أن خضعت لاردة وحصون أخرى إلى سلطان قرطبة ، ثم عاد المنذر إلى العاصمة ظافرا فاستقبل فيها استقبالا عظيما وذلك فى عام ٢٥٢ هـ ٨٦٦ م

رابعا : الحروب ضد سرقسطه:

ظهرت أسرة فى ولاية سرقسطه وما حولها تعرف بأسرة بنى قصى ، ويرجع نسبها إلى القوط الذين وجدوا فى أوائل الفتح العربى ، واشتهر من أفرادها الكثيرون منهم لب ومحمد وموسى وغيرهم ، وقد وصلوا إلى مراكز سامية فى

عهد الدولة الاموية ، وتولوا حكم المقاطعات التى حول سرقسطة ومنهم من حكم فى مدينة طليطله

وقد ظل أفراد هذه الاسرة موالين لقرطبة حتى زمن محمد بن عبد الرحمن ، ولكن حدث بعد ذلك أن ظهر من بينهم موسى الثانى واتخذ مدينة سرقسطة عاصمة له ، واستقل بها عن إمارة قرطبة ، وحالف طليطلة وحارب كونت برشلونه وملك قشتاله والفرنجة ، وأهان شارل الجسور أمير برغندية ، وعلت كلمته وعظمت سطوته فنادى بنفسه ملكا ثانيا لأسبانيا ، ثم تحالف مع الفونسو الثالث ملك ليون الذى خلف اردونو على العرش سنة ٨٦٦ م ، وأصبح أمره خطرا على الأندلس ولذلك جمع الأمير فى سنة ٨٦٩ م جنود الاندلس ووجهها تحت قيادة ابنه المنذر الى سرقسطة لاخضاعها ، وزحف المنذر بجيشه عليها وأغلق الوالى أبوابها وحاصرها ٢٠ يوما . ولما طال الحصار تركه المنذر ، ودخل أرض نفاره ونهبها ثم عاد إلى سرقسطه وحاصرها ، و بقى فى اسبانيا الشرقية حتى سنة ٨٧٠ م ٢٥٧ ه وفى تلك السنة مات موسى فسلمت المدينة إلى المنذر ، وفى أثناء تلك المدة ثارت طليطلة بقيادة عبد الله بن لب بن موسى الأول ، فزحف عليها المنذر بجيشه ، و بعد مناوشات سلمت المدينة فى سنة ٨٧١ م ، وقبل الامير أن يعفو عن رؤساء عصيان الماضى ، ثم رجع المنذر إلى قرطبة فقوبل بفرح عظيم

خامسا : خروج ابن مروان فى ماردة :

جمع عبد الرحمن بن مروان الجليقى رجاله فى سنة ٢٦١ ه وقصد قلعة الحنش فى جنوب ماردة وملكها ، وأعلن الثورة ضد محمد بن عبد الرحمن امير قرطبة ، ثم ضم اليه عصابة أخرى يقودها ثائر يسمى سعدونا ، ودعا الى جيشه كل

مولدى ماردة وغيرها ، وتحالف مع الفونسو الثالث أمير ليون ، ثم أخذ يبشر بدين جديد وسط بين الاسلام والنصرانية ، ولما وجد الامير أن أمره استفحل فى تلك الجهات الغربية أرسل اليه جيشا تحت قيادة وزيره هاشم فى سنة ٢٦٢هـ فأرسل الجليقى سعدونا الى حليفه الفونسو الثالث يطلب منه المعونة والمدد ، ثم خرج من بطليوس ، وتوجه إلى حصن كركى وانضم اليه أهل ماردة ، ثم وصل المدد من حليفه على رأسه سعدون ، واستعد الجميع لمنازلة هاشم ، وتقابل الجمعان ودارت بينهما معركة دموية انتهت بفوز الجليقى وانهزام قوة الامير وأسر هاشم وأرسل الى ليون ليبقى فيها تحت الاسر حتى يفدى ، وقد افتداه الامير بقدر كبير من المال فأطلق سراحة بعد ان ترك اخويه وابن اخيه رهائن على باقى الفدية

وقد جاء فى ابن خلدون : أن عبد الرحمن الجليقى هزم هاشما واسره فى عام ٢٦٣هـ ثم وقعت المراودة فى الصلح على ان ينزل عبد الرحمن بطليوس و يطلق الوزير هاشما ، فتم ذلك سنة ٢٦٥ هـ ، ونزل عبد الرحمن بطليوس وكانت خربة فشيدها بعد سنتين ونصف من اسره ، وبهذا اصبح ابن مروان سيد تلك الجهات لاينازعه فيها منازع

سادساً : خروج عمر بن حفصون :

يؤخذ من التواريخ العربية والافرنجية ان عمر ينتسب إلى أسرة قوطية شريفة عريقة فى النسب ، وان أباه حفصون قد اعتنق الاسلام . وانه هاجر من موطنه الأصلى فى شمال مالقه الشرقى ، واستوطن جبال رندة فى سفح جبل ببشتر وأن المعيشة بين الجبال والغابات والمضايق غير المطروقة أثرت فى طباع الشاب عمر فانقلب لصا قاطع طريق ، واعتدى على الأرواح والأموال ، وطاردته الحكومة

و يئس والده من تثقيفه فطرده من منزله ، وترك عمر اسبانيا وعبر البحر وقصد افريقية ونزل بمدينة ناهرت ، واشتغل خياطا عند أحد معارف أبيه ، ثم ترك الابرة وأخذ السيف ، وعاد إلى الاندلس وجمع حوله شبانا على شاكلته ، واتخذ جبل ببشتر حصنا له ، وأخذ هو وعصابته يقطع الطريق و يخطف البهائم و يفرض ضرائب فادحة على المزارع والزراع ، ثم استفحل أمر عصابته وتفاقم شرها وهاجمت المدن التى تقع حول مدينة ريا

واقليم ريا اقليم جبلى يبعد قليلا عن الساحل الجنوبى وعاصمته ارفيدونه وسكانه كلهم من الاسبان واعتنق أكثرهم الاسلام وكانوا ذوى جرأة واقدام وقوة ، ومهنتهم قطع الطرق والتهريب ، وعلى الرغم من اعتناق أكثريتهم الاسلام كانوا دائما يعدون العرب أعداءهم مغتصبين لحريتهم و بلادهم

غضبت الحكومة الأميرية لكثرة الاعتداءات التى وقعت من عمر ، وأمرت واليها فى ريا ان يطارد هؤلاء اللصوص ففعل ، ولكنه غلب على أمره وانهزم أمام العصاة فعزله الأمير وولى مكانه واليا جديدا ، فهادن العصاة ، ثم عاد الوزير هاشم بعد ذلك إلى هذه الجهة ، وطلب إلى عمر وعصابته ان يذهبوا إلى قرطبة فأجابو الطلب ، واستقبلهم الأمير استقبالا عظيما وأدخلهم الجندية ، وفى صيف سنة ٨٨٣ م سار عمر ورجاله فى ركاب هاشم لقتال محمد بن لب رئيس بنى موسى والفونسو ملك ليون ، وقام بأعمال جريئة فى الحرب ، ولكنه مل حياة الجندية المنتظمة وعاد إلى عصيانه فى عام ٨٨٤ م ، وطلب من الفرنج من سكان جبال البرانس ان يمدوه بما استطاعوا من الجنود ، ولما اجتمع لديه عدد كبير من الجنود أغار بهم على المدن والبلدان ، وقام حكام سرقسطة ووشقة يردون هذه الاغارات ولكنهم غلبوا على أمرهم فاستنجدوا بالأمير ، وجهز الأمير

جيشا كبيرا على رأسه ابنه المنذر وسيره لرد هؤلاء العصاة والقضاء عليهم ، وفى صيف عام ٢٦٩ هـ حدثت معارك هائلة بين الطرفين انتهت بمعركة أيبار ، وهى تبعد عن بنبلونه ببضع فراسخ قتل فيها غرسية ملك نفارا ، وجرح ابن حفصون جرحا بليغا ولكنه فر إلى الجنوب

ولم تكن هذه المعركة حاسمة إذ استطاع ابن حفصون بعدها على الرغم من جراحه ان يجمع حوله الانصار ، وظل ثائرا خارجا على إمارة قرطبة

أما المنذر فقد بقى بعد المعركة فى الشمال الشرقى ، وحاصر سرقسطة وعاث فى نواحيها ، ثم فتح حصن روطة وأخذ منه عبد الواحد الروطى ، وكان أشجع أهل زمانه ، ثم قصد مدينتى لاردة وقرطاجنة وكان فيها اسماعيل بن موسى وحاربه ، فأذعن اسماعيل بالطاعة وأعطى رهائن ، ثم تقدم إلى إلبة والقلاع وفتح حصونا ورجع ، وقد وقعت هذه الغزوة بين سنتى ٢٦٨ ، ٢٦٩ هـ — ٨٨٢ م

استمرت نيران الثورة مندلعة فى أنحاء الأندلس على الرغم من تلك الجهود الجبارة التى قام بها الأمير محمد وابنه المنذر ، وظلت القواد والجنود تكافح تلك الثورات فى الجهات المختلفة ، ويروى انه فى سنة ٢٧١ هـ عاد المنذر إلى الحرب وسار إلى مدينة بطليوس ، ففر منها ابن مروان الجليقى وكان قد عاد إلى الثورة وتحصن بأشير غرة فاحرق المنذر بطليوس ، وسير الأمير فى الوقت نفسه جيشا مع هاشم بن عبد العزيز إلى مدينة سرقسطة التى ثارت بزعامة محمد بن لب بن موسى يساعده حليفه ابن حصفون ، وحارب المدينة واستولى عليها ، وفر الثائران إلى الجبال ولكنهما ظهرا مرة ثانية بعد عودة الجيش إلى قرطبة ، واستعصم ابن حفصون بمدينة الحامة ، فخرج اليه المنذر وحاصره لمدة شهرين ، وأخيرا خرج المحاصرون وهاجموا جيش المنذر فتغلب عليهم ، وجرح ابن حفصون وفقد احدى يديه ،

ولكنه استطاع الفرار الى الجنوب حيث تحصن فى جبال بيشتر

أما ابن مروان فقد أغار على اشبيلية ، فأرسل الأمير اليه جيشا لمحاربته ، ودارت رحى الحرب بين الفريقين وانتهت بأن طلب ابن مروان الصلح على أن يخضع لامارة قرطبة فقبل الامير وصالحه ، واستقام ابن مروان على طاعته حتى مات

وفاة محمد بن عبد الرحمن :

توفى محمد ليلة الخميس الثامن والعشرين من صفر سنة ٢٧٣ هـ (أغسطس ٨٨٦ م) وقد ورد فى ابن عذارى فى وصفه ما يأتى :

« كان الامير محمد فصيحا بليغا عظيم الاناة ، يؤثر الحق وأهله ، لا يسمع من باغ ، ولا يلتفت إلى قول زائغ ، وكان عاقلا ، على أخلاق جميلة ، ومكارم حميدة ، وذا بديهة وروية ، وفيا لمواليه فى أنفسهم وفى أعقابهم ، لا يكدح عنده فى شيء من أحدهم فيسمعه أو يسمعه ، وكان محبوبا فى جميع البلدان »

الفصل الثانى

المنذر بن محمد (٢٧٣ — ٢٧٥ هـ) (٨٨٦ — ٨٨٨ م)

تولى امارة الاندلس بعد وفاة أبيه ولقد كان يحارب بن حفصون عند ما بلغه خبر الوفاة . فترك ميدان الحرب وأسرع بالعودة إلى قرطبة ليتولى شئون البلاد ؛ ولم تطل مدته بل قام بأعباء الملك نحو سنتين قتل فى أثناءها وزير أبيه هاشم بن عبد العزيز فى شوال سنة ٢٧٣ هـ . وقاتل ابن حفصون وأنصاره ومات وهو يحاصره فى سنة ٢٧٥ هـ

وقد اختلف المؤرخون فى حوادث المنذر اختلافا شديدا فمنهم من قال ان قتاله لابن حفصون كان فى الجنوب ، وان هذا خدعه وأخذ منه مائة بغل فى أول حصاره لقلعته ، ومنهم من قال إن القتال كان فى الشمال ، وان ابن حفصون خدع هاشما وهو يحاصره فى طليطلة واخذ منه البغال ، وان المنذر قتل وهو يقاتل أنصار ابن حفصون فى قلاعهم على شواطىء نهر التاجة ، وكان أخوه عبد الله يحاصر طليطلة

وذكر دوزى : ان المنذر بعد ان عاد من الحامة الى قرطبة لوفاة ابيه اغتنم عمر ابن حفصون الفرصة ووسع سلطانه ، وعادا أصحاب الحصون التى بينه و بين الجنوب إلى طاعته ، فأجابوه الى ما طلب ، واصبح بذلك الملك الحقيق للجنوب ، ولكن المنذر قاومه مقاومة عنيفة ، وارسل اليه الجنود وطارده مطاردة شديدة ، واصبحت اقاليم قبرة والبيرة وجيان ميادين حروب دموية بين الطرفين تعاقب فيها النصر

والخذلان لكل منهما ، وفى عام ٨٨٨ م خرج المنذر بنفسه لملاقاة الثوار ، واستولى على الحصون وخرب ضواحى بيشتر وحاصر ارشدونه ، وكان فيها عيشون احد قواد ابن حفصون ، وكان مشهورا بالشجاعة وقوة البأس والاقدام يثق بنفسه فى القتال إلى حد بعيد ، فحاربه المنذر حربا عوانا ، وأخيرا احتال على أسره بواسطة جماعة من أنصاره ، ولما أسر وقدم إلى المنذر صلبه وجعل على يمينه خنزيرا وعلى يساره كلبا محققا بذلك الطريقة التى رسمها لنفسه قبل أسره ، إذ كان يقول إذا ظفر بى السلطان فليصلبنى ويصلب على يمينى خنزيرا وعلى يسارى كلبا

استولى المنذر بعد ذلك على أرشدونة ثم فتح حصون بنى مطروح بجبل باغه ، ثم تقدم لحصار حصن بيشتر ، وضيق الخناق على ابن حفصون ولما لم يجد الثائر بدا طلب الصلح من المنذر على أن ينتقل هو وأهله إلى قرطبة ، وينتظم هو فى سلك الجندية لخدمة الأمير ، فأجابه المنذر الى ما طلب ، وحضر الثائر أمام الأمير والتمس منه أن يبعث الى بيشتر بمائة بغل ليحمل عليها أثقاله الى قرطبة ، وأمر المنذر بارسال البغال تحرسها قوة الى بيشتر ، ولكن عمر غافل الحراس واستولى على البغال وقتل عددا كبيرا من الجند وعاد الى عصيانه ، ولما بلغ المنذر خبر غدر الثائر أقسم أن يخرج لحصاره والقضاء عليه ، ونفذ قسمه ولكنه مات فى أواخر يونيو سنة ٨٨٨ م منتصف صفر عام ٢٧٥ هـ قبل أن يقهر الثائر

وفى رواية أخرى ان المنذر كان يحارب ابن حفصون ويطارده فى كل مكان واستمر القتال بينهما أكثر من سنة ، وان شجاعة المنذر وحميته دفعته ان يلقى

بنفسه وفئة قليلة بين أعدائه الكثيرين ، وقاتلهم بشجاعة فائقة حتى قتل منهم عددا كبيرا ، ولكن الثوار أحدقوا به و بفرسانه وأصابوه بعدة رماح ، فسقط صريعا فى ميدان القتال وكان ذلك فى صفر ٢٧٥ ﻫ

وفى رواية ثالثة أن المنذر مات مسموما بايعاز من اخيه عبد الله الذى أغرى طبيبه بفصده بسلاح مسموم، و بموته فقدت الأندلس قائدا جريئا وجنديا مدربا، ولقد اجمع مؤرخو الأمويين انه لو عاش سنة زائدة لاضطر عصاة الجنوب الى القاء السلاح ، واعلان الخضوع لأمير قرطبة

الفصل الثالث

عبدالله بن محمد (٢٧٥ — ٣٠٠ هـ — ٨٨٨ — ٩١٢ م)

صعد على كرسى الامارة بعد وفاة أخيه ، وكان فى الخامسة والأربعين من عمره ، وقد ذكر المؤرخون أنه لما علم بوفاة أخيه أسرع إلى أخذ البيعة لنفسه ، ثم سار بجثة أخيه إلى قرطبه ولكن الجند فى الطريق انفضوا من حوله فرارا من أهوال القتال فوصل بجثة أخيه إلى قرطبة وليس معه أكثر من ٤٠ فارسا ، وتولى الامارة فى ظروف سيئة تنذر بأفول نجم بنى أمية فى الأندلس ، واشراف دولتهم على هاوية الخراب والانحلال ، إذ لم تعد الثورة قاصرة على ابن حفصون والاسبان المولودين منهم والمسيحين ، بل عمت جميع الجهات ، وأصبح العرب أنفسهم يتطلعون إلى الانفصال و يفكرون فى الاستقلال عن امارة قرطبة ، وثارت العصبيات من جديد ، ولم يكن هناك بد من مصالحة أحد الفريقين ، الاسبان أو أمراء العرب فاختار عبدالله أن يصالح الاسبان ، وتقرب الى ابن مروان واعترف باستقلال مقاطعة ريجيو على ان يظل ابن حفصون مواليا له ، ونجحت هذه الخطة أول الأمر ولكن ابن حفصون لم يلبث أن عاد إلى عدائه ، وأطلق جنده ينهبون القرى والمدائن حتى وصلوا إلى أسوار قرطبة ذاتها ، فاحفظت هذه السياسة الخرقاء امراء العرب الذين رأوا استحالة موالاة من حالف أعداءهم الاسبان ، وتقرب اليهم على حسابهم ، ومع ان العرب كانوا أقلية ممتازة يحيط بهم خصوم ألداء من الاسبانيين والبربر يفوقونهم فى العدد ، فانهم نسوا مايستوجبه حراجة موقفهم من ضرورة الالتفاف حول عرش الأمارة فى قرطبة ، فقاموا ضدها وأسسوا إمارة فى أشبيلية على رأسها

ابن الأمير المسمى محمدا وأصبحت تنافس امارة قرطبة ، وشاركهم البربر فى سخطهم واستيائهم . وانتهز الجميع فرصة ضعف الامير وسوء سياسته للاستقلال عنه وقطع الصلة به ، فارتبكت أحوال الاندلس ارتباكا شديدا إذ أصبح ميدانا للمعارك ومنازعات القبائل الفاتحة وغيرها ، فان رؤساء الاقاليم أتخذوا سريان الفتن والشقاق بين الاسرة المالكة وسيلة لنيل استقلالهم والعمل على استئصال الدولة الاموية من اسبانيا واليك البيان :

أولا : النزاع بين العرب والاسبان فى البيرة :

كان الاسبانيون هم السواد الأعظم من سكان مدينة الفيرا على مقربة من غرناطة . أما العرب فكانوا أقلية تنزل نفسها منزلة ممتازة . وتتعالى على الاسبانيين من اعتنق الاسلام منهم ومن بقى على دينه . فكثر التصادم بين العنصرين وفى عصر عبدالله كان الاسبانيون من أهل البيرة فى نزاع دموى عنيف مع مواطنيهم العرب الذين كانوا إذ ذاك يجاهرون السلطان بالعداء ، وقد أمروا عليهم زعيما اسمه يحيى بن صقالة من بنى قيس . وغلب العرب على أمرهم فى هذا الصراع الذى تجمعت عليهم فيه جموع الاسبان من مولدين ومسيحيين ، فسقطت حصونهم فى أيدى الاسبانيين ، ولما صالحوا أعداءهم غدر بهم هؤلاء مما زاد الطين بلة أن تجددت بين العرب الحزازات ، وتفرقت كلمتهم ، فهاجم اليمانيون بنى معد ، وبعد أن أدركا سوء المنقلب تصالح الفريقان ورضيا بزعامة قيسى اسمه سوار بن حمدون وكان عدوا لدودا للسورين فى قرطبة ، فاسترد لهم حصونهم ، ولولاه لاستئصلت شأفة العرب ، وبدأ يجمع كلمة العرب . ثم استرد ما كان لهم من حصون شمال غرناطة . وقتل ستة آلاف من الاسبانيين ، وتتابعت انتصاراته فكان لا يترك

أحدا من الاعداء يفلت من يده بل حاربهم حرب ابادة وفناء فاستنجدوا بجاد أمير الفيرة (البيرة) ووعدوه بالدخول فى طاعته . فسار لنصرتهم ولما التقى الجمعان كان النصر حليف سوار ، وهرب الأعداء لاجئين إلى أسوار البيرة وقتل منهم ٧٠٠٠ وأوقع جادا سيرا وتسمى هذه الموقعة موقعة جاد ، وقد فرح العرب بما أتوا من نصر ، وحالف سوار اهل ريجيو وجيان وغيرهما مما جعل الامير عبد الله بن محمد يتقرب اليه ، ويعرض عليه امارة البيرة ، وقبل سوار الامارة وصالح الاسبانيين . وعند ذلك فكر سوار فى اخضاع ابن حفصون ، ولكن الاسبانيين عادوا إلى امتشاق الحسام لابادة خصومهم والتخلص من قسوتهم وظلمهم ، فهاجموا العرب من كل ناحية واضطروهم إلى الالتجاء إلى حصن الحمراء بغرناطة ، وظل الحصن يتلقفه فريق بعد الآخر حتى انتهى الامر إلى تضييق الاسبانيين الحصار على العرب فيه ، ولما رأى سوار أن البقاء فى داخل الحصن معناه الموت جوعا خرج بجموعه وهاجم الاسبانيين بعنف شديد ، فاضطروا إلى الفرار ، وتبعهم العرب فأفنوا منهم اثنى عشر الفا وطاردوهم إلى أسوار البيرة

واضطر الاسبانيون فى ساعة يأس إلى الاستنجاد بمواطنهم عمر بن حفصون الذى كان على مقربة منهم فدخل البيرة ونظم جيشها وجمع شمله ، ثم خرج للقاء سوار وكان هذا قد استنفر عرب ريجيو وجيان فلما التقى بعمر هزمه واضطره إلى الفرار ، ولكن سوارا وقع بعد ذلك فى كمين نصبه له أهل البيرة وقتل ثم حملت جثته إلى البيرة حيث قطعت نساؤها جسده وأكلنه أكلا انتقاما لازواجهن وابنائهن الذين صرعهم فى حروبه ومعاركه . واختار العرب من بعده سعيد بن جودى أنبل قومه محتدا ، وأعظمهم شهامة وفروسية وأوفرهم كرامة وبسالة ، وأكرمهم خلقا وكان شاعرا فصيحا وفارسا مغوارا وكان ابن حفصون يرهبه ويخشى نزاله ، وقد

استطاع العرب تحت رياسته أن يستولوا على البيرة .

ثانيا : ثورة أشبيلية:

فى اثناء الصراع بين الاسبانيين والعرب فى البيرة كانت تجرى أحداث على اعظم جانب من الخطورة فى اشبيلية ، تلك المدينة القديمة العريقة فى الحضارة القوطية ، وموطن اعرق الاسر ، اوسعها غنى وجاها . وكان معظم اهلها من الاسبان نسل القوط والرومان لم يدخلوا فى الاسلام إلا حديثا على عهد عبد الرحمن الثانى ولذا ظلوا محتفظين بعاداتهم واسمائهم القديمة ، فكان منهم بنو انجيلو و بنو ساباريكو ، وتخلق بأخلاقهم من خالطهم من العرب ، وساروا فى طريق تمدينهم وكان بلدهم ثغرا من اهم ثغور الاندلس ، والتجارة والزراعة مصدر ارزاقهم والامن مخيم بجناحيه فوق مدينتهم ، والناس مسالمون بطبيعتهم ، وعلاقتهم بأمير الاندلس على اتم صفاء وولاء إذ كان فى نظرهم حاميهم من الفتن والحروب والعدوان ، وكان جيرانهم من العرب المشاغبين يحسدونهم على سعة ثرائهم ورخاء عيشهم ، وينطلعون إلى الاغارة على مدينتهم ونهبها ، وكان الاشبيليون يتوقعون ذلك منهم . فكانوا يحتاطون خشية ان يؤخذوا على غرة ، وكان اهم بيوتات العرب فى الاقليم المجاور لاشبيلية بنو حجاج وبنو خلدون . اما بنو حجاج فهم وان كانوا عربا إلا انهم من نسل عمر اللخمى وزوجته سارا حفيدة غيطشه . وكان بنو خلدون من سلالة يمنية وزعيمهم يسمى كريب يكره أمير الأندلس ، ويود لو استقل باشبيلية ، فرأى ان ينتزع ثورتها وأخذ يحدث العرب من أهلها عن الحرية ، ولكنهم كانوا جميعا من قريش ومن موالى الأمويين فلم يلتفتوا لأقواله ، وفضلوا حكم بنى أمية على الفوضى التى

يحدثهم عنها كريب ، فاتجه بجهوده إلى عرب البادية وعرب المغرب (البربر) في قرمونة ، ومناهم بنهب اشبيلية ، والاستيلاء على ثروتها الهائلة فاتى منهم سميعا ، وأغاروا على اشبيلية التى كان يسيل لعابهم لنهبها ، ويتحرقون شوقا لقتل أهلها وسبي نسائها ، ولما قابلهم حاكم المدينة هزموه وخربوا ضواحي اشبيلية وعادوا إلى ديارهم بماردة مثقلين بالغنائم والاسلاب ، ولما علم ابن مروان امير بطليوس بما غنمه البربر زحف هو ايضا على اشبيلية ونهب ضواحيها ، عندئذ اشتكى أهل اشبيليه الى الأمير عبد الله تقاعس حاكمهم عن الدفاع عنهم فغيره ، ولكن خلفه لم يكن بأحسن منه ، فازدادت الفوضى وكثر الغزو والسطو ، وأخيراً قام محمد ابن غالب من المولدين و بنى حصنا فى مدخل اشبيلية وشحنه بالمقاتلة ، وصد المغيرين عنها ، وقتل أحد بنى حجاج فشكوه إلى أمير الأندلس ، فأرسل عبد الله ابنه محمدا ولى عهد الامارة للفصل بينهما ، فحكم لصالح ابن غالب فغضب بنو حجاج وأسرع كريب إلى الاستيلاء على قرمونة وما جاورها ، فارتبك محمد وأرسل الى أبيه عبد الله يطلب المشورة منه ، فقر رأيه على ارسال مولاه جاد ، الذى كان سوار قد اطلق سراحه ، بجنود الى اشبيلية لقتال ابن غالب واقناع بنى حجاج والعرب والبربر بالخضوع للامارة ، فأتم جاد مهمته . ولكن هذا الغدر الشنيع بمن اخلص الولاء للامير والتقرب بدمه الى خصومه واعدائه الالداء إلانة لقلوبهم وتقليبا لاظفار ضغنهم كان عملا من اعمال الحماقة منقطع النظير ، وترتب عليه ثورة المولدين فى اشبيلية انتقاما لابن غالب واصرارهم على قتل أمية حاكم اشبيلية واخى جاد ، فهاجموا قصره ، واجبروه على الالتجاء الى قصر الأمير محمد ، وأحاط الثوار بقصر الأمير وهاجموا حماته ، ولكن جادا اسرع بجنده وفرسانه لنجدة اخيه وقامت حرب طاحنة سالت فيها الدماء انهارا وانتهت بهزيمة الثوار ، واعمل

جاد وجنده السيف فى رقاب اهل اشبيلية المولدين ، ونهبوا متاجرهم ودورهم ، والقوا بجثثهم فى الوادى الكبير . وخشى جاد على نفسه فانضم الى اخيه امية ، ولكن احد اخوة ابن غالب قتل جادا غيلة اخذا بثأر أخيه ، وفخر شعراء اليمن بهذا الانتصار ، وانتفع بنو حجاج و بنو خلدون وحدهم بهزيمة مولدى اشبيلية فأصبحوا سادة هذه المدينة ، وفشلت جهود امية فى الايقاع بينهم ، وقاتلوه حتى قتل، واستقل باشبيلية ابراهيم بن الحجاج وكريب ٨٩١ م وهى السنة الرابعة لولاية عبد الله بن محمد ، وفيها خلع جميع الأمراء المولدين والعرب والبربر طاعة عبدالله ، واستقل كل بما تحت يده من تراث الدولة الأموية ، وكان الأمراء العرب اقل الجميع نصيبا ولم تكن لهم شوكة ظاهرة الا فى اشبيلية ، اما فيما عداها فقد كانوا يحاولون الاحتفاظ بمراكزهم ضد العنصرين الآخرين

واحس الكثيرون امراء العرب بضعفهم فلم يجاهروا بالعداء للأمير بل ظلوا متظاهرين بالولاء ينفذون من اوامره كلما كان يحلوا لهم ذلك .

ثالثا — فتنة البربر:

توصل البربر كذلك وسط هذه الفوضى الى تأسيس دويلات مستقلة ، فاستقل الملاحى بجيان ، واستقل ابن تاكيت بماردة ، وحارب ابن مروان امير بطليوس وكانت اسرة بنى ذى النون وزعيمها موسى و بنوه يحيى وفتح والمطرف تعيث فى الارض فسادا وخاصة فى بلاد البرتغال

واستقل فى اقليم الجرف بجنوب بلاد البرتغال بكر بن يحيى من اصل اسبانى وان اعترف بالولاء لحكومة قرطبه

رابعا — ابن حفصون :

ولكن ابن حفصون كان ألد أعداء الأمير عبد الله فقد ضم اليه سعيد بن مستنه الثائر على عبد الله بن محمد ، وأكثر من الاغارة على القرى المحيطة بقرطبة واجتاح جنوب الأندلس ، وعاث فيها فسادا ونهبا واحراقا ، وأصبح سيد البلاد الواقعة جنوب نهر الوادى الكبير ، وأخذ يمنى نفسه بالاستيلاء على قرطبة ذاتها ، وكان يوقن بنصرة الاسبان له ، ووسط ابن الأغلب حاكم أفريقية فى الحصول على أمر من الخليفة العباسى بولايته على الأندلس ، ووجد فى نصارى قرطبة أعوانا له وحلفاء ، فقد مضى الزمن الذى كانوا يظهرون فيه مقتهم لمستعبديهم بالاقدام على الاستشهاد ، وآن أوان القيام بدور إيجابى فى تحرير أنفسهم و بلادهم من نير المسلمين ، فانضم اليهم خدام الأمير مثل الكونت سرفاندوا الذى كان يمقته القسس لشدة وطأته عليهم فى فرض الضرائب وتعريضه عظام القديسين لسخرية المسلمين ، و بدأ يقلب ظهر المجن للامير و يداهن بنى جلدته ، و يأتمر معهم على الثورة ، ولما اكتشف أمره هرب لاجئا إلى ابن حفصون وكان هذا يقيم فى أستيجه على مقربة من قرطبة

وآل الأمر بقرطبة ان أصبحت محصورة من كل جانب ، لا ينام أهلها إلا غرارا ، و يروعون فى منامهم بصياح القتلى على الضفة الأخرى من النهر ، وأصبحت عرضة للسلب والسبى وضاعت مهابة أميرها . واستطال عليه جنده وطالبوه بمؤخر رواتبهم ، وأصبحت خزينته خاوية على عروشها ، وأقترض من الاغنياء مالا يمد به الموالين له من أمراء العرب ، وقلت الاقوات فيها وزاد الغلاء وعم البلاء ، وأصبح لا محيص عن تمزق ملك عبد الرحمن الداخل وسقوط دولة بنى

أمية فى الاندلس ، وكان أتعس الناس حالا أميرهم عبد الله ، إذ أراه الله عاقبة بغيه وقتله أخيه ولقد أجهد نفسه فى استرضاء ابن حفصون ، ولكن أنى يرضى صاحب المطامع بمعسول اللفظ وناعم القول ، وأخيرا أعياه اليأس ونال منه الجهد فاعتزل الملك وأقام فى صومعة زاهدا متنسكا يكتب أشعار الزهد واستمر على هذا حتى صحت عزيمته على أن يموت فى ساحة القتال موت الاشراف

بدء الانقلاب :

تحرك عبدالله ومعه ١٨ ألفاً. وكانت جنود ابن حفصون ٣٠ ألفا ، و بدأ القتال بمناوشة صغيرة على مقربة من قرطبة انتصر فيها السلطان ، ثم زحف عبدالله بعدها على حصن بولى وكر ابن حفصون ٨٩١ م ، فدافع عنه ابن حفصون وحمى وطيس المعركة وقاتل فيها عبدالله بنفسه بين جنوده ، وتراجع أحد قواده عبد الملك بن أمية وكاد عبدالله يفر منهزما لولا أن تقدم اليه قائد اسمه عبيد الله فثبته ، وقال له إلى أين المفر يا أمير ، أتجعل ظهورنا نحو العدو فينقض علينا و يقطعنا قطعا ، تقدم ، و يفعل الله مايريد ، وان ينصركم الله فلاغالب لكم ، فحمل عبدالله بجنده حملة عنيفة وهزمت جنود بن حفصون ، وفر هاربا إلى حصن (ببشتر) ، وسقط حصن بولى فى يد عبد الله ، وغنم جنده غنائم كثيرة ، وسيق اليه الأسرى ، فعفا عن المسلمين وعرض الاسلام على المسيحيين وكانوا ألفا ، فلما أبوا قبوله أمر بهم فضربت أعناقهم وطارد ابن حفصون ، ولكن جنده ملوا القتال فعادوا إلى قرطبة .

ولولا انتصار عبد الله فى موقعة بولى لسقطت دولة بنى أمية ، فبهذا الانتصار رجع للسلطان مقامه الأول وعاد إلى طاعته بولى واستجه وأرشدونه والبيرة

وجيان ، وانكسرت شوكة ابن حفصون ، وحصل انقلاب فى الرأى العام ، ورأى الناس فى أنحاء الاندلس أن السلام فى طاعة السلطان وترك الفوضى .

على أن بن حفصون انتهز فرصة الهدنة ، وأخذ يغير على أملاك السلطان حتى استرد ما كان قد فقده ماعدا البيرة التى استطاع السلطان انتزاعها منه والتفت عبدالله بعد ما تنفس الصعداء إلى الأمراء الثائرين عليه ، فاخذ يسوق اليهم الجيوش كل سنة . حتى أجبر كثيرا منهم على دفع الجزية ، وبهذه الطريقة استطاع أن يعمر خزائنه الخاوية ، ولكن ابراهيم بن الحجاج أمير أشبيلية استاء مما فرضه عليه عبد الله من جزية باهظة فتحالف مع ابن حفصون (٩٠٠م) الذى كان قد ارتد عن الاسلام واعتنق النصرانية ، هو وذوى قرباه (٨٩٩م) وكان من قبل يخفيها خداعا ، فانصرفت قلوب المسلمين من أنصاره عنه وناصبوه العداء ، ومع هذا دخل ابراهيم بن الحجاج فى حلف معه ، واسترد ابن حفصون قوته الأولى بهذا الحلف ، فهاجم قرطبة ليلا ولكنه هزم ، وردته كتائب ابن أبى عبدة قائد عبد الله ، ورأى الأمير نفسه بعد كل هذا فى حل من قتل رهائن ابن حفصون ، ولكنه عفا عن ابراهيم بن الحجاج استعادة لولائه ، فتأثر ابراهيم بهذا العفو وظل مقيما بعد ذلك على الولاء ، وواظب على دفع الجزية ، وكان يرسل كتيبة سنوية إلى جيش عبد الله كما كان يفعل أمراء الاقطاع فى تلك العصور ، على أنه مع ذلك ظل مستقلا فى اشبيلية ، وحكمها حكما عادلا ، فنشر الأمن ، وأقام العدل ، وناصر العلماء والأدباء ، وقوى الجيش واستقدم المغنيات من بغداد والمشرق ، وأشهرهن قمر ، وتقدمت التجارة وزاد الثراء فى عصره ، وكان بلاطه منتجع الشعراء والعلماء من قرطبة ، وبسم الدهر لعبد الله بعد تجهمه ، فخضع له غرب الاندلس بعد طول تحديه ، وواظب على دفع الجزية كما أفلح عبد الله فى

اخضاع الجنوب ٩٠٣—٩١٠ م ، وخضع له الشمال ؛ وكذلك دخل لوب بن محمد أمير سرقسطه فى طاعته ، واستمر على الولاء أخوه عبد الله من بعده ، وجدّت أمارة سرقسطه فى مجاهدة المسيحيين فى أقاليم نافارة و برشلونة وليون

فتح العرب مغامرين لاقليم بروفنس والرفيرا :

من أغرب ما حدث على عهد عبد الله بن محمد من أحداث جسام أن خرج جماعة من العرب مغامرين يدفعهم حب الفتح إلى جنوب فرنسا ، واجتاحوا إقليم بروفنس ودوفينى ، واحتلوا نيس ومرسليا ، وعبروا جبال سينيس ٩٠٦ م ، واحتلوا بيد مونت وليغوريا (شمال ايطاليا) وجزءا من سويسرا حتى بحيرة كنستانس ، وهناك أقاموا مستعمرة نزلوا فيها ، وفعلوا كل هذه العظائم غير مسوقين من سلطان ولا أمير ، مما لم نسمع بمثله إلا فى دور الاستعمار من تاريخ أوروبا الحديث وقد سرد الامير شكيب ارسلان فى كتابه « تاريخ غزوات العرب » شيئا كثيرا عن تاريخ هذه الغزوة فأرجع اليه

وفاة عبد الله :

وتوفى عبد الله فى ربيع أول ٣٠٠ هـ ١٥ اكتوبر ٩١٢ م ، وعمره ٦٨ سنة بعد حكم طويل شهد فيه أحداثا جساما . وأهوالا شداداً ، فيه أشرفت الدولة الاموية على البوار ، وقاربت إلى الزوال ، على أنها شهدت من بعده استردادا لقواها ، ونهوضا عاجلا من كبوتها فى عصر خلفه عبد الرحمن الثالث (الناصر)

الباب الرابع

عصر العرب الذهبي بالاندلس

الفصل الأول

عبد الرحمن الثالث (الناصر لدين الله)

(٣٠٠ — ٣٥٠ هـ — ٩١٢ — ٩٦١ م)

اعتلى عبد الرحمن عرش البلاد بعد وفاة جده وهو ابن محمد ابن الامير عبدالله الذى قتل فى ريعان شبابه بسبب خروجه على الامير كما مر بنا ، وامه مسيحية تسمى مريم او مزنة ، وقد عنى جده بتربيته فى القصر ، وكان يحبه ويؤثره على بقيه حتى بلغ اشده ، فكان يرشحه لولاية الامر بعده ، ويقيمه احيانا مقـامه لاسـتقبال الجنود والزوار ، ثم أوصى بولاية العهد له امام الامراء وولاة الأقاليم فالتفت حوله قلوب الرعية ، واحبه الناس لجمال سجاياه الفطرية ، وكمال مزاياه الـكسبية

يقول كندى « قد احسن مربوه تربيته منذ نعومة اظفاره ، فأقرأوه القرآن ولما بلغ الثامنة علموه السنة والنحو والشعر والامثال ، وتاريخ حياة الملوك وسياسة الملك ، وعلوما اخرى اجتماعية ، ثم علموه ركوب الخيل وفن الحرب وضروب الفروسية عند ما اخذ يخطو فى الحادية عشرة

جلس عبد الرحمن على كرسى الامارة وهو فى السنة الثانية والعشرين من

عمره ، ولم ينـازعه الحـكم أحد من أعمامه ولا أعمام أبيه بل بايعه الجميع ، وقابل الشعب جلوسه بابتهاج منقطع النظير ، ووافق يوم توليته الملك يوم الخميس مستهل ربيع الاول سنة ٣٠٠ هـ (١٥ اكتوبر سنة ٩١٢ م) وفى ذلك اليوم يقول احمد ابن عبد ربه من قصيدة

بدا الهلال جديدا والملك غض جديد
يانعمة الله زيدى ان كان فيك مزيد
ان كان للصوم فطر فأنت للدهر عيد

سياسته الداخلية :

جعل سياسته من بداية أمره مقامة على الصراحة والجرأة والثبات ، وعدل عن سياسة الوفاق والتردد التى اتبعها أجداده فى معاملة الثائرين والعصاة ، وأرسل إلى حكام الأقاليم الخارجين على قرطبة أن يسلموا حصونهم وبلدانهم ويعلنوا خضوعهم وطاعتهم ، ووعد من أسرع إلى الطاعة العفو ، وتوعد من يتردد من الانتقـام ، وكان يبدو أول الامر ان هذه الخطة ستجر عليه تساند أعدائه وتحالفهم ضده لصد هجماته ، ولـكن لم يحدث شىء من ذلك بسبب خلو البلاد من زعمائها الذين قادوا الثورة فى أول انفجارها ، وكانوا زعماء محنكين وقادة قادرين ، فبعد سعيد بن جودى وكريب وابن خلدون وابراهيم بن الحجاج لم يكن هناك من يخلفهم ويملأ الفراغ الذى خلفوه ، أما زعماء المولدين من الاسبانيين فكانوا قد بلغوا من الـكبر عتيا وهدت الشيخوخة كيانهم ، وأصبح الشعب زاهدا فى تسيطرهم على شئونه راغبا عن قيادتهم ، يتوق إلى وضع حد للفتن والفوضى لتجنب ويلات الحرب الأهلية وماجرته من خراب ودمار ، وفت فى عضده ماشهده من تبدل الحال وثبات عرش

السلطان على كافة النير واحداث الزمن ، فأخلد إلى السكينة وأعلن ولاءه للسلطان فسلمت غرناطة والبيرة ، وسقطت جيان واستسلمت أرقيدونه ، وهنا يعترف المؤرخون المسيحيون بأن عبد الرحمن الثالث عامل المستسلمين من المسيحيين بكل انصاف وعدالة

وامتنع الجبليون عن الانضواء تحت لواء ابن حفصون ، فاضطر إلى استئجار الجند المرتزقة من بربر طنجة ، وهؤلاء كانوا دائما على استعداد للتسلل من صفوف القتال إلى صفوف الأعداء نظير رشوة أو زيادة أجر ، ولما كان مثل هؤلاء الاعوان لايصح الركون اليهم ، ولما كان هذا غير خاف على ابن حفصون فانا نراه فى مستهل ٩٠٩ م يعترف بسيادة عبيد الله الشيعى (سعيد بن عبد الله القداح) وكان هذا ينازع بنى الاغلب السيادة على بلاد البربر ، هذا إلى ما آل اليه الاسبان فى منطقة غرناطة وحول البيرة وجيان من تدهور خلقى وانحطاط ، فقد انقلبوا من طلاب حرية واستقلال إلى قطاع طرق وخوارج على كل قانون ينقضون كالنسور على كل عابر مهما كان دينه ومعتقداته ، وينهبون الصديق والعدو بلا فارق ، فعم السخط عليهم وتطلع الكل إلى السلطان يبتغون أن يخلصهم من شرور هذه العصابات ، وكان ابن حفصون أول الأمر معدودا كزعيم سياسى ينضوى تحت لوائه كل اسبانى مسلما كان أو مسيحيا ، أما بعد أن ارتد عن الاسلام هو وحليفه الاكبر ابن مستنه و بنى الكنائس الفخمة فقد أصبح صموئيل أو ابن حفصون كما سمى نفسه لايثق إلا بالمسيحيين ، وأصبح وكره (حصن بيشتر) بؤرة التعصب ، واندمجت ابنته أرجنتينا فى زمرة الراهبات ، وكان هذا نذيرا بانقسام أنصاره على أنفسهم وقيام النزاع بين المسيحيين والمسلمين منهم

و بدأت أستجة بالتسليم ليد حاجب عبد الرحمن فى ٣١ ديسمبر ٩١٢ م بعد

ارتقائه العرش بشهرين ، وقاد عبد الرحمن بعد ذلك جنده بنفسه فنفث ذلك فيهم روح الاستبسال ، فارسل كتيبة من جنده إلى أرقيدونة وأخضع هو سعيد بن هذيل فى قصره ، وكان محالفا لصموئيل . وتقاطر أمراء القصور يستسلمون و ينزلون عن حصونهم لعبد الرحمن . فكان يرسلهم وعيالهم إلى قرطبة و ينصب العمال بدلا منهم . وسلمت اليه مقاطعة البيرة . فسار منها إلى منطقة جبال سيرا نفادا . وصد هجوم صموئيل على مدينة البيرة .

وهكذا استطاع فى شهرين أن يؤمن أهل غرناطة والبيرة على أنفسهم من شرور الأمراء السلابين ، وأن يخضع المسيحيين الثائرين . ثم فكر عبد الرحمن فى أشبيلية ، وكان هناك نزاع حول إمارتها بعد وفاة ابراهيم بن حجاج ، فذهب محمد بن حجاج إلى قرطبة واعترف بخلافة عبد الرحمن ، وكان صموئيل يمنى نفسه بالدخول فى النزاع واختطاف جزء من الغنيمة فزحف على أشبيلية ولكن عبد الرحمن هزمه فارتد الى بيشتر .

اخضاع ريه (ريجيو)

وعزم عبد الرحمن على الزحف على ريه (ريجيو) ففتح حصونها ، واستأمنه أهلها فأمنهم . ولم يبق أمامه إلا حصن طرش وكان فيه ابن حفصون نفسه (صموئيل) ، وما كان هذا يتوقع أن يفوز عبد الرحمن سريعا فى تلك البقاع ، لأن صموئيل قد نشر فيها لواء العصيان ونفخ فى أرجائها روح النصرانية حتى كاد ظل الاسلام يتقلص من بوعها ، لكن سهل فوز عبد الرحمن ما شهده فيه نصارى اسبانيا من معاملة رعاياه بالحسنى والعدل ، ومراعاة العهود والمواثيق ، وتخفيفه للضرائب والمغارم التى طالما أرهقت الأهلين ، واستولى أسطوله على سفن ابن

حفصون التي كانت تنقل الأقوات والجند المرتزقة من أفريقية

ورأى صموئيل نفسه مغلوبا على أمره ففر إلى أفريقية علّه يجد فيها جندا يجمعهم فيزحف بهم لاسترداد بلاده ؛ وسار عبد الرحمن إلى قرمونه فاخضع ثورة شبت فيها ، ومر فى طريقه بالجزيرة الخضراء ثم شدونه قبل دخول قرمونه فى يونيه ٩١٤ م

وفى تلك السنة حل بالأندلس قحط مريع أودى بحياة الألوف من أهل قرطبه ، وكلت سواعد أهلها عن دفن الموتى فخفف عبد الرحمن من مصاب الناس وأكثر من الصدقات ، وكف عن الغزو تلك السنة ، ولم يلبث صموئيل أن توفى ٩١٧ م ، وطوى الموت شخصية قويه طالما أرهبت جنوب الاندلس ، ونفخت فيه روح الثورة وحب الاستقلال.

عبد الرحمن سيد البلاد :

تم الأمر لعبد الرحمن بموت ابن حفصون ، وتخلص من شر خصم وألد عدو. وكان لابن حفصون أربعة أولاد : جعفر وسليمان وعبد الرحمن وحفص و بنت هى أرجنتيا سابقة الذكر فاستسلم أحدهم حفص ودخل فى خدمة الخليفة ، أما اخوته الثلاثة فقد ظلوا يناوئون عبد الرحمن الواحد بعد الآخر ، وسعوا فى إتمام مابدأه أبوهم من تحرير الوطن الاسبانى ، ولكنهم غلبوا على أمرهم ، وسقط حصن بيشتر وكر تلك العصابة ٩٢٨ م فاغرى الفقهاء الخليفة بنبش قبر صموئيل وابنه جعفر وأرسلت جثتاهما إلى قرطبة حيث صلبتا منكستين ، وضربت عنق الفتاة لأنها رفضت العود إلى الاسلام ، وأتم عبد الرحمن إخضاع الجهات الثائرة ، فاخضع بنى المهلب من البربر الثائرين فى البيرة ٩٢٤م وأخضع بلنسيه ، وفى ٩٢٦ م أخضع بنى ذى النون ، ورأى أن لاخوف حينئذ من الجنوب فوجه قواه إلى

جهات أخرى فاخضع تدمير وماردة و بطليوس معقل ابن مروان ، وكانت طليطلة ما أخضع ٩٣٢ م بعد حصار دام عامين ، وكان يمدها ملك ليون واستمر الحصار صيفا وشتاء ، و بنى عبد الرحمن حصنا اسمه الفتح تأوى اليه جنوده ، ثم شرع فى معالجة مساوىء الماضى ، فساوى بين المسلمين والمسيحيين ، وعمل على مزجهما ليكونا شعبا واحدا بلا اعتبار للفوارق الدينية أو الجنسية وفرح عبد الرحمن بهذا الفتح كفرحه بفتح مدينة بيشتر

وانتهت تلك الفتن بتوطيد دعائم الملكية وترسيخ نظمها ، ففازت بقهر أعدائها من العرب والبربر والاسبانيين نصارى ومولدين . وكان أمراء العرب وشيوخهم أكثر الثوار خسارة ، إذ فقدوا كل نفوذهم ، و بعد ان كانوا دعائم وأنصار تقييد السلطة الملكية أصبحوا ولا حيثية لهم فى الدولة ، ولا بأس لهم يخشى ، ولا سطوة تحسب الملكية لها حسابا ، وربما كان فى هذا بعض العزاء للاسبانيين الذين غلبتهم الملكية على أمرهم ، إذ انهم فى الواقع لم يثوروا بدافع الكراهية لشخص الملك بل كراهية للامراء من العرب الذين احتقروهم وأذلوهم وظلموهم

وأخيرا عمد عبد الرحمن إلى مزج عناصر المحكومين بلا فارق بينها فى الجنس والدين لتكوين شعب واحد وساوى بين جميع المحكومين ، وكان هذا فى حد ذاته كسبا للاسبانيين ، إذ لم يكونوا فى الحقيقة دعاة حرية فسيحة المدى ، فالحكم المطلق كان معروفا لديهم وقد ألفوه مدة حكم القوط والرومان

حروبه الخارجية :

لم تكن مشاغل عبد الرحمن قاصرة على اخماد الثورات الداخلية التى كانت تضطرم فى داخل ملكه ، بل زاد فى مشاغله ومتاعبه أطماع دولتين خارجتين

أحداهما قديمة فى الشمال وهى دولة ليون ، والأخرى حديثة فى الجنوب وهى الدولة الفاطمية

مملكة ليون :

أولا — فى أثناء الفوضى التى سادت بلاد الاندلس على عهد عبد الله بن محمد تشجع المسيحيون فى جليقية واستورقة وكانتا بريا تحت قيادة الفونس الأول وزحزحوا البربر جنوبا إلى مصب نهر دورو كما مر بنا ، وعاد الفونسو بعد ذلك إلى الشمال ، وظل البربر يتقهقرون بعد ذلك أمام هجمات مسيحى الشمال حتى أخلوا سلمنقه ، واصبح الحد الفاصل بينهم وبين المسلمين خط يصل بانبلونة ووادى الحجارة بطليطلة على نهر التاجة ٧٥١ — ٧٥٤ م ، ولما ثارت الفتن والاضطرابات على عهد عبد الله بن محمد أصبحت ليون زعيمة الشمال المسيحى ونصيرة نواره ، فأقامت الحصون المنيعة ، وزحفت مرة أخرى على المسلمين وزحزحتهم إلى نهر دورو ، وتحالفت ليون مع طليطلة ومع سانكو ملك نافار ، وأصبح المسلمون فى نظر المسيحيين غنيمة لا يمكن أن تفلت من أيديهم ، ودفعهم الغرور إلى التطلع نحو الجنوب وزحزحة المسلمين عنه حتى يلقوا بهم فى البحر من حيث أتوا ، وكان يزكى روح التعصب فيهم القسوس ، ولذا كانوا دائما قساة فى حروبهم ، وحوشاً فى مسلكهم مع سكان المدن من غير المحاربين لا يعرفون إلا الابادة والحرق والتخريب ، ولم يخطر لهم ببال قط أن يعاملوا المسلمين كما عاملوهم بالتسامح والحسنى. فماذا عسى يكون مصير الأندلس الاسلامية المتحضرة المزدهرة إذا سقطت فى أيدى هؤلاء الجهلاء المتعصبين الذين لا يعرفون النقود ، ويتجرون بالمبادلة ، ولا يعرفون القراءة والكتابة وان احتاجوا إلى مساح لأراضيهم لجأوا إلى المسلمين ، وإذا ذكرت مكتبة استعاذوا بالمسيح وعدوها رجسا من عمل الشيطان . لقد ألقى القدر

على عبد الرحمن عبء تأديب هؤلاء المتوحشين ، وانقاذ الحضارة الاسلامية من ويلاتهم ، وكان العبء فادحا حقا ، لأن الخليفة كان يجاهد الثوار من رعاياه وقت أن اضطرته الظروف إلى قمع مسيحى الشمال المتوحشين الذين ازدادوا قحة لما انسوه من ضعف الدوله الاسلامية وقرب انحلالها ، كما اضطرته الظروف ايضا إلى قمع برابرة افريقية المتوحشين الذين انقضوا على حلفاء الأندلس من أمراء المغرب واستولوا على أرجاء فسيحة فيها ، وظنوا بالأندلس الظنون ، وكانوا يعتقدون انها فى متناول أيديهم ، ولكن عبد الرحمن لم يضطرب ولم يتراجع أمام العبء الملقى عليه فأخضع رعاياه الثائرين ، ثم التفت إلى هؤلاء المتهجمين

ففى عام ٩١٤ م استولى اوردونو الثانى ملك ليون على حصن بجوار بطليوس وخرب مقاطعة ماردة ، وكان يقتل جميع الأسرى و يسبى كل النساء والاطفال وارتاع أهالى بطليوس فجمعوا مالا وفيرا وقدموه اليه ليرجع عن مدينتهم ، فعاد مثقلا بالاسلاب إلى ما وراء نهر الدورو ، وانشأ فى مدينة ليون كنيسة للعذراء ، ومع ان بطليوس كانت إذ ذاك ثائرة على عبد الرحمن فانه لم يتقاعس عن حمايتها من غارات المسيحيين ، فأرسل جيشا بقيادة ابن أبى عبده ٩١٦ م ، لتأديب المسيحيين فانتصر أول الأمر ، ولكن اوردونو هاجمه فهزمه هزيمة كبرى ، وفر من حوله جنوده البربر المرتزقة الذين جلبهم السلطان من طنجة والاسبانيون المولدون من أهل الثغور ذوى النفاق الذين لا يعتمد على ولائهم ، واختار ابن أبى عبده الثبات على الفرار ، فقاتل وحوله فريق من خاصته حتى قتل . ولم تفل هذه الهزيمة من عزيمة عبد الرحمن فأراد أن يسير بنفسه لقتال اوردونو ، ولكن غزوة الفاطميين لبلاد المغرب شغلته عن ذلك ، وخشى عبد الرحمن ان يولى الفاطميون وجوههم نحو اسبانيا ان تم لهم اخضاع بلاد المغرب ، فطفق يمد بالمساعدة امراء تلك البلاد

حتى يكون المغرب درءا لبلاد الاندلس ، فلما تغلب عبيدالله المهدى على افريقية كتب إلى سعيد بن صالح امير ناقور وهى مدينة بالمغرب على مقربة من البحر مكانها الآن مدينة المزمة — يدعوه إلى طاعته فرفض سعيد واحفظ هذا الرفض عبيد الله فسير قائده مصالة بن حبوس لحرب سعيد فهزم سعيد وقتل ٣٠٥ هـ وكان سعيد على احسن مودة مع الامويين بالاندلس . فدخل مصالة ناقور وقتل رجالها وسبى النساء والذرارى ، ونجا بنو سعيد لانهم فروا وركبوا البحر إلى الاندلس

ونزل الأمراء اللاجئون مالقة فأمر عبد الرحمن الناصر بالحفاوة بهم ، واختاروا البقاء فى مالقة ليكونوا على مقربة من مجرى الحوادث فى وطنهم ، وعلم بنو سعيد بعد ستة أشهر ان مصاله عاد إلى تاهرت وأقام بناقور قائدا من كتامة اسمه ذلول ، وان عسكر هذا القائد قد انفضوا من حوله ، وكان بنو سعيد ثلاثة : إدريس ، والمعتصم ، وصالح ، فامتطى كل منهم البحر فى سفينة فى ليلة واحدة ، واتفقوا على أن من يصل منهم إلى ناقور قبل أخويه يكون أميرا ، فسبق إلى الشاطىء أصغرهم وهو صالح بن سعيد فلاقاه الأهلون بحماسة شديدة ، والتفوا حوله وقتلوا ذلولا وجنده ، وأعلن الأمير صالح سيادة الخليفة الناصر على بلاده . وكتب إليه يشكره على حسن صنيعه مع أسرته ويطلب منه المعونة ، فأمده الخليفة بالأسلحة والخيام والرايات .

يقول دوزى : ألهت حوادث ناقور عبد الرحمن الناصر عن أن يقتص من مملكة ليون المسيحية لقتل قائده الباسل ابن أبى عبده ، ولكن المسيحيين جاءوا بما نبهه إلى وجوب القصاص منهم ، ففى ٩١٨ م ٣٠٥ هـ خرج أوردونو الثانى ابن الفونس (ويسميه العرب اردن ابن اذفونش) وحليفه سانكو (شانجه)

صاحب بنبلونه فاغارا على البلاد الاسلاميـة ، وأعملا السيف والنار فيها ، وهدما المساجد ، فأرسل عبد الرحمن الناصر حاجبه بدرا فى جيش عظيم ، ودارت رحى معركة طاحنة ٣٠٦ هـ ٩١٩ م هزم فيها المسيحيون . وتقهقروا معتصمين بالجبال، ولحق عبد الرحمن بالجيش فنكل بالمسيحيين ، ودمر حصونهم وأحرق القرى ، وأباد الجيوش وأخيراً غزا نافار ٣١٢هـ ٩٢٤م فلقيه سانكو ، وانتصرعبد الرحمن عليه ، ووصل إلى بنبلونه عاصمة النافار يين ووجد أهلها قد فروامنها رعبا ، فدمرها عبد الرحمن وخرب كنيستها التى كان يحج اليها النصارى كل عام ، وكذا خرب كنيسة أخرى على جبل قريب منها كان سانكو قد أنفق على بنائها نفقات طائلة .

وقد أضعفت هذه الغزوة سانكو ملك نافار فلم يعد الخليفة يخشى بأسه ، ولم يهتم بأمر مملكة ليون لأن الثورات الداخلية كانت تمزقها ، وأهلها يتناحرون ويقتل بعضهم بعضا ، فتركها عبد الرحمن ولو هاجمها لقضى عليها وأراح الأندلس من شرها ، وقد ندم عبد الرحمن على تهاونه هذا إذ دفع ثمنه غاليا فيما بعد

حلف أمير مسلم خائن وملك ليون :

حقد محمد بن هاشم أمير أرجونه على عبد الرحمن رغم تساهل الخليفـة معه وتركه فى أمارته حرا ، ودفعه الحسد إلى محالفة ملك ليون راميرو الثانى وأمير نافار جارسيا الذى كان تحت وصاية أمه تيودا أرملة سانكو ، فعاد عبد الرحمن إلى الاهتمام بشأن ليون لما رأى ملكها راميرو يزحف على مدريد (مجريط) ويستولى عليها ويسير لنجدة طليطلة الثائرة على الخليفة ، وقد رأينا كيف لم تفلح مساعى ملك ليون فى نجدة طليطلة وان المدينة سقطت فى يد عبدالرحمن ٩٣٢، وفى ٩٣٧م سارعبد الرحمن

على رأس جيشه لاخضاع الشمال وعقاب الخائن ابن هاشم ، وانتصر على المتحالفين وهدم ثلاثين حصنا من حصونهم ، وحاصر سرقسطة ودخل نافار ، فسلم إليه محمد بن هاشم ، ولعظم مكانته عفا عنه الخليفة وثبته فى منصبه . وطلبت تيودا الوصية على ابنها جارسيا الصلح وتعهدت بدفع الجزية لعبد الرحمن ، ولم يعد خارجا عن طاعه الخليفة من الأندلس إلا ليون وجزء من قطلونيه ، فأراد عبد الرحمن إخضاع ليون ولكنه هزم شر هزيمة فى موقعة الخندق ٣٢٧هـ ٩٣٩م لخيانة العرب والبربر من قواده وذلك انهم استاءوا من توليته نجدة الصقلبى منصب القيادة ، فتسللوا من المعركة وتجنبوا القتال حتى قتل نجده ، وغطت اشلاء القتلى وجه الارض ، وهزم جيش عبد الرحمن على انه استطاع ان ينجو بنفسه مع نفر قليل من خاصته ، وساعده الحظ ان تفرقت كلمة المسيحيين فلم يطاردوه ولجأ فريق منهم اليه يحكمونه فى خلافاتهم الداخلية

الفاطميون وعبد الرحمن :

كان من اثر ما حل بالعلويين من الاضطهاد بعد قيام الدولة العباسية ان لجأ بعضهم إلى اطراف الدولة ينشرون دعوتهم لقيام دولة واكتساب اشياع لهم ، وكانت بلاد البربر اصلح الاقاليم لقبول هذه الدعوة لبعدها عن مركز الخلافة ولكراهية البربر للعباسيين الذين اثقلوا كاهلهم بالضرائب ، وكثرت ثورات البربر حتى اقنع ابراهيم بن الاغلب هرون الرشيد بالاعتراف له بالامارة على بلاد البربر على ان يدفع الجزية للعباسيين فقامت دولة الاغالبة بشمال افريقية وعاصمتها القيروان كما سنبين بعد

وفى عام ٩٠١ م ظهر بتلك البلاد أبو عبد الله الشيعى أحد دعاة المذهب الاسماعيلى ودعا ظاهرا لأولاد على وفاطمة ، واستطاع أن يمهد الأمر لزعيم الاسماعيلية سعيد بن عبد الله القداح الذى ادعى أنه المهدى المنتظر ، وسمى نفسه عبيدالله. واستطاع عبيدالله أن يجمع البربر حوله ، وأن يسقط الدولة الأغلبية فى مدينة القيروان ، ويؤسس بدلها مدينة المهدية فى تونس أيضا ، وأن يبسط نفوذه على شمال أفريقية ، وكان هنالك تراسل بين الأغالبة وابن حفصون كما مر بنا ، واتفق أن علم عبيد الله المهدى بتلك الرسائل وسمع من ابن حوقل الرحالة الشيعى بما كان فى بلاد الأندلس من فتن مندلعة فطمع فى الاستيلاء عليها ونجح إلى حد ما فى ارسال رسله لنشر دعوته فيها

واستطاع رسوله مسره أن يجد له سامعا فيها ، ولكن أحد الأمراء الأمويين واسمه احمد بن معاوية لم يسمح لمحتال أجنبي أن يبزه فى الاحتيال ، فسبق مسره وأعلن نفسه المهدى المنتظر ، وكان البربر فى الأندلس كأخوانهم فى أفريقية سريعى التصديق فانضموا اليه للجهاد تحت رايته مصدقين مزاعمه ، فقادهم للهجوم على المسيحيين الذين طالما أذاقوا البربر صنوف الهوان ، وكان احمد يدعى أن الحصون ستسقط إجلالا له بمجرد ظهوره أمامها ، ويوهمهم بأنه يقوم بخوارق الكرامات، وحالفه الحظ أول الأمر فانتصر على الفونس الثالث ملك ليون بالقرب من حصن سموره ، ولكن قواد البربر تملكتهم الغيرة فعزموا على أن يقلبوا له ظهر المجن ، فهاجموا المسيحيين ثم هرب فريق منهم ، ولكن ثبت معظم الجيش ولم ينل ملك ليون نصرا ، إلا أن البربر بدأوا يشكون فى صحة دعوى المهدى ، وانفضوا من حوله وتركوه يقاتل مع فريق قليل من مؤيديه حتى قتل وعلق الفونس الثالث رأسه على باب حصن سموره . وهكذا قدر لمشروع مهدى أفريقية أن لا يتحقق

إذ سبقه فيه سابق من أمراء البلاد أنفسهم

وفى عام ٩١٧ م ٣٠٥ هـ استرد صالح بن سعيد امارة ناقور ، ودخل فى حماية الناصر ، وفى ٩٢٩م استطاع محمد بن خاذر زعيم البر بر أن يخلص أفريقية الوسطى من يد الفاطميين بعد أن قتل بيده قائدهم مصاله ، وأدخل هذا الاقليم أيضا تحت حماية الناصر ، وفى ٩٣١م احتلت جنود الناصر مدينة سبته وحصنوها برا و بحرا ، وكان الناصر قد ابتنى أسطولا نازع الفاطميين السيادة على غرب البحر الأبيض المتوسط

وفى سنة ٩٤٥م استطاع المنصور ثالث الخلفاء الفاطميين استرجاع نفوذ الدولة الفاطمية فى بلاد المغرب فطرد عامل عبد الرحمن على سبته وقتل أبا يزيد زعيم البربر ٩٤٧ م

يقول دوزى : بأن الناصر أمر بلعن الفاطميين على جميع منابر الأندلس بسبب هـذا الاعتداء ، وإنه كلف قائده غالبا أن يهاجم بأسطوله سواحل افريقية ولـكنه لم يكن موفقا فى حملته هذه ، ورجعت الحملة بعد أن فازت بعض الفوز .

وأما ابن خلدون فقد قال فى هذه الغزوة ما يأتى :

« بعث المعز إلى الحسن بن على عامل صقلية عام ٣٤٤هـ أن يخرج بأسطوله إلى ساحل المرية من بلاد الأندلس ، فعاث فيه وغنم وسبى ورجع ، فأخرج الناصر صاحب الأندلس اسطوله إلى سواحل افريقية مع غالب مولاه ، فمنعتهم العسا كر وأقلعوا ، ثم عادوا سنة ٣٤٥ هـ فى سبعين مركبا فأحرقوا مرسى الخزر ، وعاثوا فى جهات سوسه ، ثم فى نواحى طبرقه ورجعوا »

ويؤخذ من كندى وروى، نقلا عن كتاب محمد بك دياب ، أن هجوم عامل صقلية على ساحل المرية أثار سخط خليفة قرطبة وكان حاجبه وقتئذ احمد بن سعيد (أحمد بن عبد الملك بن شهيد فى عرف المقرى) الذى امتاز بفوزه فى غزوة جليقية الأخيرة فحقق للخليفة امكان انتقامه من المعتدين ، وجمع السفن من شواطىء اسبانيا ، وقادها إلى وهران مقلة عدداً عظيما من رجال الحرب الأشداء ، وجمع من فرسان الأندلس المحتلين بلاد المغرب خمسة وعشرين ألف فارس ، ثم هجم بالرجلان والفرسان على افريقية ، فقابله الحسن بن على بجيوشه ، ودارت رحى الحرب بين الفريقين حتى غلب ، وهزم الاندلسيون قبائل صنهاجة وكتامة واتبعوا آثارهم حتى وصلوا إلى ضواحى تونس ، وكانت غنية بتجارتها الواسعة فحاصروها برا وبحرا وشددوا الحصار عليها فعرض أهلوها أن يسلموا المدينة ، وقدموا مقدارا جسيما من المال إلى ابن سعيد ، فطلب منهم مقدارا أجسم مما قدموا فاضطروا إلى أدائه ، وأخذ منهم أيضا أنسجة مختلفة الأجناس ، وطرفا من الحلى وذهبا وحجارة كريمة وملابس من الصوف والحرير للرجال والنساء وأسلحة وفيلا وعددا من الأرقاء ، ثم رجع بأسطوله إلى اشبيلية مشحونا بهذه الغنائم الواسعة ففرح به الخليفة ورقاه إلى أسمى مراتب الشرف ، ورتب له فى كل سنة مائة ألف قطعة من الذهب

أزعج استيلاء الحاجب احمد بن سعيد على مدينة تونس المجاورة لمدينة القيروان خليفة المهدية المعز لدين الله الفاطمى ، فهب لأخذ الثأر وشهر الحرب على بلاد المغرب التى كانت تحت حماية الناصر ، وأرسل جيشا كبيرا على رأسه قائده جوهر سنة ٣٤٧ هـ واستعد أهل المغرب لملاقاته ، ودارت رحى الحرب بين الفريقين بجوار تاهرت وانتصر جوهر وقبض على يعلى قائد المغاربة وقتله ، وبعث برأسه إلى المعز ، ثم زحف

جوهر على سجلماسة وفتحها ونهب أموالها وأسر صاحبها محمد بن الفتح ، ثم اتجه نحو فاس وحاصرها ودخلها فى أواخر رمضان سنة ٣٤٩ (نوفمبر سنة ٩٦٠م) ، وضرب أعناق أهليها وأسر واليها من قبل الأمويين وهو أحمد بن أبى بكر الزناتى ونهب المدينة ، وخرب كثيرا من منازلها ، ثم أخذ يطارد جنود بنى أمية فى جميع بلاد المغرب حتى استولى عليها ، وأسرع الحسن بن قانون الادريسى واعترف بسيادة المعز ودخل فى طاعته ، ثم عاد جوهر بعد انتصاره إلى أفريقية ومعه من الأسرى عدد كبير من رؤساء العشائر وشيوخ القبائل فاستقبله المعز فى يوم مشهود

شغلت حوادث أفريقية بال عبد الرحمن الناصر، وضاعفت أحزانه ،وتأهب للثأر ، ووجه إلى المغرب أسطولا قويا يقل كثيرا من الجنود البواسل ونزلوا ببلاد المغرب وامتلكوا فاس بعد معارك عنيفة ، واستولوا على مدن أخرى ، وأخضعوا كل البلاد من فاس إلى البحر المحيط ، وعاد خطباء المنابر فى جميع المساجد يخطبون باسم الامام عبد الرحمن الثالث ، وعاد الأمير الحسن بن قانون إلى ولائه للناصر

تجدد الحرب مع ليون :

استمرت المناوشات بين الناصر ونصارى الشمال بعد معركة الخندق مدة طويلة وأخيرا رغب أوردنو فى مصالحة الخليفة ، وأرسل رسولا إلى قرطبة يطلب الصلح فى سنة ٩٥٥ م ، فأصغى اليه عبد الرحمن . وأرسل فى السنة التالية الى ليون محمدا بن حسين وهداى المدير العام للجمارك للمفاوضة فى شروط الصلح ، ولم تطل المفاوضات بسبب تساهل اوردنو اذ قبل تسليم بعض الحصون إلى المسلمين وهدم البعض الآخر ، ورجع الرسول الى قرطبة يحمل شروط المعاهدة فقبلها عبد الرحمن ،وكذلك عقد الصلح بين عبد الرحمن والملكة طوطة أميرة نفار الوصية على ابنها غارسيا

ولكن لم يدم الصفاء بين المسلمين ونصارى الشمال طويلا وذلك بسبب موت أوردنو الثالث فى آخر سنة ٣٤٥هـ (مارس سنة ٩٥٧ م)

جلس على عرش مملكة ليون الأمير سانكو (شانجة) بعد موت أخيه ورفض شروط الصلح المعقودة مع عبد الرحمن، ولم ينفذ ما تعهد به الملك المتوفى فغضب الخليفة وأمر قائده القدير احمد بن يعلى والى طليطلة أن يزحف على أملاك ليون، فقام على رأس جيش وغزا بلاد النصارى وانتصر على سانكو انتصارا باهرا

ثار الأمراء فى ليون فى وجه مليكهم الجديد لسوء تصرفه وكبريائه واستبداده بالحكم. وكرهه الناس لفرط سمنته إذ كان لا يستطيع ركوب الخيل، وكان لا يمشى إلا متكئا على آخر، وانتهز فردنيان أمير قشتالة فرصة سخط أهل ليون وتزعم الثورة وانضم اليه الجيش وأعلن خلع سانكو فى فصل الربيع عام ٩٥٨ م، واختارت البلاد ملكا جديدا يسمى اوردنو بن الفونسو الرابع، فالتجأ الملك المخلوع إلى نفاره وشكا ما أصابه الى جدته الملكة طوطه التى كانت تحكم البلاد باسم ابنها غارسيا، وهذه لجأت بدورها الى الناصر لتستعين به على أعادة سانكو إلى العرش، وأرسلت تطلب منه طبيبا من أطباء قرطبة ليعالج حفيدها من سمنه الفظيع، والعمل إلى إعادته إلى عرش بلاده فقبل عبد الرحمن الطلب وأمر الطبيب هداى اليهودى وكان من أمهر الاطباء فى قرطبة ومن كبار رجال سياستها أن يذهب إلى نفارا لمعرفته للغتها، ويفاوض طوطه وابنها وحفيدها فى شروط صلح يعقد بين المسلمين والنفاريين وسانكو بعد معالجته وعودته إلى عرش البلاد، ونجح الطبيب فى المفاوضات وطلب إلى الملوك الثلاثة أن يزوروا قرطبة فلبوا الدعوة ورحلوا إلى قرطبة واستقبلهم الناصر استقبالا باهرا وأنزلهم فى الزهراء

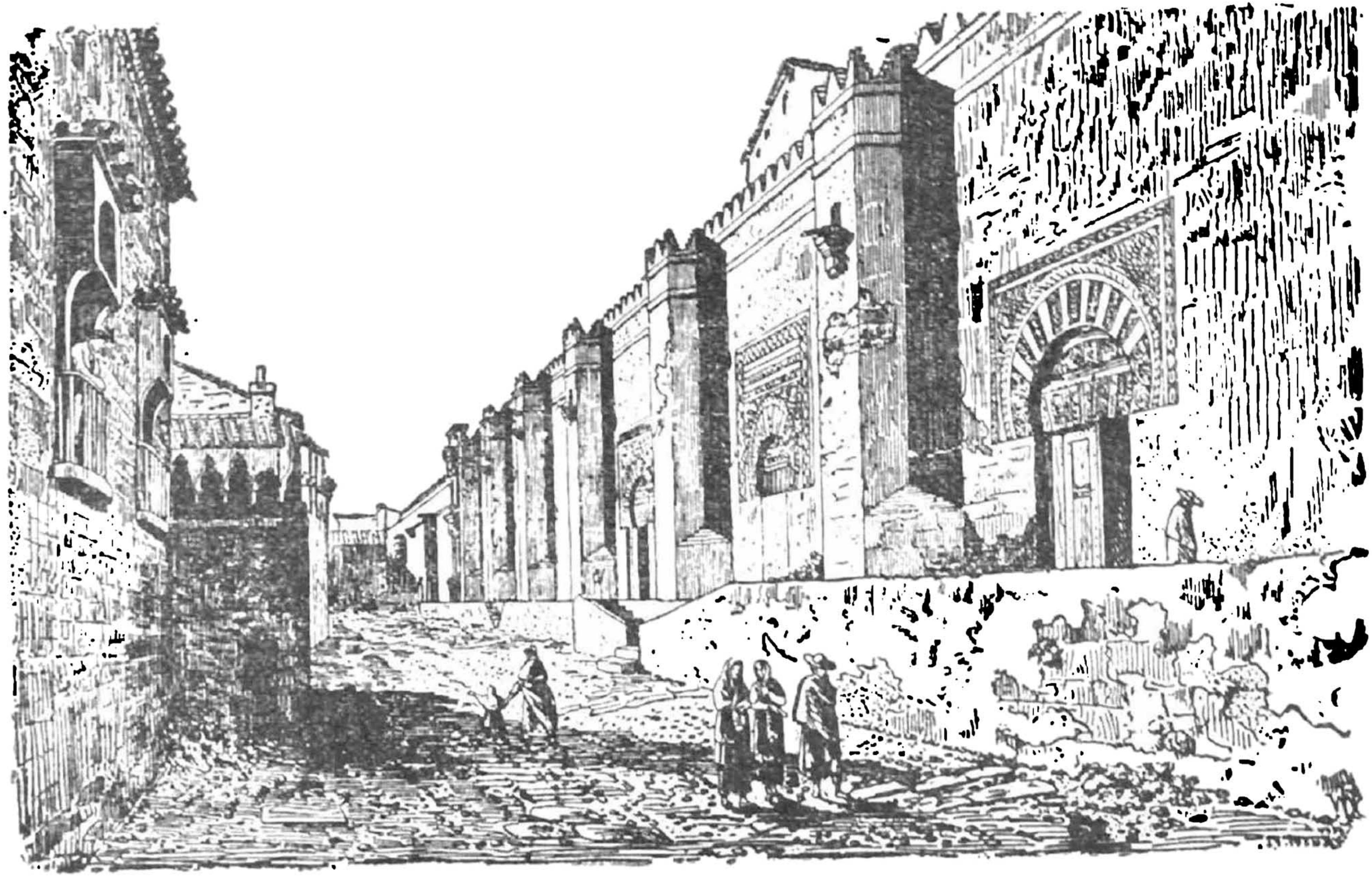
و بعد زمن هاجم جيش النفاريين قشتالة ، وهاجم جيش من المسلمين ليون يصحبه سانكو الذى كان قد عوفى من مرضه وصار نشيطا ، وانتصر الجيش على المدافعين من أهل ليون واستولى على مدينة سموره ، وفى شهر ابريل سنة ٩٥٩ م خضع جزء كبير من البلاد الى سانكو ، وسقطت العاصمة فى يده بعد مقاومة عنيفة ودخل سانكو ظافرا بعد فرار أوردنو الرابع منها . وأرسل سانكو إلى الناصر يشكره على حسن صنيعه معه ، وقام بتسليم عشرة حصون إلى المسلمين ، منفذا بذلك ماوعد به رسول الناصر

لقب أمير المؤمنين :

كان أسلاف عبد الرحمن من الحكام الأمويين فى أسبانيا يلقبون بالأمراء فقط ، مثلهم فى ذلك مثل الولاة الذين تولوها قبلهم منذ الفتح العربى ، ولم ينزعوا إلى انتحال ألقاب الخلفـاء فى الشرق مع أنهم كانوا ملوكا مستقلين وأعداء للعباسيين ، وكانوا يستعملون النقود الشرقية ، فلما تولى عبد الرحمن الثالث أمر البلاد تلقب بالخليفة الناصر أمير المؤمنين ، وضرب نقوداً جديدة باسمه و كتب عليها ألقابه

يقول ابن خلدون : « إنه أول من تسمى بأمير المؤمنين عند ما تلاشى أمر الخلافة بالمشرق ، واستبد موالى الترك على بنى العباس ، و بلغه أن المقتدر قتله مؤنس المظفر مولاه سنه سبع وعشرين وثلاثمائة فتلقب بألقاب الخلفاء » .

وقال ابن عذارى : « إن عبد الرحمن هو أول من تسمى منهم بأمير المؤمنين وتلقب بأحد الألقاب السلطانية وهو الناصر ، ثم تسمى منهم من كان بعده من خلفائهم بأمرة المؤمنين ، وذلك حين ضعفت الخلافة العباسية وظهرت الدولة



منظر خارجي لجامع قرطبة

التركية والديلمية ، فصارت إمرة المؤمنين لائقة بمنصبه وكلمة باقية فى عقبه ، فاستهل الخطيب فى جامع قرطبة احمد بن بقى بن مخلد يذكر هذا الاسم الخلد يوم الجمعة الأول من سنة ٣١٦ هـ ».

يقول أبو الفداء : « هو أول من تلقب من الأمويين أصحاب الأندلس بألقاب الخلفاء وتسمى بأمير المؤمنين ، وكان من قبله يخاطبون ويخطب لهم بالأمير وأبناء الخلائف ، وبقى عبد الرحمن كذلك إلى أن مضى من أمارته سبع وعشرون سنة ، فلما بلغه ضعف الخلفاء بالعراق ، وظهور الخلفاء العلويين بإفريقية ومخاطبتهم بأمير المومنين أمر أن يلقب بلقب الناصر لدين الله و يخطب له بأمير المؤمنين » .

يوخذ من هذه الروايات أن المؤرخين اختلفوا فيما بينهم فى السنة التى تلقب فيها عبد الرحمن بلقب أمير المؤمنين ، ولكن دوزى بعد ان محص الروايات المختلفة ذكر أن عبد الرحمن تلقب بهذا اللقب فى يوم الجمعة سادس عشر يناير سنة ٩٢٩ وهو الموافق أول ذى الحجة سنة ٣١٦ والظاهر أن هذا التاريخ هو أرجح التواريخ

نهضة العمارة وبناء الزهراء :

نهج الناصر منهج أسلافه من أمراء الأمويين فى العناية بتشييد الأبنية الفخمة ، والتفنن فى إتقانها ، فانه لما استفحل ملكه وخيم السلام على ربوع دولته حول جهوده إلى إقامة المعاهد والآثار الدالة على قوة الملك وعظامة السلطان ، فشيد إلى جانب القصر الزاهر قصراً عظيما سماه دار الروضة ، وجلب إليه الماء من الجبل ، واستدعى نوابغ المهندسين والبنائين من كل فج ، واجتمع إليه أمهر صناع

القسطنطينية وبغداد ، ثم أخذ فى بناء المتنزهات ، وساق إليها الماء من أعلى الجبل فوق قناطر تشهد لمبتدعها بحسن المعرفة وسلامة الذوق ، وفى اول محرم سنة ٣٢٥ (نوفمبر سنة ٩٣٦) اختط مدينة الزهراء فى شمال قرطبة على نحو خمسة اميال منها ، ويقال إن سبب بنائها ان جاريته الزهراء وكان يحبها حباً جماً طلبت إليه أن يبتنى لها ضاحية جميلة ويسميها باسمها فلبى عبد الرحمن الطلب وشيد تلك المدينة الفريدة ، وقد أتقن بناءها ، واحكم الصنعة فيها ، وجعلها مسكناً للزهراء وحاشيته ورجال حكومته ، واستمر العمل فيها نحو اربعين سنة إذ لم يتم تشييدها إلا فى عهد ابنه الحكم

وقال ابن خلدون : « اختط الناصر مدينة الزهراء . واتخذها منزله وكرسيا لملكه ، وأنشأ فيها من المبانى والقصور والبساتين ما علا على مبانى أسلافه ، واتخذ فيها مجالات للوحش فسيحة الفناء ، متباعدة السياج ، ومسارح للطيور مظللة بالشباك ، واتخذ فيها دورا لصناعة الآلات من آلات السلاح للحرب ، وغير ذلك من المهن »

روى المؤرخون انه كان يعمل فى عمارة الزهراء عشرة آلاف رجل وألف وار بمائة بغل ، وكانت مبانى الزهراء تشتمل على أربعة آلاف وثلثمائة سارية ، وعلى ما ينيف على خمسة عشر الف باب ملبسة بالحديد والنحاس المموه ، وكان بها بحيرة ذات حيتان . وحمامان احدهما للعامة والآخر للخاصة ، وجامع وقصر الخلافة ، فالجامع كان ذا خمسة أبهاء ومحراب ومنبر بديع ومقصورة عجيبة ومأذنة وصحن مكشوف ، وجميعه مفروش بالرخام الخمرى ، وفى وسطه فوارة يجرى منها الماء ، وقد اشتغل فى بنائه آلاف من الصناع حتى أتموه فى ثمانية وأربعين يوما وذلك فى شعبان سنة ٣٢٩ هـ ، وأما قصر الخلافة فكان فخما عليه حلة من

الجمال مشرفا على الرياض فيه مجلس مقرمدة قبته وحيطانه بقرامد الذهب والفضة يعرف بمجلس الذهب ، وضع فى وسطه اللؤلؤة اليتيمة التى أهداها إليه ليون ملك القسطنطينية ، وفيه حوض عجيب منقوش بتماثيل الانسان

وجعل عليه تماثيل من الذهب الاحمر مرصعة بالدر النفيس مما عمل بدار الصناعة بقرطبة ، ترى فى هـذه التماثيل صور الأسد والغزال والتمساح والثعبان والعقاب والفيل والحمامة وغير ذلك من الحيوان ، تمج الماء من أفواهها إلى الحوض وكان فى كل جانب ، كما ورد فى المقرى ، ثمانية أبواب ، قد انعقدت على حنايا من العاج والأبنوس المرصع بالذهب وأصناف الجواهر قامت على سوارى من الرخام الملون والبلور الصافى ، وكانت الشمس تدخل على تلك الأبواب فيضرب شعاعها فى صدر المجلس وحيطانه فيصير من ذلك نور يأخذ الأبصار ، وأنه كان وسط هذا المجلس صهريج عظيم مملوء بالزئبق ، وكان الناصر اذا أراد أن يفزع أحدا من أهل مجلسه أومأ إلى أحد صقالبته فيحرك ذلك الزئبق فيظهر فى المجلس كلمعان البرق من النور ، ويأخذ بمجامع القلوب حتى يخيل للحاضرين أن المحل قد طار بهم

هذا ولم يقتصر الناصر على اتقان تجميل الزهراء بل جمل قرطبة بالقصور والمساجد ، وأنشأ بها نافورات ماء من المرمر الجميل ، وأنشأ كذلك فى مساجد أشبيلية وفى غيرها من أمهات المدن بالأندلس تلك النافورات وأحاطها بالبساتين وغرس فيها الزينة والفاكهة وأصلح قنطرة الوادى الكبير

والخلاصة أن الناصر أنفق على عمارة البلاد مالا جسيما بالغ المؤرخون فى تقديره مما يدل على اتساع موارد الدولة فى عهده ، وعلى عظيم ما وصلت اليه من المجد والجاه .

ولاية العهد :

عنى الناصر بتربية ابنه الحكم وتهذيبه ، واختار لتعليمه كبار الأساتذة واستدعى اليه من بغداد اسماعيل بن القاسم المعروف بأبى على القالى وعهد اليه بمصاحبة الحكم فى قصر الزهراء فشب مولعا بالعلوم والآداب ، ولأنه كان أكبر اخوته كان أهلا لولاية عهد أبيه واختاره الناصر ولياً للعهد ، وقد حسده أخوه عبدالله على هذه الولاية ، ونافسه فى ذلك وتآمر مع آخرين على حرمان الحكم من ولاية العهد ولكن الناصر اكتشف مؤامرتهم وأمر بقتلهم أجمعين .

وفاة الناصر وكلمة ختامية :

توفى الناصر لدين الله فى شهر رمضان سنة خمسين وثلثمائة هجرية (أكتوبر سنة ٩٦١ م) وهو فى السبعين من عمره و يعتبر المؤرخون عهده أرفع ذروة بلغتها عظمة الدولة الأموية بالأندلس ، وحدا فاصلا بين دور تقدمها ورفعتها ودور اضمحلالها وسقوطها ، كيف لا وقد تولى العرش وكانت الفتن والفوضى والثورات تهدد ملك بنى أمية بالزوال ، فتسلم زمام الأمر ، ونهض بحزم وعزم وقضى على كل هذه الفتن ، ودفع غارات الأسبان من مسيحيين ومسلمين ، وصد اطماع نصارى الشمال ، وصان بلاده من غارات الفاطميين ، وأصلح المختل من شئونها ، وملأ خزائنها بالأموال ، و بلغ ما اقتصده عشرين مليونا من الدنانير من دخل سنوى مقداره نحو ستة ملايين ونصف دينار ، وشجع الزراعة والصناعة والتجارة ، و بلغت الأندلس فى عهده من القوة والمنعة ما جعل دول أوروبا تخطب ودها ، فأرسل امبراطور القسطنطينية وأمراء الألمان وملوك إيطاليا وفرنسا سفراءهم إلى

قرطبة ، وأصبحت آداب بلاط عبد الرحمن قانونا ساريا يحاكى فى قصور الملوك ، ويعد كثير من المؤرخين عبد الرحمن الناصر ملكا عصريا على الرغم من أنه عاش فى العصور الوسطى ، اذ بدهائه جمع الشعب حوله ووحده ، ونمى موارده ودعم الحالة الاقتصادية ، ووطد التوازن الدولى بمحالفاته ، ووسع بلاطه واستخدم رجالا من جميع الأديان مما دل على عظيم تسامحه ، فكان خير نموذج لملوك العصر الحديث

ومما يؤخذ عليه أنه حكم حكما مطلقا لا يقيم وزنا لشخصية أخرى غير شخصته فنفر بذلك أمراء العرب والبربر ، ورقى صغار الموظفين من ذوى الحسب الوضيع حكاما ليكونوا طوع بنانه ، وعزل وزراءه وحاجبه ، واتخذ له جيشا من الصقالبة بلغ عدده ١٤ ألفا ، وجعل لهم الحظوى لديه مما زاد فى سخط امراء العرب والبربر وقد ظهر ذلك جليا فى موقعة الخندق التى مر ذكرها ، وارتقى عدد كبير من الصقالبة وشغلوا الوظائف العليا ، وتثقفوا بالثقافة الاسلامية ، ونبغ الكثيرون منهم فى العلوم العربية وآدابها ، واخلصوا الاخلاص كله لسيدهم ، فكانوا اشبه بجند المماليك الذين استكثر منهم الصالح ايوب فى مصر وسوريا

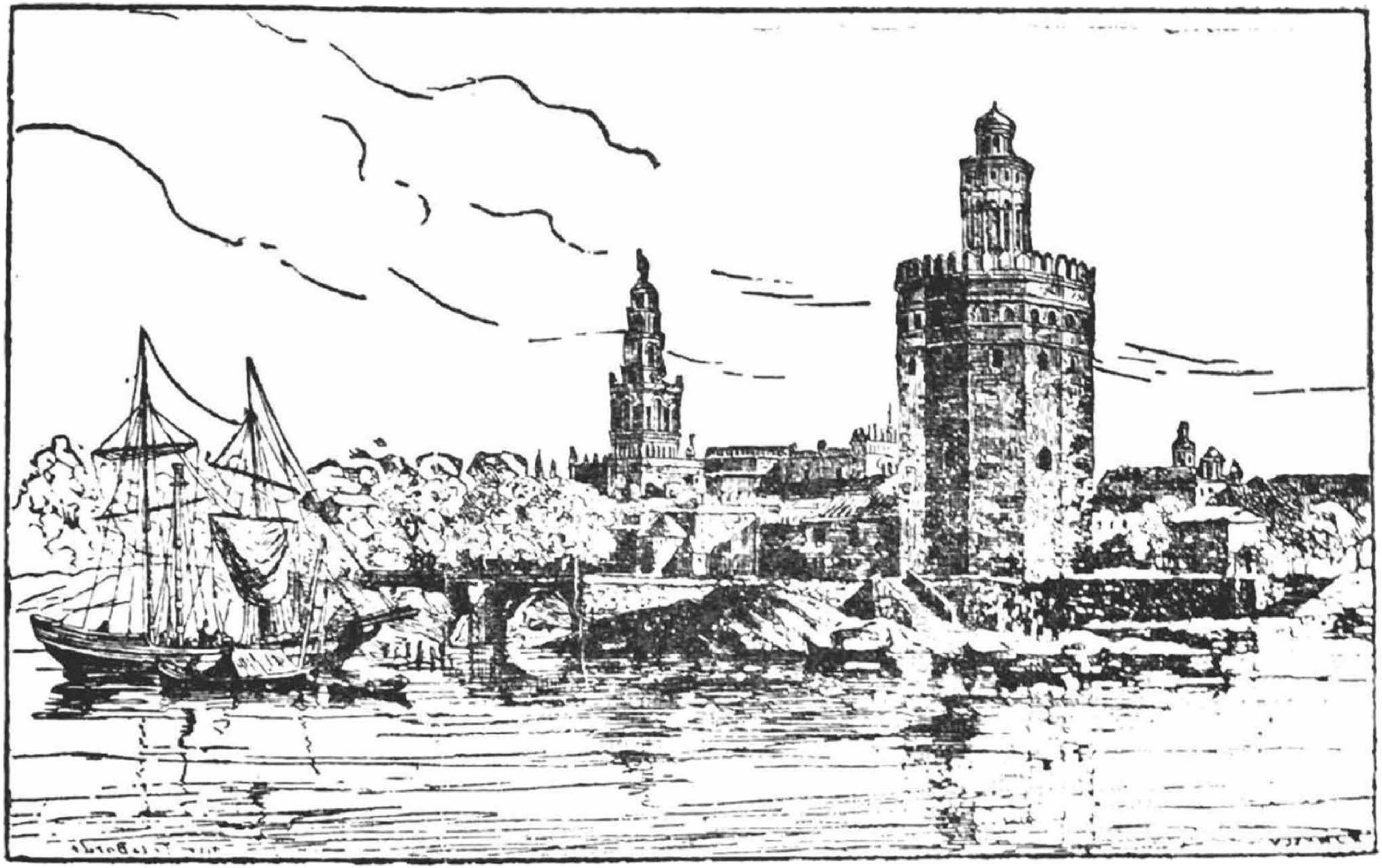
وقد جاء والبلاد تمزقها الفوضى ، معرضة لغارات نصارى الشمال والفاطميين من الجنوب ، وعلى الرغم من العقبات التى اعترضته خلص الاندلس من التهلكة وأكسبها النظام والرقى ، والسعادة فى الداخل ، والاعتبار والاحترام فى الخارج ، وكان الغريب عن البلاد يروقه جمال مزارع الاندلس ، وهندسة ريها العجيبة ، وكمال نظام القضاء ، وانخفاض أثمان الاطعمة والاقوات ، ورخاء الشعب ورفاهيته ونظافة الملابس ، وكانت قرطبة فى عصره تضارع بغداد فى العظمة والحضارة

و بلغ عدد سكانها نصف مليون . وعدد مساجدها ثلاثة آلاف وعدد حماماتها ثلثمائة ، وعدد ضواحيها ثمانية وعشرون

و يقول لينيول «... وكانت النظافة لدى المسلمين معدودة من الايمان بينما كان مسيحو العصور الوسطى يحرمون الاغتسال لأنه فى زعمهم عادة وثنية . وكان الرهبان والراهبات يتباهون بالقذارة ، حتى أن احدى القديسات افتخرت أنها لم تغسل جسدها إلى أن بلغت الستين من العمر ، فكانت القذارة من تعاليم الصلاح والتقوى لدى المسيحيين ، أما المسلمون فعلى العكس من ذلك كانوا يراعون أدق شروط النظافة ، وكان دينهم يحتم عليهم أن لا يقربوا الصلاة إلا إذا توضأوا وتطهروا » .

يقول جوزيف مكاب : « أثرت البلاد فى عهد عبد الرحمن الثالث ثراءا مدهشا ، وزاد دخل الخزينة حتى بلغ ثلاثة ملايين من الجنيهات من العشور وحدها ، وألغى كل الضرائب التى كان ولاة الاقاليم والعصاة يرهقون بها الأهلين ، و يقال إن ايراد الدولة تضاعف عشرين ضعفا عما كان عليه فى زمن عبد الرحمن الداخل ، وذلك فى الوقت الذى كانت القوة الشرائية للنقود تساوى خمسة امثال ما تساويه الآن على الأقل » .

و يقول فى موضع ثان : « كان الطعام فى عصره كثيرا ورخيصا ومتنوعا ، وعاش ثلاثون مليونا من الأنفس فى رغد من العيش فى الأندلس منذ ألف سنة ، وذلك بفضل الادارة الحسنة التى تمتعت بها اسبانيا العربية فى عهد عبد الرحمن الناصر ، مع أن هذه البلاد لم تستطع تموين ستة ملايين من الانفس وهو العدد الذى وصل اليه سكانها فى عهد حكامها من نصارى الاسبان بعد انتزاعها من الحكم الاسلامى عقب وفاة هذا الحاكم القدير ببضعة قرون »



البرج الذهبي باشبيلية

و يقول فى موضع ثالث : « اختفى فى عهد عبد الرحمن الناصر حكم الاقطاع من البلاد ، وأصبح الجيش فى أحسن حالات العز يتناول أفراده مرتباتهم من الخزينة العامة ، وعلى شواطئ الوادى الكبير ازدهرت القرى وبلغ عددها ١٢٠٠ وتوفرت وسائل النظافة بين سكانها . ورتع أهلها فى بحبوحة اليسر والهناءة وقت ان كان تسعة أعشار سكان فى أوربا ارقاء اذلاء ، يرزحون تحت اعباء البؤس والفاقة » .

قال دوزى : « نجد إذا مادرسنا ذلك العهد الزاهر أن الصانع يثير الاعجاب والدهشة اكثر مما يثيرها المصنوع ، كما يثير الاعجاب ايضا ذلك النبوغ الشامل الذى أحاط بكل شىء علما ، وتعرف إلى دقائق الامور فما ترك صغيرة ولا كبيرة الا احصاها »

الفصل الثانى

النهضة العلمية فى الاندلس

الحكم الثانى المستنصر بالله (٣٥٠ — ٣٦٦ هـ — ٩٦١ — ٩٧٦ م)

تولى الحكم الثانى بن عبد الرحمن الناصر بعد وفاة أبيه سنة ٣٥٠ هـ ٩٦١ م ولم يكن ضعيف الرأى راغبا عن الاضطلاع بعبء المسئولية، ولكنه كان منصرفا إلى الأدب مولعا بتشييد المبانى والتفنن فى تجميلها

علاقة الاندلس بنصارى الشمال فى عهده :

لم تكن لوفاة عبد الرحمن الناصر رنة أسف فى بلاط ليون أو نفارا، على الرغم مما كان له من أياد على البلاطين . بل رأى حكام تينك المقاطعتين فى وفاته فرصه سانحة للتخلص من الالتزامات التى فرضها عليهم، والتحرر من الوصاية الاسلامية، وجرأهم على ذلك أن ظنوا فى الحكم ابنه الظنون، وتوهموا أنه فاقد لمواهب أبيه الحربية جانح إلى السلم، فرفضوا تسليم الحصون التى تعهدوا بتسليمها وانضم إلى أميرى ليون ونفارا وأمير قشتالة فرنان جونز اليزالذى بادأ الحكم بالعدوان، فاغار على حدود الدولة الاسلامية يريد بذلك توسيع أملاكه، فأمر الحكم قواده وعماله بتعبئة الجيوش، ولما تمت التعبئة قاد الجيوش بنفسه باقدام وجرأة، وضرب فرنان ضربة ساحقة مزقت جيشه واضطرته إلى الفرار، وخرب الحكم كثيرا من قلاع قشتالة الواقعة على نهر دورو، ثم عاد إلى قرطبة بعد هذا النصر حيث تسمى بالمستنصر بالله، وهناك وفد عليه الأمير أوردنو الشقى الذى كان قد طرده

سانكو من ليون بفضل مؤازرة عبد الرحمن الناصر ، يعرض عليه الخضوع والولاء ويستمد معونته فيما اعتزمه من محاولة استرداد عرشه ، وقابله الحكم الثانى فى قصر الزهراء بأبهة وعظمة فائقة ؛ وخلع عليه وعلى حاشيته ووعده خيرا

ولم يلبث الحكم أن جهز جيشا بقيادة مولاه غالب لاعادة أوردنو إلى عرش ليون ، ولكن سانكو أمير ليون أسرع بارسال وفد من نبلاء بلاده وكبار أساقفتها إلى الخليفة ، يؤكد له العزم على الوفاء بكل مافرضته عليه معاهدة الصلح المعقودة بينه و بين عبد الرحمن الناصر ، فاعرض الحكم عن تأييد أوردنو. على أن وفاة أوردنو بعد ذلك بقليل شجعت سانكو على النكث بعهده ، فتجددت الحرب بين الحكم و بين ليون وقشتالة ونفارا وقطلونية ٩٦٢م ، فأخذهم الخليفة فرادى وانتصر عليهم جميعا ، ومن عجيب أمر هؤلاء المسيحيين أنهم كانوا لايلبثون أن يجددوا عدوانهم بعد الصلح وعقب الهزيمة ، وينقضوا المعاهدات قبل أن يجف مدادها ، والظاهر أنهم كانوا يعدون حروبهم جهادا مشروعا للدفاع عن وطنهم ودينهم ، فلم تفتر لهم عزيمة ولم تفل من غار بهم هزيمة .

بدأ الحكم بمهاجمة فرنان جونزالز أمير قشتاله ، فاستولى على حصون بلاده واضطره إلى الصلح . وانتصر قواد الحكم على بقية الأعداء . فهزم غالب جيوش ليون . وأخضع جليقية ، وهزم سانكو ، كما هزم يحيى بن محمد التجيبى حاكم سرقسطة جارسيا أمير نفارا . وانضم غالب إلى يحيى فأتما اخضاع نفارا واضطر سانكو أمير ليون الى الخضوع وعقد الصلح ٩٦٦ م . وتبعه جارسيا أمير نافارا وأمير باسك ، وغيرهم من الأمراء . وقبل الجميع أن يهدموا حصونهم القريبة من حدود بلاد المسلمين ، وأن لايساعدوا الثوار ولا يتحالفوا معهم ، ولايعودوا إلى

بمحاربة الخليفة . وأظهرت الحوادث أن هذا الصلح ظل مرعيا وطيدا ، فساد السلام ربوع الأندلس الاسلامية

أما الامراء المسيحيون فقد انشقوا على أنفسهم بعد ذلك ، وتفرقوا شيعا ، وعمت الفوضى بلادهم حتى استحال عليهم أن يحلموا بمهاجمة بلاد الخليفة

علاقة الأندلس بالمغرب الاقصى فى عهده :

لم يعد الفاطميون مصدر خطر على الأندلس ، كما كانوا مدة عبد الرحمن الناصر ، فان هؤلاء قد اشتغلوا بأمر مصر عن الأندلس ، ووجدوا فيها مغنما سهلا يسد أطماعهم. فاستولوا عليها ، واسسوا القاهرة المعزية سنة ٩٦٩ م . ثم انتقل المعز اليها عام ٩٧٣ م ، تاركا أبا الفتوح يوسف بن زيرى نائبا عنه فى أفريقية والمغرب. وكان من الممكن أن يترك الحكم الأمراء المنتمين اليه فى أفريقية وشأنهم ولكنه رأى فى ذلك ضياعا لهيبته . وكان الادارسة قد دخلوا فى طاعة الفاطميين ، وأخذوا يناوئون الأمراء الموالين للاندلس . فاضطر الحكم إلى ارسال جيش إلى بلاد المغرب ٩٧٢ م ، بقيادة مولاه غالب لتأديب أمير صنهاجه ، الذى ثار فى وجه الحاكم الأموى ولجأ إلى الفاطميين ، ولتأديب خليفة الحسن بن قنون أمير الأدارسه ، وانتصر غالب بفضل ما فرقه من الأموال بين قبائل زناتة ومكناسة ، ولكن الخليفة شك فى أمانة غالب ، ورأى أن يرسل اليه محاسبا أمينا . فاختار ابن أبى عامر . وعينه قاضيا لقضاة المغرب ، ومراقبا لادارته السياسية والحربية ، وأوصاه برقابة القواد ، وأمر أن لا يبت القواد ولا الحكام برأى فى المسائل الهامة إلا بعد استشارة ابن أبى عامر . وبفضل مرونته وكياسته استطاع أن يؤدى مهمته على أتم وجه . ونجح غالب فى اخضاع الأدارسة ، ثم وافاه مدد بقيادة يحيى بن محمد

التجيبى ، فقضى على الفتن ، وعاد إلى قرطبة ومعه الأمراء الادارسة أسرى عام ٩٧٤ م فأدخلهم الخليفة فى خدمته

النهضة العلمية فى عصر الحكم الثانى :

وعندما أخضع الحكم أعداءه المسيحيين ، وخلت الدولة الاسلامية فترة من المشاغل ، انصرف الحكم إلى الادب وعكف على التبحر فى العلوم ، ولم تر الأندلس من قبله ولا من بعده ، أميرا فى مثل ثقافته وعلمه وحكمته ، وأصبح شغله الشاغل اقتناء الكتب النادرة ، فى الفلسفة والأدب والفقه مهما كلفه ذلك . فاذا سمع بكتاب نادر اسرع إلى شرائه . . . وكان له وسطاء يجوبون بلاد الشرق ومصر والعراق وبلاد المغرب ، لجمع الكتب ونسخها . فجمع ٤٠٠ الف كتاب ، مع أن الطباعة لم تكن معروفة فى ذلك الوقت ، ولم يكن الورق رخيصا . وكان الانسان أنى سار فى قرطبة وحواضر الأندلس ، لا تقع عينه إلا على النساخ والمجلدين والمذهبين . واستفادت الأندلس من هذه الكتب ومن النهضة العلمية التى انبعثت فيها . فأصبحت مقصد العلماء من بلاد المشرق للبحث والاطلاع ، وأصبح مسجد قرطبه جامعة من أهم جامعات ذلك العصر ، لا يدانيها فى منزلتها إلا الأزهر فى القاهرة والجامعة النظامية فى بغداد . وكن الحكم يمنح المكافآت العظيمة للمؤلفين . ومن ذلك أنه أرسل ألف دينار لأبى الفرج الاصفهانى ، اعانة له وتشجيعا على تأليف كتاب الأغانى ، وارسال نسخة منه إلى الأندلس وقرأ الحكم أغلب الكتب التى توافرت لديه فى مكتبة قصره ، وكان يعلق عليها بخطه . وأضاءت بلاد الأندلس أنوار العرفان ، وقت أن كانت الأمية متفشية فى الدول المعاصرة لها فى أوربا ، ومعرفة القراءة والكتابة قاصرة

على القسس ورجال الدين . وأسس الحكم بقرطبة ٢٧ مدرسة كبرى للفقراء ، حيث يطعمون ويكسون . وكان الحكم يدفع رواتب المعلمين ونفقات التلاميذ من جيبه الخاص . وكان يحاضر فى جامعة قرطبة أبو بكر بن معاوية فى الحديث ، وأبو على القالى فى أخبار العرب وآدابهم وجمعت محاضراته فى كتاب (الامالى) المشهور . وكان ابن القوطية أستاذا للنحو والصرف وكان الطلبة يعدون بالألوف — وكان أكثرهم يحضرون علم الفقه ، لأنه سبيل الرقى الى الرتب العالية . كما كان منهم من يحضر دروس الفلك والطب والفلسفة والتاريخ الطبيعى

أما عن الادب فقد ازدهر ونفقت سوقه ، فأصبح الشعر يقرضه الخاصة والعامة ويرتجله الشعراء

ظهور محمد بن أبى عامر :

وفى هذه الجامعة تعلم طالب نابه نخصه بالذكر ، هو محمد بن أبى عامر من نسل عبد الملك بن عامر المعافرى ، الذى وفد على الاندلس مع طارق بن زياد ويرجع نسبه الى بنى عامر ، قبيلة يمانية . وكان أبوه عبد الله من أشهر علماء عصره وجده محمد كان قاضى أشبيلية ، أما هو فكان فتى لبقا ، شديد الذكاء ، قوى الخيال ، كبير المطامح ، واسع الامال ، حاد المزاج ، قوى البنية . ولما أتم دراسته دفعته الحاجة إلى التماس الرزق من كتابة العرائض ، التى كان يرفعها أصحاب الظلامات للخليفة . ثم اشتغل كاتبا بمحكمة قرطبة . ولما كان قاضى قرطبة غير مرتاح للعمل معه لعدم اتفاق طباعهما ، سعى فى نقله إلى وظيفة فى قصر الخليفة. وساعده فى ذلك صديقه الوزير المصحفى ، فتوسط فى تعيينه وزيرا لاملاك ابن الخليفة الاكبر الامير عبد الرحمن ، براتب قدره خمسة عشر دينارا . ووافقت

الملكة صباح على هذا الاختيار ٩٦٧م وكانت اسبانية من بلاد الباسك فى شمال أسبانيا (ويسميها العرب المشكنس) وهكذا بسم الحظ لمحمد ، وأعجبت الملكة بآدابه ، وحسن مظهره ، فعينته مديرا لأملاكها الخاصة أيضا . ثم انتقل بعد ذلك إلى منصب مديردار الضرب . ونجح محمد فى اكتساب رضاء الملكة وبفضل حسن هداياه نال الحظوة لدى الخليفة ، فاصبح قاضيا لاشبيلية وأمينا لهشام ولى عهد الحكم الثانى . وفى ٩٧٤م أصبح قائدا للفرقة الثانية من حرس الخليفة ، وبنى لنفسه قصرا بديعا بالرصافة ، كان مقصد طلاب الحاجات . ولم يأل جهدا فى اكتساب محبة الناس ورضاهم . ونجح سعيه ، فأصبح مديحه ملء الاسماع ، واكتسب صداقة القواد ، وأصبح مركزه وطيدا فى دولة الخلافة

ولى العهد :

أمر الحكم الثانى المستنصر قبيـل وفاته بالبيعة لابنه وولى عهده هشام الثانى عام ٩٧٦ م وكانت أمه الملكة صباح ذات نفوذ عظيم وحظوة كبرى

وفاة الحكم الثانى :

ثم توفى الحكم بقصره بقرطبة فى اليوم الثانى من صفر سنة ٣٦٦ هـ ، ٩٧٦ م . وكانت خلافته سنة عشر عاما الا بضعة أشهر

الباب الخامس

عصر الحجابة وقيام دولة بني عامر

الفصل الأول

هشام الثانى ٣٦٦ — ٤٠٣ هـ — ٩٧٦ — ١٠٠٩ م

كان فى الثانية عشر من عمره ، لما ولى الخلافة والملك بعد وفاة أبيه . وكان موالى أبيه وبخاصة طائفة الخصيان الصقالبة ، يستمتعون بنفوذ لا حصر له فى الدولة . وبلغ الغرور باثنين منهم ، فائق وجوهر ، أن ظنا أن لهما وحدهما حق تقرير مصير وراثة العرش . ونظرا لصغر سن هشام ، كان لابد من إقامة الوزير المصحفى وصيا عليه ، وهذا يؤدى إلى حرمانهما من النفوذ والسلطة ، فضلا عن مخالفته لما ألفه العرب ، الذين لا يميلون إلى حكم الوصاية .

مؤامرة الخصيان واحباطها :

قرر فائق وجوهر فيما بينهما أن يقتلا الوزير المصحفى ، وينادیا بالأمير المغيرة عم هشام خليفة للمسلمين فى الاندلس ، حتى يصبح مدينا لهما بعرشه فيطلق يديهما فى تصريف شئون الدولة . ثم رأيا من الحكمة أن لا يسفكا دما بريئا ، وأن يطلعا المصحفى على مشروعهما أولا . فاستدعياه وأنبآه بما عزما عليه . فاظهر الموافقة والاستحسان ، وخرج من حضرتهما فاستدعى نفرا من خاصته ،

منهم ابن أخيه هشام ، وابن أبى عامر ، وزياد بن الافلح أحد موالى الحكم الثانى ، وقاسم بن محمد أحد كبار القواد ؛ واستدعى أيضا فريقا من قواد الجيش ممن يثق بهم ، فأخبرهم بما عزم عليه الخصيان . فاتفقوا على افساد مشروعهما بقتل المغيرة قبل أن يعلم بوفاة أخيه . ولما سأل المصحفى عمن يقبل القيام بهذه المهمة ، تقدم ابن أبى عامر وتعهد بانفاذ ما أقرته الجماعة . ثم سار لوقته مع القائد ومائة من الحرس الى قصر المغيرة فأتم مهمته ، ولم ير المصحفى من الحكمة أن يؤاخذ الخصيين وتركهما مؤقتا . واستدعى فى الصباح أهل قرطبة إلى قصر الخلافة وجعلهم يجددون البيعة لهشام. وهكذا تم الأمر ونودى بهشام الثانى خليفة ولقب بالمؤيد بالله . وقامت حكومة الوصاية ، وفيها كان المصحفى حاجبا للخليفة ، وابن أبى عامر وزيرا . ولارضاء الشعب ، أشار ابن أبى عامر على المصحفى أن يلغى ضريبة الزيت ، التى كانت تضايق الفقراء كل المضايقة . ونشر ابن أبى عامر بين سواد الشعب أنه هو الذى أشار بالغاء تلك الضريبة . فأصبح محبوبا من الشعب معدودا نصيرا للفقراء ، وما لبث الخصيان أن تآمرا على المصحفى وابن أبى عامر ولكنهما عزلا فائقا وطرداه من القصر. أما جودر فاستقال ، وفرض المصحفى عليهما من المغارم ما تركهما فى فاقة وعجز تام عن الكيد . وقتل ابن أبى عامر الدرى أحد أنصار فائق . وفرح الناس بالتخلص من هؤلاء الظلمة المفسدين

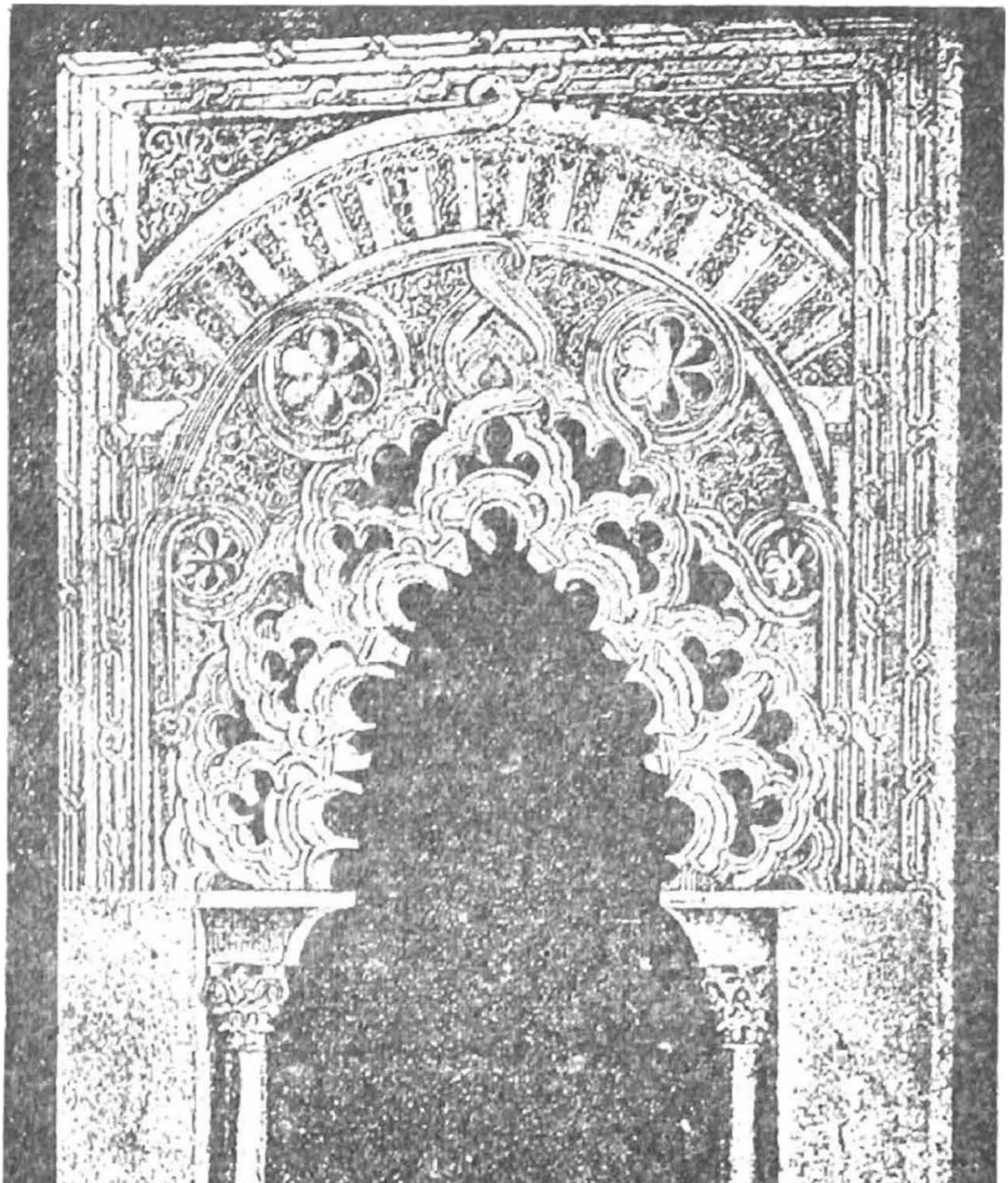
طموح ابن أبى عامر و بدء ظهوره :

كان مسيحيو الشمال قد أخذوا يشنون الغارات على حدود الدولة الاسلامية منذ أن علموا بمرض الحكم . فلما أتاهم نبأ وفاته ، ازدادوا جرأة واجتاحوا كثيرا

من بلاد الأندلس ، حتى وصلت غاراتهم إلى أبواب قرطبة . ولم يكن المصحفى لينقصه المال ولا يعوزه الجند لصد غاراتهم . ولكنه لضعفه وعجزه ترك حبل الأمور على غاربها . فاستاءت الملكة صباح وأخبرت ابن أبى عامر نبأ فزع الناس من جراء تهجم المسيحيين ، فأسر اليها أنه يستطيع تأديبهم إذا ولى قيادة الجيش ووافق المصحفى والوزراء على تقليده القيادة وإعطائه مائة ألف دينار ينفق منها على الجند . فزحف بجيش من خيرة الجند ، واجتاز الحدود فى فبراير سنة ٩٧٧ م وحاصر حصن الحى الواقع شمال سلمنقة واستولى عليه ، ثم عاد مثقلا بالأسلاب والغنائم ومعه عدد كبير من الأسرى . فأحدث النصر رنة سرور فى قرطبة ، لأن الجيش قد هاجم العدو فى عقر داره وعاقبه على بغيه وعدوانه ، وازداد الشعب حبا واجلالا له . وبفضل ما أنفقه على الجند من أموال وهدايا ، توثقت علاقته بهم وهكذا ازداد ابن أبى عامر أنصارا وأعوانا بين طبقة العامة والمحكومين ، ومهد لنفسه سبيل تحقيق مطامحه وأمانيه

سقوط المصحفى :

كان نفوذ جعفر بن عثمان المصحفى يزداد ضعفا كلما علا شأن منافسه ابن أبى عامر . وكان لا وجه للمفاضلة بينهما فى الذكاء والهمة وبعد النظر . نشأ المصحفى من أصل وضيع وكان والده من البربر . أما هو فكان أديبا شاعرا وأكسبته هذه المؤهلات حظوة لدى الحكم الثانى فعينه كاتبا فى قصره ، ثم قائدا لحرسه ثم حاكما لجزيرة ميورقة ، ثم وزيرا . وكانت مواهبه عادية . فكانت تعوزه القدرة على الفصل فى المسائل الهامة ، وابتكار حل لكل معضلة مستغلقة ، فكان



عقد من عقود الجعفرية بسرقسطة

يلجأ إلى ابن أبى عامر فى المشاكل العويصة . وهو الذى قاوم خصيان القصر فيما انتووه من نقل الخلافة إلى الأمير المغيرة ، وأقام حكم الوصاية ، وجعل نفسه حاجبا للخليفة ، باشارة ابن أبى عامر . وكان متصفا بما يتصف به كل حديثى النعمة من صلف وغرور نفرا منه الناس ، كما كان يغتال أموال الدولة ، ويولى أقاربه المناصب التى ليسوا أهلا لها ، فأوغر ذلك عليه صدور القوم ، مما شجع ابن أبى عامر على السعى فى اسقاطه والحلول محله

أخذ ابن أبى عامر يدس لزميله المصحفى لدى الملكة صباح ، وينتهز كل فرصة لاطلاعها على أخطائه بعد المبالغة فيها ، وفى الوقت نفسه يظهر له كل مودة واخلاص . لهذا لم يكن المصحفى يحسب أن سيناله من ناحيته شرا ، وانحصرت مخاوفه فى القائد غالب حاكم الحدود ، لكثرة ماله وجنده ولمجاهرته بأنه أحق منه بمنصب الحاجب . فعزم ابن أبى عامر على زيادة العداء بينهما ، واستصدر من الملكة صباح أمرا بتعيين غالب قائدا للجند ، ومنحه لقب ذى الوزارتين. ووافق المصحفى على ذلك ظنا منه أنه بذلك يرضى غالبا ويكسب مودته . ولكن ابن أبى عامر كان قد بيت النية على الانضمام إلى غالب والعمل معه على اسقاط المصحفى. وتمهيدا لذلك خطب اسماء ابنة غالب لنفسه ، بعد أن كان قد خطبها المصحفى لابنه عثمان وأفسد ابن أبى عامر على المصحفى تدبيره . ولما عاد ابن أبى عامر من غزوة الحدود منصورا منحه الخليفة لقب ذى الوزارتين ، وحل وحل موعد زواجه بأسماء فدفعت صباح وابنها هشام نفقات العرس ، وعين غالب حاجبا للخليفة . وأصبح سقوط المصحفى أمرا محتوما ، وفى مارس عام ٩٧٨م عزل الخليفة المصحفى وأولاده وأقاربه من مناصبهم ، بعد أن قبض عليهم وصودرت أموالهم وأملاكهم وحوكموا بتهمة اختلاس أموال الدولة ، وبيع قصر المصحفى وظل فى السجن خمسة أعوام

حتى مات خنقا . وعبثا حاول المصحفى وهو فى السجن استعطاف خصمه ، فلم تلق اشعاره سوى قلبا لا يرق ولا يلين

ومما كتبه المصحفى ذات مرة لابن أبى عامر :

هبنى أسأت فأين العفو والكرم   إذ قادنى نحوك الاذعان والندم

فأجابه المنصور :

نفسى إذا سخطت ليست براضية   ولو تشفع فيك العرب والعجم

الفصل الثاني

قيام دولة بني عامر

المنصور محمد بن أبي عامر

كان عزل المصحفي إيذانا بتولية ابن أبي عامر حاجبا مكانه ، فاصبح له وحده غالب الكلمة العليا في البلاد . ولم تفلح مؤامرة جودر ، وعبد الرحمن بن المنذر قاضي القضاة والرمادي الشاعر ، ومن لف لفهم من القضاة ورجال الأدب — وكلهم خصوم ابن أبي عامر وحساده — على قتل هشام الثاني وتولية عبد الرحمن بن عبيد الله ابن عبد الرحمن الناصر . وكان زياد بن الأفلح حاكم قرطبة على علم بالمؤامرة ولكنه تغاضى عن المشتركين فيها ، ووصل إلى علم ابن أبي عامر مايكيده له المتآمرون فقبض على زعمائهم وحاكمهم ، فكان جزاؤهم الصلب . وتقرب ابن أبي عامر إلى الفقهاء فأمر بأحراق كتب كثيرة من كتب الفلسفة والفلك ، مما كان بمكتبة الحكم الثاني ، ونسخ القرآن بيده ، وكان يأخذ النسخة معه في كل أسفاره

ولما اشتهر ابن ابي عامر بالورع والتقى التفت الى تربية الخليفة هشام حتى ينشأ ميالا إلى اللهو والدعة ، ولاتتكون عنده أية صفة سامية قد تؤهله إلى السيادة والتسيطر . فعهد بذلك الى الزبيدي ، وجعل تعليمه قاصرا على القرآن والقيام بالفرائض . وأمر ببناء الزاهرة على الضفة اليمنى من نهر الوادي الكبير لتكون مقرا لدواوين الحكومة ، ابعادا لهشام عن الاتصال بشئون الدولة . واحاطه

بالعيون والارصاد ، وأحاط قصره بالأسوار العالية ، وحرم على الناس الاقتراب منه ، فأصبح الخليفة شبه سجين ، لا اتصال له بالعالم الخارجى ، إلا عن طريق حاجبه ابن أبى عامر . وأراد التخلص من غالب لينفرد بالحكم ، فألف جيشا من البربر المرتزقة ، من زناته وصنهاجة ومن مسيحى الشمال . وكان نواة جيشه ٦٠٠ جندى بقيادة أمير من أمراء المغرب اسمه جعفر، وفريق من مسيحى الشمال دفعتهم الحاجة إلى الدخول فى خدمة ابن أبى عامر ، ضاربين صفحا عن كل الاعتبارات القومية والدينية . واكتسب ابن أبى عامر ولاء جنده المسيحيين بكرمه وحسن عطفه . فقد بذل لهم الأجور العالية وأسر قلوبهم بعدله ورفقه ولينه ، فجعل يوم الأحد اجازة عامة ، وكان يرقى كل مخلص فى خدمته ، فأصبح الجند خاضعين لأمره

النزاع بين غالب وابن أبى عامر :

استمر ابن أبى عامر فى استعداده دون أن يظهر لحميه تغيرا فى المودة . ولكن غالب لم تخف عليه حقيقة نوايا صهره ، فعنفه على ختله وغدره ، وزادت المشادة فاستل سيفه وطعن به ابن أبى عامر طعنة غير قاضية . فألقى هذا بنفسه من النافذة ، وكان ذلك بداية الحرب بينهما . نادى غالب بنفسه نصيرا للخليفة وجمع جنده ، وأمدته ليون بجيش صغير ، وقابله ابن أبى عامر بجنده أيضا ، وانتهت المعركة بهزيمة غالب وقتله عام ٩٨١ . وأراد ابن أبى عامر أن ينتقم من ليون فغزا بلادها وحاصر قلعة سموره ولما لم يستطع الاستيلاء عليها خرب كثيرا مما حولها ، وقتل ٤٠٠٠ من المسيحيين . فثارت ثائرة مسيحى الشمال وتجمعت جيوش رميرو الثالث ملك ليون وجارسيا ملك نفارا وجارسيا فرناندز أمير قشتالة

وقابلوا ابن أبى عامر فى موقعة روندة فهزموا شر هزيمة . و بعد ايغال جنوده فى بلاد ليون عاد إلى قرطبة ظافرا ومعه عدد كبير من الأسرى ؛ وقبل دخوله أياها لقب نفسه بالمنصور ، وهو من ألقاب الخلفاء . وهنا بلغ المنصور ذروة السودد ، ولم يبق له من يخشى بأسه سوى جعفر قائد البربر المغاربة ، فأراد التخلص منه رغم حسن بلائه واخلاصه فى خدمته ، فسلط عليه من قتله عام ٩٨٣

المنصور يغزو المسيحيين :

شبت ثورة فى مملكة ليون ضد ملكها روميرو بعد ما اجتاحها جند المنصور عام ٩٨١ ، ونادى أهل جليقية بالأمير برمودو ابن عم روميرو ملكا عليهم ، فاضطر روميرو بعد هزائم متكررة أن يفر إلى الحدود و يلتمس العون من المنصور ، ولكن برمودو عرض على المنصور جزية سنوية نظير ايثاره هو بالمساعدة . فأمده المنصور بكتائب من جيشه ، وأصبحت ليون تدفع جزية سنوية للخلافة الأموية

وساق المنصور جيوشه بعد ذلك إلى امارة قطلونيه فى عام ٩٨٥ م وأخذ معه فى حاشيته ثمانين شاعرا لوصف غزواته وتخليد انتصاراته . فوصل إلى برشلونة فى أول يوليه من تلك السنة وهاجمها . فسقطت فى يده بعد حصار دام خمسة أيام . واستباح المدينه لجنده ، فقتلوا رجالها وسبوا نساءها وأطفالها ثم أشعلوا النيران فيها

استرجاع المغرب الأقصى :

لم يكد يستقر المنصور فى قرطبة بعد غزوته الثالثة والعشرين حتى استرعت الحالة فى المغرب الأقصى انتباهه . ذلك أن بلادا كثيرة منه كانت قد خلعت

عنها نير الفاطميين مثل فاس وسجلماسة . ولكن ظهرت فوق مسرح الحوادث شخصية كانت منسية طوال السنين . ذلك أن الحسن بن قنون الادريسى كان قد استسلم لغالب وطلب الأمان على عهد الحكم الثانى ، وأحضره غالب معه إلى قرطبة ، فظل مقيما بها حتى أذن له الوزير المصحفى بالاقامة فى تونس ، بشرط أن لا يقرب المغرب الأقصى . ولكن الفاطميين أمدوه بالمال والجند وارسلوه إلى المغرب لاعادته إلى سلطانهم . فلما علم المنصور بذلك أسرع بارسال جيش هزمه فاستسلم ابن قنون مرة أخرى ، على ان يرسل إلى قرطبه للاقامة فيها كما كان من قبل ولكن المنصور ضرب عنقه فى اكتوبر عام ٩٨٥م . وانتقد الناس هذا الغدر وسخطوا على المنصور من أجله واتهموه بالظلم والقسوة . فكان لابد من استرضائهم بعمل عظيم

لذا أمر المنصور بتوسيع مسجد قرطبة واشترى البيوت المجاورة بأضعاف اثمانها . وكان يقول للناس « إن الخزينة عامرة بالأموال التى غنمناها من النصارى اعدائكم » واستخدم الأسرى المسيحيين فى حفر الاساس ونقل الحجارة . فقال الناس « اعلى المنصور كلمة الله حقا واعز دينه » . وكثيرا ما شمر عن ساعده واشتغل بنفسه مع العمال ليعمر مسجد الله . وهكذا استعاد منزلته فى النفوس

تجدد الحرب مع مسيحى الشمال :

كان برمودو الثانى قد استعان بالمنصور ضد روميرو الذى طرده الشعب من ليون لقسوته وظلمه ، فأمده المنصور بجيش ظل مقيما عنده لحمايته من اعدائه . ولكن الجند عاملوا اهل ليون معاملة المحكومين ، واشتكى برمودو من ذلك مرارا الى المنصور فلم تجد شكواه . فانفجر غيظه اخيرا وطرد المسلمين من بلاده ، ورأى المنصور

ضرورة اعطاء برمودو درسا قاسيا لا ينساه . فزحف بنفسه على ليون ، كما أنه فرح بتجدد الحرب ، ليفسى الناس شئون بلادهم الداخلية ، وليتسنى له اكتساب نصر وفوز جديدين . واستولت جيوش المنصور على بلاد ليون الواحدة بعد الأخرى ، وأخذت تدمر الحصون وتخرب المدن ، واجتاحت أنحاء الدولة كالسيل الجارف ، فلم تترك مدينة ولا حصنا ولا ديرا ولا بيعة ولا قرية

وحاصر المنصور مدينة ليون وفتح المسلمون ثغرة فى سورها ، ثم دخلوها عنوة وذبحوا كل سكانها ، ومن بينهم قائد الجند المدافعين عنها ، وكان قد أتى به مريضا محمولا على محفه ، ولم يتركوا فيها حجرا على حجر وتركوها قاعا صفصفا . وكان ذلك سنة ٩٨٧ م . وكذلك فعل المنصور بسموره ؛ فدخل كل أمراء مملكة ليون فى طاعة المنصور ولم يبق لبرمودا إلا الثغور الواقعة على الشاطىء

تآمر عظماء قرطبة ومعهم عبد الله بن المنصور :

عاد المنصور إلى الزاهرة فكشف مؤامرة خطرة على رأسها ابنه عبد الله ، وعبد الرحمن بن المطرف التجيبى حاكم الحدود ، الذين اتفقا على قتل المنصور واقتسام البلاد فيما بينهما ، فيكون ابن المطرف حاكم الشمال ، وعبد الله حاكم الجنوب . واشترك معهما هذه المؤامرة عدد كبير من رجال الدولة ، ومن بينهم عبد الله بن عبد العزيز حاكم طليطلة . فبادر المنصور باحباط تلك المؤامرة ، مستعملا كل دهاء وسعة حيلة . وكان المنصور يتهيأ لغزو قشتالة ، فعزل عبد الرحمن التجيبى بحجة اختلاسه اعطيات الجند ، وعين ابنه يحيى مكانه حتى لا يغضب بنى هاشم ، ثم عاد فقبض عليه وحاكمه وقضى باعدامه سنة ٩٨٩م ، وأخذ المنصور يسترضى ابنه عبد الله . ولكن هذا لم ينخدع بعفو أبيه بل فر إلى صفوف

جارسيا فرناندز أمير قشتالة ، وحماه جارسيا رغم تهديد المنصور ووعيده مدة عام ولكنه أثناء هذا العام فقدحصوناً كثيرة ، ولقى هزيمةبعد هزيمة ، فاضطر إلى قبول الصلح وتسليم عبدالله ، فقتله المنصور سنة ٩٩٠ م

وللانتقام من جارسيا فرناندز أمير قشتالة ، حرض المنصور ابنه سانكو على الثورة ضد أبيه . فثار سانكو سنة ٩٩٤ م ، ووعده المنصور بالمساعدة . وللتعاون معه غزا المنصور قشتالة ، وأوغل فيها . ولم يلبث أن أسر جارسيا على شاطىء نهر دورو . ومات جارسيا بعدذلك بخمسة أيام متأثراً من جراحه . فنادى المنصور بسانكو أميراً على قشتالة ، وتعهد سانكو بدفع جزية سنوية للدولة الاسلامية .

وانتقل المنصور إلى ليون فى خريف سنة ٩٩٥ م ليعاقب ملكها برمودو على إيوائه عبدالله بن عبد العزيز حاكم طليطلة وأحد المتآمرين . وكان برمودو قد ضعف سلطانه لانتقاض أمراء دولته عليه . فاستولى المنصور على مدينة استرقة ، التى كان برمودو قد اتخذها عاصمة له بعد تخريب مدينة ليون . والتمس برمودو الصلح فقبل المنصور ، واشترط عليه دفع الجزية وتسليم سمورة ، وتسليم عبد الله وأدب المنصور أميرين مسيحيين آخرين ، ثم عاد إلى قرطبة ، فأمر بعرض عبدالله بن عبد العزيز على الجماهير مكبلا بالاغلال ، ثم ألقاه فى السجن فظل به حتى وفاة المنصور

المنصور يلقب نفسه بالمؤيد وهو لقب الخليفة :

كان قد مضى على المنصور زهاء عشرين عاما وهو الحاكم الحقيقى للبلاد . وفى سنة ٩٩١م خلع لقب الحاجب على ابنه عبد الملك ، الذى لم يكن قد جاوز الثامنة عشرة من عمره . وفى السنة التالية صار يوقع بخاتمه بدل خاتم الخليفة ، ولقب نفسه

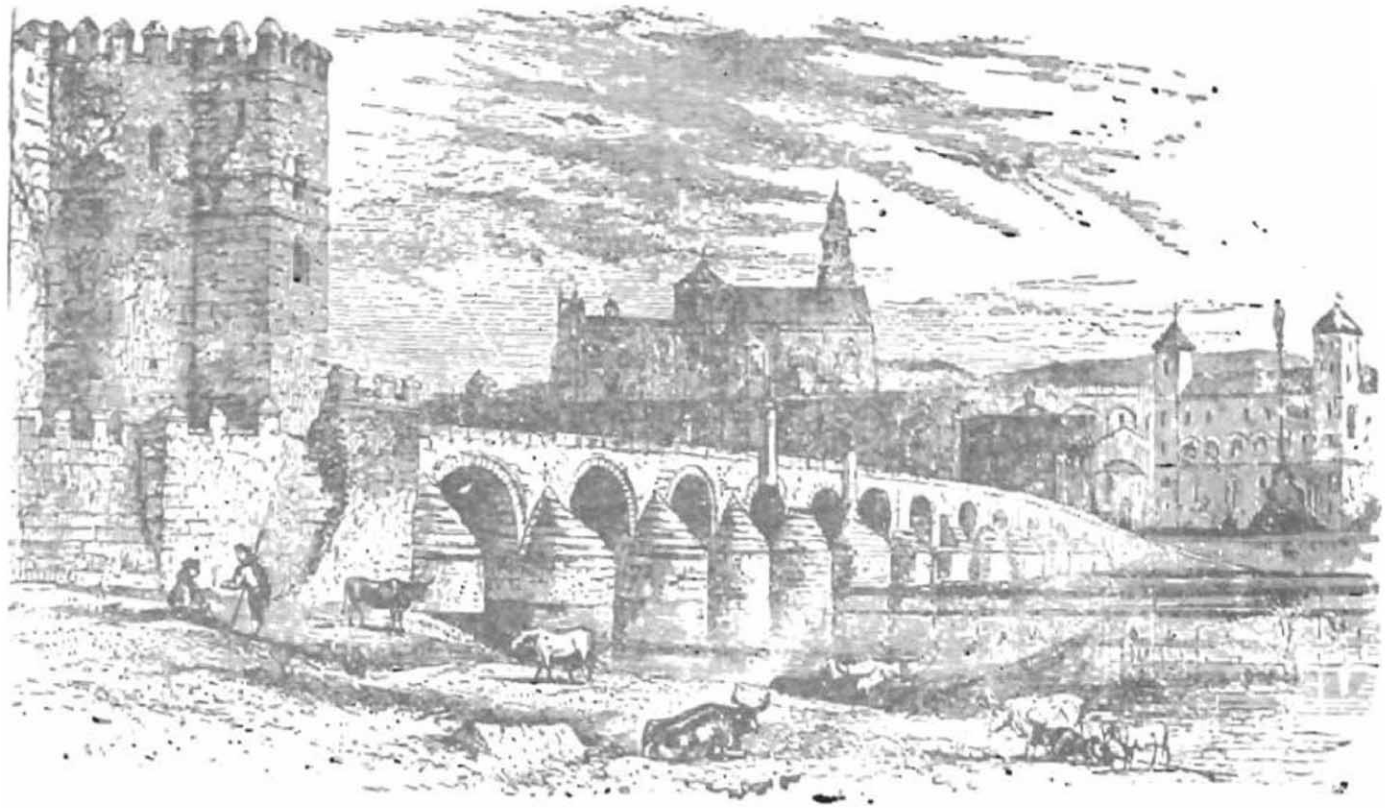
بالمؤيد، وهو لقب الخليفة نفسه ، وفى سنة ٩٩٦م سمى نفسه الملك الكريم والسيد ولم يبق حائلا بينه و بين الخلافة إلا خوفه من الشعب لا من هشام ؛ ولا من الأمراء ، الذين قتل المنصور من كان يخشى بأسه منهم ، ونفى البعض واستنزف أموال الباقين

أما الجيش فكان معظمه من البربر ومسيحى الشمال المرتزقة والصقالبة . فهو فى يده وأطوع له من بنانه

ولم يكن الشعب قد رأى هشاما فى أية مناسبة من المناسبات . ولكنه كان ابن الخليفة الحكم الثانى وحفيد عبد الرحمن الناصر . فالشعب يحبه من هذه الناحية ، ولا يقبل أن ينتزع المنصور الخلافة منه . وكان هنالك أيضاً من يخشى بأسه و يحسب حسابه . وهى الملكة صباح. إذ كانت تكره المنصور. فأخذت تهيء ابنها لتولى الحكم بنفسه ، وأخذ هشام يغلظ فى القول للمنصور كلما قابله . ونشرت صباح رسلها يثيرون الشعب فى قرطبة ، وكاتبت القائد زيرى بن عطية فى بلاد المغرب ليعلن الثورة أيضا ، وأمدته بمال وفير فى أزيار من عسل ، نفيا للشبهات و بلغت هذه المؤامرة سمع المنصور ، فأمر بنقل بيت المال من قصر الخليفة ، واستصدر من الخليفة بقوة تأثيره ودهائه أمرا بأن ينوب عنه فى حكم البلاد وتصريف شئون الدولة ، وتفويضا له فى كل الأمور ، لعدم قدرة الخليفة على القيام بأمور الملك بنفسه . وأمضى على وثيقة التفويض الخليفة وكبار رجال الدولة والوزراء . كل هذا دون أن تعلم صباح. فكان وقع الصدمه عليها شديدا ، مما جعلها تركن إلى العبادة وتنفض يدها من تدبير المؤامرات . وللقضاء على تدابير خصومه أظهر الخليفة هشاما الثانى للشعب ، على جواد مطهم ومن حوله الوزراء وعلى رأسهم المنصور واجتاز

الركب الشوارع الممتلئة بالجنود ، فلم يحرك الشعب ساكنا ، ولم ينفوه أحد بكلمة نابية . ثم أرسل جيشا إلى المغرب بقيادة مولاه واضح لاخضاع زيرى ، وفى الوقت نفسه زحف بنفسه على مسيحى الشمال اظهارا لسطوته وقوة بطشه . وبالاتفاق مع حلفائه أمراء ليون ، أعد حملة على برمودو ، الذى كان قد انتهز فرصه ثورة زيرى فرفض دفع الجزية ، وتسمى هذه الحملة حملة سانتياجودى كومبوستيلا ويسميها العرب شانت ياقب ، نسبة إلى كنيسة فى مقاطعة جليقية ، كان يحج اليهـا مسيحو اسبانيا وايطاليا وفرنسا وألمانيا . وكانت أشهر كنيسة فى أوربا المسيحية بعد كنيسة القديس بطرس فى روما . ولم يكن قد وصل اليها من قبل جيش عربى قط . وفى يونيه سنة ٩٩٧ عاد المنصور إلى قرطبة على رأس جيش من الفرسان . واتجه إلى أوبرتو ، حيث كان أسطوله قد نقل المشاة والسلاح والمؤنة . ودخل المنصور بلاد الأعداء فخرب ودمر كل حصن لقيه ، وحمل جيشه كلى مالقيه من متاع . وأخيرا وصل إلى كنيسة سنتياجو فوجدها خاوية على عروشها . ليس فيها إلا راهب يتعبد ، فتركه فى عبادته ، وحافظ على قبر القديس . أما المدينة نفسها فدمرها تدميرا حتى أصبحت أثرا بعد عين . واجتاح المنصور كل المنطقة المجاورة حتى ثغر كورونه على المحيط الاطلسى فى أقصى شمال اسبانيا . وبعد أن بقى فى مدينة كومبوستيلا أسبوعا، أمر بالعودة . وفى الطريق ودع حلفائه من أمراء الشمال المسيحيين ، بعد أن أحسن صلتهم ، وعاد إلى قرطبة ومعه عدد عظيم من الأسرى المسيحيين ، يحمل بعضهم فوق أكتافهم أبواب كنيسة سنتياجو ونواقيسها ، فأضيفت الأبواب إلى سقف المسجد الجامع ، وصنع من النواقيس مشاكى علقت فى صحن المسجد

وأما الحمله التى أرسلت إلى المغرب، فلم تلق نجاحا باهراً كالذى لقبه المنصور.



قنطرة قرطبة

اذ استولى واضح على ناقور ، وهاجم معسكر زيرى فى غسق الليل ، وألحق به خسارة فادحة ، ولكنه هزم بعد ذلك ، واضطر الى الاعتصام بمدينة طنجه ، حيث أرسل الى المنصور يطلب المدد . فأمده المنصور بجيش تحت قيادة ابنه عبد الملك المظفر ، نزل بسبته . وكان من أثر وصوله أن تقاطر أمراء البربر يقدمون الطاعة و يطلبون الأمان . ولما انضم جيش المظفر إلى جيش واضح زحف الجمع فلقى زيرى وهزمه فى موقعة فاصلة سنة ٩٩٧م ، ومات زيرى سنة ١٠٠١م متأثراً بجراحه ، وعادت بلاده الى سيطرة الخلافة الاسلامية

وفاة المنصور فى اغسطس سنة ١٠٠٢ م :

خرج المنصور فى أواخر أيامه لغزو قشتاله ، وكان يتمنى على الله أن يموت غازيا فى سبيله ، فاستجاب الله أمنيته . وكان دائما يأخذ معه كفنه كلما خرج غازيا . وكان قد اشترى أقطان الغزل وخيوطه من مال أغلته أرض أورثها عن أبيه ، ونسج القماش بناته بأناملهن ، حتى لا يدرج فى كفن قد اشترى بمال غير حلال . وكان كلما خرج غازيا وعاد من غزوه ، نفض عنه وعثاء السفر واحتفظ بالتراب فى آنية . وأوصى أن يمهد له فى قبره من هذا التراب ، و يرش منه فوق جثته بعد دفنها . وفى آخر غزواته انتصر المنصور على قشتاله ، وهدم دير القديس ايمليان ، كما هدم من قبل كنيسة سنتياجو فى جليقيه . وفى عودته شعر بمرض اشتدت وطأته عليه . فأحس بقرب المنية . واستدعى اليه على عجل ولديه عبد الملك وعبد الرحمن فأوصى عبد الملك بالاسراع للقبض على أزمة الأمور فى قرطبة وعهد الى ولده عبد الرحمن فى قيادة الجيش . واستدعى اليه أمراء جنده فودعهم الوداع الأخير . وما لبث أن صعدت روحه الى الرفيق الأعلى . ودفن بمدينة سالم

سنة ١٠٠٢ م بعد حكم دام سبعة وعشرين عاما كانت غرة فى جبين الأندلس.
وبلغ المنصور من رفعة الشأن وسعة الملك بالأندلس مالم يبلغه ملك ولا خليفة قبله أو بعده. ونقش على قبره:

آثاره تنبيك عن أخباره حتى كأنك بالعيان تراه
تالله لا يأتى الزمان بمثله أبداً ولا يحمى الثغور سواه

مثال من عدله وسطوته:

مما يروى عن عدله أنه وقف عليه رجل من العامة، ونادى « يا ناصر الحق! ان لى مظلمة عند ذلك الوصيف الذى على رأسك » وأشار الى فتى صقلبى هو صاحب الدرقة، وكان له أفضل محل عند المنصور. ثم قال « وقد دعوته الى الحاكم فلم يأت ». فقال له المنصور « اذكر مظلمتك ». فذكر الرجل معاملة كانت جارية بينهما فقطعها من غير نصف. فقال المنصور « ما أعظم بليتنا بهذه الحاشية ». ثم نظر الى الصقلبى صاحب الدرقة وقد ذهل عقله وقال: « ادفع الدرقة الى فلان وساو خصمك فى مقامك حتى يرفعك الحق أو يضعك ». ففعل ومثل بين يديه. ثم قال لصاحب « شرطته خذ بيد هذا الفاسق وقدمه مع خصمه الى صاحب المظالم لينفذ فيه حكمه » ففعل ذلك. وعاد الرجل اليه شاكرا. فقال له المنصور « قد انتصفت أنت فاذهب لسبيلك وبقى انتصافى أنا ممن تهاون بمنزلتى » وتناول الصقلبى بأنواع من المذلة وأبعده عن الخدمة.

ومما يروى عنه أنه تمرس ببلاد الشرك أعظم تمرس، حتى محاطفاتها وغادرهم صرعى. ووالى على بلادهم الوقائع. ومن أوضح ماحدث أن أحد رسله سار

فى بعض مسيرته الى غرسية (جارسيا) صاحب البشكنس (مقاطعة الباسك) فوالى فى اكرامه وبره واحترامه . وطالت به المدة حتى حل ذات مرة فى كنيسة من الكنائس . وبينما هو يجول فى ساحتها ، اذ عرضت له امرأة قديمة الأسر . فكلمته وعرفته بنفسها وقالت «أيرضى المنصور أن أظل رهينة الأسر ، ولى عدة سنين بهذه الكنيسة ، أذوق ذل الصغار ، ومرارة الحبس » . وناشدته الله فى انهاء قضيتها اليه . فلما وصل الى المنصور أعلمه بشأنها ، وحدثه بقصتها . فأخذ للجهاد من فوره ، وأصبح غازيا على سرجه ، وأتى غرسية بن شانجه صاحب البشكنس . فأخذته مهابته ، وأرسل اليه ارسالة . فعنفهم المنصور وقال لهم « قد عاقدنى ألا يبقى ببلاده مأسورة ولا مأسور . وقد بلغنى بعد بقاء فلانة المسلمة فى تلك الكنيسة فوالله لا أنتهى عن أرضه حتى أكتسحها » . فأرسل اليه المرأة فى اثنين معها وأقسم أنه ما أبصرهن ولا سمع بهن . وأخبره أن الكنيسة المعهودة قد بالغ فى هدمها تحقيقا لقوله فاستحيا المنصور منه وصرف الجيش عنه

نقد أعمال المنصور :

يرى المستشرق دوزى . أن المنصور استخدم فى خير بلاده تلك السلطة التى التى اغتصبها بوسائل قد نستنكرها ولا نقرها

ولو شاءت المقادير إن تنشئه ملكا متوجا ، لما كان فى مسلكه مايعاب عليه ولعد من خيار الملوك الذين يذكرهم التاريخ ، ولكنه نشأ فى بيئة متواضعة فاضطر لتحقيق مطامحه أن يشق لنفسه طريقا وسط آلاف المصاعب التى كانت تعترضه ومما يؤسف له ، أنه لم يكن يهتم كثيرا بمشروعية الوسائل التى كانت توصله إلى تحقيق أطماعه . ولاشك أنه قد حاز كثيرا من صفات العظماء ، ولكن اذا قسنا

أعماله بمقاييس خلقية عالية ، فحال أن نشعر نحوه بذرة من الحب أو بقدر من الاعجاب

عبدالملك المظفر:

أسرع عبد الملك بن المنصور إلى قرطبة ، ليقبض على السلطة فيها ، ويخلف اباه فى منصب الحجابة . ولقب نفسه بالمظفر ، واتبع سنة أبيه فى الانفراد بالسلطة والحجر على الخليفة هشام ، وابعاده عن كل اتصال بشئون الدولة . وكان الخليفة قد ناهز الأربعين إذ ذاك ولكنه كان ضعيف الهمة ، فآثر العزيمة خاملا راغبا عن الاضطلاع بمتاعب الملك وأعبائه .

وما كاد المظفر يستقر فى قرطبة لدى عودته حتى قامت فتنه نادى فيها الثوار بأن لاملك إلا هشام . وعبثا أرسل الخليفة الضراعة اليهم أن يتركوه وشأنه بعيدا عن هموم الملك ومشاغله ، ولم يزدهم توسل الخليفة اليهم إلا إصرارا ، وأخيرا فرق شملهم عبد الملك المظفر ، وساد الهدوء أمدا قصيرا ، أحبط المظفر فى أثنائه مؤامرة بزعامة الأمير هشام أحد أحفاد عبدالرحمن الناصر ، فقبض المظفر عليه وعلى كبار أنصاره أيضا ، وضرب أعناقهم فى ديسمبر عام ١٠٠٦ م

غزواته :

وفى عهده تألب عليه أمراء الشمال ، وتحالف على قتاله ملكا نفارا وليون ، فسار على نهج أبيه وغزا بنبلونة ، وهزم المتحالفين فى مواطن عدة ، فاعاد بحزمه وعزمه ما كان لأبيه من مهابة وروعة فى قلوب نصارى الشمال . لهذا يعد عهده ضمن عصر الأندلس الذهبى : عهد سلام ورغد ، وأعياد ومواسم على ما وصفه مؤرخو العرب

تطور أحوال البلاد العامة :

على أن البلاد كانت إذ ذاك قد تطورت وطرأ عليها تغيير بين :

١ — فالعصبة العربية كانت قد زالت واندثرت بقضها وقضيضها . ذلك لأن عبد الرحمن الناصر والمنصور بن أبي عامر كانا يجدان في ادماج عناصر الأمة بعضها في بعض توحيدا لأواصرها، وأفلح سعيهما في تكوين شعب أندلسي نسي أفراده أحسابهم وأنسابهم الأولى

وكانت الحرب قد أفنت رؤساء القبائل من العرب ، وافقرت من خلفهم من ذراريهم ، واستطال عليهم كبار رجال البلاط والحاشية ،ممن ارتبطوا بالملوك برباط الولاء ، وسطع نجم الملكية وكشفت شمس ضيائها النبلاء والأمراء .

٢ — رفع المنصور شأن القواد البربر والصقالبة والمسيحين ، فأصبح النفوذ السياسي للجيش وقواده وهؤلاء لم يحفل بهم أحد لضعة شأنهم وحقارة أصلهم وكرههم الشعب لوحشيتهم وظلمهم

٣ — ظهور أفراد من الطبقة الوسطى ممن أثروا عن طريق التجارة والصناعه وهؤلاء أخذوا يتطلعون بأبصارهم إلى مراتب السيادة والجاه ، وينافسون ذوى النفوذ والسودد ،مما أدى إلى نزاع بين طبقات الشعب ، وهكذا كان النظام الاجتماعى يحمل بين طياته أسباب انحلاله : فالصانع كان يكره صاحب العمل والتجار والصناع كانوا يحقدون على الأمراء والكبراء ، والكل كانوا يمقتون القواد وبخاصة البربر من بينهم .

٤ — أصبح الدين عرضة لهجمات المتهجمين ، ولم تفلح الوسائل التى لجأ اليها المنصور ضد الفلاسفة ، وازداد القائلون بوجوب اطلاق حرية الفكر، ممن درسوا الفلسفة اليونانية والعلوم والرياضة . وكثر البحث فى النظم السياسية والعقائد

الدينية . وعبثا حاول الفقهاء أن يوفقوا بين المعتزلة والشيعة وأهل السنة . وازداد القائلون بالالحاد والزندقة ، وظهر فريق ينادى بتوحيد الأديان ومحو كل الفوارق والخلافات بين المذاهب والعقائد ، ويشككون فى معظمها ، ويهرفون بما لا يعرفون سلاحهم فى الجدل المغالطات المنطقية

تبلبلت الأفكار ، وتشعبت الآراء تشعبا كان لا محالة مفضيا الى الصراع والنزاع ، والفتنة والاضطراب وهذا ما كان قد تنبأ به المنصور قبل وفاته . وأصبحت قرطبة تموج كالبركان الذى آذن بالانفجار . وهذه الثورة الناجمة عن تطور اجتماعى ، هى الفرصة التى طالما تمناها أعداء بنى عامر ، لاسقاط دولتهم واقتلاع نفوذهم ، لما لجوا فيه من كبرياء وعتو بغضهم إلى قلوب سلالة الأمراء والنبلاء . وتمناها أنصار بيت عبد الرحمن الناصر ، لاعادة حقوق الخلافة وسلطانها إلى هشام . وتمناها الدهماء لسلب أموال الأغنياء . ونهب متاجر التجار

وفاة المظفر :

ولم يمتد الأجل بالمظفر حتى يشهد تلك الثورة اذ مات سنة ١٠٠٨ م ٣٩٩ هـ وهو فى ريعان شبابه وعضاضة أهابة . وقد ذكر الأثير جـ ٨ ص ٢٢٥ عن سبب وفاته ، أن أخاه عبد الرحمن سمه فى تفاحة شقها بسكين نصفين ، كان قد سم أحدهما . فناول أخاه النصف المسموم ، وأخذ هو الجانب الصحيح وأكله بحضرته ، فاطمأن المظفر ، وأكل مابيده منها فمات ، وهى فى الواقع دعوى لم يقم عليها أى دليل

عبد الرحمن المأمون :

تولى الحجابة بعد أخيه المظفر وكان مكروها من الفقهاء ، لأنه كان من أم

مسيحية بنت رجل يدعى سانكو ، ولذا سماه الفقهاء سانكول (سانكو الصغير) وزاد فى كراهية الشعب له سوء خلقه وادمانه الخمر واستهتاره فى معيشته . وتناقل الناس عنه أنه دس السم لأخيه المظفر فى تفاحة اقتسمها معه . ومهما يكن من الأمر فان سانكول كانت تنقصه المواهب والكياسة ، التى امتاز بهما المنصور والمظفر

مغامرة المأمون :

ومع هذا فقد سار المأمون قدما فى سبيل وعر ، ربأ المنصور والمظفر بنفسيهما عن المسير فيه . فقد كانا يحكمان ويسيطران ، ولكنهما تركا للخليفة الأموى ألقابه ورسومه . فلم يطمعا فى الخلافة ، ولو أن نوالها كان محببا الى نفس كل منهما . أما سانكول فقد تجرأ على الطموح الى ولاية العهد للخليفة . فاستشار ذوى النفوذ ، ومن بينهم القاضى ابن ذكوان ، والوزير ابن برد . ولما اطمأن الى تأييدهما ، طلب الى هشام الثانى أن يجعل اليه الخلافة من بعده ، فاضطرب هشام ، ولكنه أحجم أول الأمر . وما لبث أن استشار بعض الفقهاء ممن كانوا من صنائع ابن ذكوان ، فأشاروا عليه بالقبول . وكتب له العهد الوزير أبوحفص بن برد ، مما أحرج الصدور وأدى الى الانفجار . كل هذا ولم يمض على وفاة المظفر أكثر من شهر واحد

صيغة العهد :

ولأهمية صيغة العهد نثبتها هنا بنصها نقلا عن ابن خلدون :

« هذا ما عهد به هشام المؤيد بالله أمير المؤمنين إلى الناس عامة ، وعاهد

الله عليه من نفسه خاصة ، وأعطى به صفقة يمينه ، بيعة تامة ، بعد أن أمعن فى النظر ، وأطال الاستخارة ، وأهمه ما جعل الله اليه من الامانة ؛ وعصب به من أمر المؤمنين ، واتقى خلول القدر بما لا يؤمن ، وخاف نزول القضاء بما لا يصرف وخشى ان هجم المحتوم ذلك عليه ، ونزل مقدوره به ، ولم يرفع لهذه الامة علما تأوى اليه وملجأ تنعطف عليه ، ان يكون يلقى ربه تبارك وتعالى مفرطا ساهيا عن اداء الحق اليه . ونقص عند ذلك من احياء قريش وغيرها من يستحق ان يسند هذا الأمر اليه ويعول فى القيام به عليه ، ممن يستوجبه بدينه وامانته ، وهديه وصيانته بعد اطراح الهوى ، والتحري للحق ، والزلفى إلى الله جل وعلا بما يرضيه . وبعد ان قطع الاواصر واسخط الاقارب ، فلم يجد احد يوليه عهده ويفرض اليه الخلافة بعده لفضل نفسه وكرم شيمه وشرف مرتبته وعلو منصبه ، مع تقاه وعفافه ؛ ومع رفعته وحزمه أجدر من المأمون الغيب الناصح الجيب ، أبى المظفر عبد الرحمن بن المنصور ابى عامر محمد بن الى عامر ، وفقه الله . إذ كان امير المؤمنين ايده الله تعالى قد ابتلاه واختبره ، وتطرق شأنه واعتبره ، فرآه مسارعا فى الخيرات سابقا فى الحلبات مستوليا على الغايات جامعا للمأثرات . ومن كان المنصور اباه والمظفر اخاه فلا غرو ان يبلغ من سبيل البر مداه ، ويحوى من خلال الخير ما حواه ، مع ان أمير المؤمنين أيده الله بما طالع من مكنون العلم ووعاه من مخزون الاثر ، يرى أن يكون ولى عهده القحطانى الذى حدث عنه عبدالله بن عمرو بن العاص وأبوهريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

« لاتقوم الساعة حتى يخرج من قحطان من يسوق الناس بعصاه »

فلما استوى الاختبار وتقابلت عنده فيه الآثار ، ولم يجد عنه مذهبا ولا إلى غيره معدلا ، خرج اليه من تدبير الأمور فى حياته ، وفرض اليه الخلافة بعد وفاته

قانعا راضيا مجتهدا ، وأمضى أمير المؤمنين هذا وأجازه وأنجزه وأنفذه ولم يشرط فيه مثنوية ولا خيارا وأعطى على الوفاء فى سره وجهره وقوله وفعله ، عهد الله وميثاقه وذمة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم وذمم الخلفاء الراشدين من آبائه ، وذمة نفسه ، أن لا يبدل ولا يغير ولا يحول ولا يزول . وأشهد الله على ذلك والملائكة وكفى بالله شهيدا . . وأشهد وهو جائز الامر ، ماضى القول والفعل بمحضر من ولى عهده المأمون أبى المظفر عبد الرحمن بن المنصور وفقه الله تعالى ، وقبوله ماقلده وألزمه نفسه ما التزمه ، وذلك فى شهر ربيع الاول سنة ٣٩٩ ، وكتب الوزراء والقضاة وسائر الناس بخطوط أيديهم ، وتسمى بعدها بولى العهد » .

الفصل الثالث

ثورة قرطبة وسقوط بنى عامر

ونوب الأمويين لاستعادة الملك

أختنق الشعب هـذا التهجم فثارت ثائرته . وتطلع الرعاع إلى نهب قصر الزاهرة ومابه من أموال ورياش ولكنه ظل عاكفا على السكوت الذى يسبق العاصفه لان وجود الجيش المطيع للمأمون كان يفت فى عضده .

فلما رأى سانكول هذا السكون والهدوء خدعته مظاهره ، فتجهز لغزو ليون. وبدأ زحفه يوم الجمعة ١٤ يناير عام ١٠٠٩ م وعهد بادارة الحكومة فى غيبته إلى ابن عمه عبد الله بن عامر ، وتحصن الفونس الخامس فى رؤس الجبال ولم يشتبك مع سانكول فى موقعه ولما عصفت العواصف الثلجية وسد الثلج معابر الجبال . اضطر سانكول إلى الرجوع إلى طليطلة ، وهناك علم بنبأ الثورة وكان زعيم تلك الثورة محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبدالرحمن الناصر وهو ابن ذلك الامير الذى ائتمر بالمظفر أول حكمه وكان مصيره القتل . وبفضل وفرة ماله وانضمام أمراء بنى أمية اليه وأنصارهم من اليمانيين والمضريين وتأييد حسن بن يحيى له ، جمع الامير محمد ٤٠٠ من الفرسان البواسل ، وانتقى ثلاثين من خيرتهم فهاجم بهم قصر الخليفة فى مساء الخميس ٢٥ فبراير عام ١٠٠٩ م ٤٠٠ هـ .

نجاح الثورة وولاية محمد بن هشام المهدى

اقتحم الفرسان أحد أبواب القصر وقتلوا الحراس ، وقتلوا صاحب الشرطة

وقتلوا عبد الرحمن بن عامر وكان إذ ذاك بقية أتباع الامير محمد بن هشام يثيرون أهل قرطبة ولحقوا به فى القصر على رأس جماهير لا تحصى. فلما يئس الخليفة هشام الثانى من قدوم أية مساعدة تنازل عن الخلافة لمحمد بن هشام. فقبلها هذا واستدعى الفقهاء والكبراء وكتب صيغة التنازل فوقعها هشام المؤيد. وعين محمد عماله وسمى نفسه المهدى، وأمر بالتجنيد فتقاطر الناس اليه من كل فج عميق، حتى ترك النساك خلواتهم، وأسرعوا إلى الانضواء تحت لوائه للقضاء ذلك المستهتر سانكول. وأمر المهدى وزيره بالاستيلاء على الزاهرة فسلمت اليه بلا مقاومة. وهكذا دالت دولة بنى عامر فى سحابة يوم. وفرح أهل قرطبة فرحا شديدا بهذا النصر الحاسم السريع، الذى تم دون اهراق دماء كثيرة وخرج الدهماء عن سيطرة القادة، فهاجوا الزاهرة ونهبوها أربعة أيام، واقتلعوا أبوابها وتركوها أطلالا دارسة، ومع هذا فقد وجد رجال المهدى محمد بن هشام فى خفاياها مليونا ونصف مليون من الدنانير الذهبية ومليونين ومائة ألف درهم وكشفوا بعدها مائتى ألف دينار أخرى. وبعد ذلك أشعلوا النيران فى القصر فذهب كأن لم يغن بالامس

قتل سانكول — عبد الرحمن المأمون

عزم سانكول على اخماد الثورة. ولكن جنده البربر انفضوا من حوله وتسللوا لواذا أثناء مسيره ولحقوا بقرطبة وبايعوا المهدى ورفض الباقون أن يجددوا البيعة لعبد الرحمن بحجة أنهم بايعوه من قبل، فلا حاجة بهم إلى تجديد البيعة — فتوهم أن أنصاره فى قرطبة سيقومون معه عند وصوله، وسينفض عن محمد بن هشام الكثير من أتباعه. ولكن أحلامه هذه تبددت عند وصوله، إذ لم يجد

أحدا . فاضطر إلى التماس العفو من محمد بن هشام وقابل وزيره هشاما فقبل الأرض بين يديه ، وقبل حافر جواده . ولـكن هذه المذلة لم تجده نفعا ، فقبض عليه وضربت عنقه ، وديست جثته تحت سنابك الخيل . ثم أمر المهدى بصلبها فصلبت ، وهكذا دالت دولة بنى عامر بعد أن حمى رجالها الاسلام فى الأندلس وردوا عنه عداته زهاء ثلث قرن من الزمان .

الباب السادس

عصر الفوضى

الفصل الأول

محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر الملقب بالمهدى :

كان المنصور بن أبى عامر يستعين بالبربر ، فاتخذهم جندا له وظلوا أعوانا لأبنائه من بعده ، وعندما ولى الحجابة عبد الرحمن المأمون انتقضوا عليه لسوء سيرته. وكان بنو أمية يكرهون البربر كرها شديدا لأنهم كانوا سبب تغلب المنصور وابنيه وهم الذين أعانوه على اغتصاب سلطة الخليفة الأموى هشام الثانى . وعم السخط على البربر حتى شمل أهل قرطبة ، لما كانوا يلاقونه من استبداد البربر وسوء معاملتهم . فلما تولى المهدى أظهر الحقد عليهم ، وطردهم من القصر وأمعن فى اضطهادهم وأوغر صدر العامة عليهم

وكانت الأمور قد سارت سيرا حسنا فى مستهل خلافة المهدى . فدخل الكل فى طاعته ، ولكن الناس لم يلبثوا أن عرفوا أن زوال بنى عامر لم يحسن من حال أحد ولم يقض على المظالم ، فاستمر تذمرهم . وكان خلق المهدى نفسه موضع شكواهم إذ كان قاسيا ، سفاحا ، معدوم الكفاية ، فاسقا . فبدأ بنزع سلاح سبعة آلاف من العامة مما أسخطهم عليه ، ثم نفى من قرطبة موالى بن عامر من الجند الصقالبة مما دفعهم إلى الانضمام إلى أعدائه . وأغضب الفقهاء بعكوفه على اللهو والقصف وعدم خروجه من القصر . فاشتهر بين الناس بالسكير. وزاد فى حماقته فطرد البربر

من الجيش ، وأمر من بقى منهم بألا يركبوا الخيل ولا يتقلدوا السلاح وأباح دورهم لنهب الرعاع فاصبحوا فى عداد خصومه ومبغضيه . وأصبح شغله الشاغل الخوف من أن يذكر الناس الخليفة هشاما الثانى الذى كان لا يزال حيا فيعيدوه إلى العرش

إعلان وفاة هشام الثانى المؤيد :

هدى المهدى تفكيره إلى اعلان وفاة هشام ، فأحضر جثة مسيحى يشبهه فى ابريل عام ١٠٠٩ م ، ونقلها إلى القصر حيث عرضها على الكثيرين ممن يعرفون هشاما . ورشا من بالقصر حتى أقروا بصحة الوفاه ، ثم دعا العلماء والوزراء والقواد لتشييع جنازة الخليفه ، واحتفلت قرطبة كلها بدفن هشام المزعوم فى مقابر المسلمين باجلال وأبهة يليقان بمقام الخلافة ، ونقل المهدى هشاما الحقيقى إلى قصر أحد وزرائه وسجنه فيه

خروج البربر ومبايعة هشام بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر :

لما اطمأن المهدى من ناحية هشام الثانى لم يعد يكترث بالأخطار ، فأمر بسجن الأمير سليمان بن عبد الرحمن الناصر ، وأذاع أنه سيقتل قواد البربر ، فثاروا عليه وتولى قيادتهم الأمير هشام بن الأمير سليمان المسجون وانضم اليهم غوغاء قرطبة وسار الجميع الى قصر المهدى ، فلما علم المهدى بثورتهم قابل زعيمهم الأمير هشام بن سليمان ، وتحدث اليه على انفراد وأطلق سراح أبيه سليمان بن عبد الرحمن الناصر . ولكن هشاما أصر على طلب الخلافة لنفسه ، فطاوله المهدى وأخذ يحاوره كسبا للوقت . وتصادف أن الجنود البربر من أنصار الأمير هشام بن سليمان استبطأوه

فأخذوا قتلا للوقت ينهبون حوانيت التجار فى حى السروجية . فهب أهل قرطبة إلى أسلحتهم فتقلدوها ، لا دفاعا عن المهدى ، ولكن دفاعا عن أموالهم . واستمر النزاع يوما وليلة . وفى صباح الجمعة ٣ يونيوعام ١٠٠٩ م هزم البربروفروا بلا نظام إلى خارج قرطبة ، وطاردهم أهل قرطبة وانصرف فريق من الغوغاء إلى نهب منازل البر بر وسبى نسائهم ، وأسروا هشاما وابنه الأمير سليمان بن عبد الرحمن الناصر وأخاه أبا بكر وقتلوهم

ولما جمع فلول البربر شتاتهم أقسموا لينتقمن من أعدائهم ولحق بهم سليمان ابن الحكم بن عبد الرحمن الناصر ابن عم هشام المقتول ، فبايعوه بالخلافة ولقبوه بالمستعين بالله .

النزاع بين المهدى والمستعين واستعانة كل منهما بالمسيحيين:

سار البر بر إلى مدينة سالم ، وطلبوا إلى واضح حا كم الحدود أن ينضم اليهم لكنة رفض ، فقاتلوه وهزموه ، وأعوزهم القوت فارسلوا إلى سانكو أمير قشتالة يعرضون عليه التحالف ، و يطلبون منه المعونة . فوجد رسولهم عنده رسلا من قبل المهدى قد سبقوه ، يعرضون على سانكو الخيل والبغال والمال والحلل والجواهر و يعدونه بتسليم مدن وحصون اليه إذا انضم الى المهدى . وكان الموقف على عكس ذلك تماما منذ خمسة أشهر . وكان هذا بدأ الانقلاب فى تاريخ الاسلام بالأندلس ومستهل المآسى المفجعة . إذا أصبح مصيرها فيه بيد الأمراء المسيحيين ، والمسلمون يستمدونهم على اخوانهم وبنى جلدتهم . وبعد أن كان المسلمون هم الآمرون الناهون ، يملون اراداتهم على جميع الأمراء المسيحيين ، إذا بأمير مسيحى واحد

هو أمير قشتاله ، يصبح معقد الرجاء ، ومناط الآمال ، والمقرر لمصير الاسلام فى الأندلس

ولما كان سانكول على بينة من أمر المهدى وضعف مركزه ، فانه وعد البربر بالمساعدة إن هم تعهدوا بتسليم الحصون التى عرضها عليه رسل المهدى . ولماقبلوا ذلك ، صرف سانكو رسل المهدى وأرسل إلى معسكر البربر طعاما وفيرا (١٠٠٠ ثور و ٥٠٠٠ رأس من الغنم و ١٠٠٠ مركبة من الاطعمة)

فلما انتعشوا وأطعموا من جوع زحفوا ومعهم سانكو على مدينة سالم ، ودعو واضحا مرة أخرى إلى الانضمام اليهم ، ولما أبى تركوه وشأنه ، وأسرعوا بالمسير إلى قرطبة . فتبعهم واضح ، ولكنهم هزموه وردوه على أعقابه . ولما قاربوا مدينة قرطبة خرج المهدى للقائهم وعسكر فى السهل الواقع شرقى المدينة . فدارت عليه الدائرة فى ٥ نوفمبر عام ١٠٠٩ م — ٤٠٠ ﻫ وهزم اتباع المهدى من أهل قرطبة وفى فرارهم غرق منهم كثير فى نهر الوادى الكبير . ويقول ابن حيان المؤرخ ان عدد من مات فى ذلك اليوم عشرة آلاف . أما المهدى فهرب إلى قصره ولما حاصر البربر القصر أخرج المهدى الخليفة البائس هشاما الثانى من محبسه وتنازل له عن الخلافة ، ونادي بنفسه وزيرا له ، وأرسل القاضى ابن ذكوان إلى البربر يخبرهم بذلك فسخروا منه وقالو :

« بالامس مات هشام وسرت أنت وأميرك فى جنازته . وصليتم عليه ، فكيف يكون اليوم حيا ؟ واذا كان ما تقوله حقا فنحن نشكر الله على حياة هشام ، ولكن لاحاجه لنا به فسليمان أميرنا وخليفتنا »

وأخذت أهل قرطبة رهبة جند سليمان فاقبلوا يسلمون عليه بالخلافة . وفر

المهدى إلى طليطلة ، وعاد سانكو وجنده القشتاليون مثقلين بالأسلاب والغنائم إلى بلادهم . وظل المسكين هشام الثانى المؤيد سجينا فى يد سليمان كما كان فى يد المهدى ، بعد أرغمه سليمان على التنازل له عن الخلافة مرة أخرى

وكان المهدى محمد بن هشام قد وصل إذ ذاك إلى طليطلة حيث رحب به أهلها . وتبعه سليمان المستعين بالله الذى وصل إلى مدينة سالم ، فانضم اليه كثير من جندها الصقالبة وأخلى واضح المدينة ، فدخلها سليمان بلا مقاومة . وخابر واضح أميرى قطلونية المسيحيين ، ووعدهما بتسليم بعض المدن ان أمداه بجند من عندهما . ولما وصله المدد المطلوب سار مع حلفائه حتى انضم إلى جيش المهدى أما سليمان فعاد أدراجه إلى قرطبة ، وأراد البربر أن يظهروا الهزيمة ليستدرجوا جند قطلونية ثم يكروا عليهم بعد ذلك ، ولكن سليمان لم يدرك غرض البربر ، فظنهم قد هزموا حقا ، وفر من الميدان

على ان فرسان البربر لم يتأثروا بفراره ، وظلوا يستبسلون فى قتالهم ، وقتلوا ٦٠ من رؤساء الجند المسيحيين . وأخيرا انسحبوا إلى الزهراء ، وعاد المهدى الى قرطبة . ولما دخلها وقعت المدينة المسكينة فريسة فى أيدى الجند القطلونيين المسيحيين ، الذين نهبوها بعد ما نهبها قبلهم بستة أشهر جنود البربر وقشتالة . وتنازع الفريقان المدينة مرارا

وارتكب المسيحيون القطالونيون أثناء ذلك فظائع مريعة . وأخيرا رفض القطالونيون البقاء فى خدمة المهدى لما لحقهم من الخسائر . فتركوا جيش المهدى راجعين إلى بلادهم . ومن الغريب أن أهل قرطبة حزنوا لرجوعهم إلى بلادهم وأخذوا يعزون بعضهم بعضا كمن فقد عزيزا عليه لأنهم كانوا يتوقعون من

البربر ، عند انفرادهم فى الميدان ، فظاعة تفوق كل ما ذهب اليه القطالونيون المسيحيون

إعادة هشام الثانى مرة أخرى إلى العرش

أخيرا فكر زعماء الجيش فى خلع الخليفتين ، واعادة هشام الثانى المؤيد إلى العرش ودبروا لذلك مؤامرة انتهت بقتل المهدى ، وتولية هشام الثانى ، واقامة واضح حاجبا له . وكانت مدة ولاية المهدى منذ قام إلى أن قتل عشرة أشهر

الفصل الثانى

استفحال الفوضى

لم يكن من الصعب على واضح أن يستغل ضعف هشام الثانى ، فيسيطر عليه كما سيطر عليه المنصور والمظفر والمأمون من قبل . لكن الجو لم يكن قد قدصفا له بعد ، إذ كان هناك سليمان المستعين بالله وجنوده البربر خارج قرطبة وكان واضح قد اتخذ الصقالبة جندا له ، فاغضب هذا فريقاً من أهل قرطبة . وهؤلاء تآمروا مع سليمان على أن يهاجم البربر قرطبة فى يوم معين فينضمون اليهم وكشف واضح المؤامرة ، وقتل زعماءها وأفسد التدبير . ثم صد هجمات سليمان وجنده البربر وردهم مهزومين

أمير قطالونيا يساوم الفريقين المتنازعين

لما رأى سليمان المستعين بالله ضعف موقفه ، سعى فى الحصول على معونة سانكو أمير قطالونيه ، وحليفه السابق . فارسل سانكو خطابا إلى واضح يهدده فيه بالانضمام إلى سليمان إن لم ينزل له واضح عن بلاد وحصون سماها . ولخطورة الأمر لم يقبل واضح أن يأخذ المسؤلية على عاتقه . فدعا مجلسا من علية القوم ووجوه الدولة ، وعرض عليهم مطالب سانكو ، وفوض اليهم الرأى فيما يفعلون . فاضطروا إلى إجابة مطالبه خشية أن ينضم إلى البربر ، وتغاضوا عن كل الاعتبارات الوطنية . وفى سبتمبر عام ١٠١٠ م عقد واضح مع سانكوا معاهدة سلمه بمقتضاها مائتى حصن وخمس بلاد . ولما رأى الأمراء المسيحيون

الآخرون أن حصون المسلمين لقمة سائغة يسهل الاستحواذ عليها بقليل من التهديد والوعيد ، حذوا حذوه وفى كل مرة كانت تجاب مطالب المسيحيين . فاصبحت الدولة الاسلامية التى تمزقها الحروب الداخلية ، وتستنزف ثروتها الفتن والاضطرابات ، غنيمة سهلة لاعدائها . ومما يشك فيه أن أهل قرطبة كانوا إذ ذاك مغتبطين بزوال بنى عامر كما اغتبطوا يوم أن ثاروا على سانكول ، غير حاسبين للعواقب حسابا . فاصبحوا مرغمين على أن يطأطئوا الرءوس أمام أعدائهم المسيحين وقضى عليهم أن يتخبطوا فى الفتن خبط العشواء

حصار الزهراء وتخريبها

واستمر البربر باسم أميرهم سليمان المستعين ، يعيثون فى الأرض فسادا . ثم حاصروا قرطبة وتحولوا عنها إلى الزهراء ، فحاصروها ثلاثة أيام ، ثم دخلوها فى ٤ نوفمبر سنة ١٠١٠ م . وتلى سقوط الزهراء فى أيدى البربر مذبحة فظيعة قتل فيها جميع من بالزهراء من رجال ونساء وأطفال . ولم يترك البربر بها أحدا حتى من احتموا بالمسجد . وبعد نهب الزهراء ، أعمل البربر فيها النيران ، فاحترقت مدينة من أجمل مدن أوربا وأصبحت أكواما من رماد . واستمر البربر يخربون ضواحى قرطبة . ففر أهلوها إلى داخل أسوار المدينة ، مما أحدث بها مجاعة ذهب ضحيتها الفقراء من السكان ، وأصبحت الحكومة فى عوز شديد ، حتى أن واضحا اضطر إلى بيع البقية الباقية من مكتبة الحكم ، للحصول على مال يسير — وحدث مثل ذلك فى مدن أخرى كان يحاصرها البربر ، فاصبحت الأندلس فى حالة تستوجب الرثاء .

تتابع الفتن والحوادث فى قرطبة

ازداد الحال سوءا فى عام ١٠١١م مما لقى اليأس فى قلب واضح ، فارسل إلى سليمان المستعين بالله يطلب الصلح . ولما علم زعماء الصقالبة بمساعيه قتلوه وحملوا رأسه على رمح ، وطافوا به فى شوارع قرطبة سنة ١٠١١ م فحكم المدينة من بعده ابن أبى وضاء . وقام علماء الدين يبثون النخوة والبسالة فى قلوب أهل قرطبة ، فقاتلوا أعداءهم البربر حتى صدوهم عن مدينتهم وانتصروا عليهم. وقاتل أهل قرطبة بقيادة ابن أبى وضاء قتال المستميت حتى اضطروا البربر إلى فك الحصار عن المدينة ، كما طردوهم من حول بلنسيه . ولكن البربر عادوا إلى الظهور امام قرطبة مرة أخرى ، وأخيرا انتصروا على المدافعين عنها ، ودخلوها فى ١٩ ابريل عام ١٠١٢ ، وسفكوا دم أهلها فجرى أنهارا ونهبوا المنازل وخربوا كل عامر ، وأشعلوا النيران فى القصور ، ولم يتركوا فقيها ولا شيخا ولا وليدا إلا قتلوه . وكان فى عدة من قتلوا الشيخ الوقور سعيد بن المنذر امام المسجد الجامع ومروان بن حضير وابن الفردى قاضى أشبيلية . كما أحرقوا قصر ابن حزم أشهر علماء عصره ، وسبوا نساؤه . وفى الغداة ذهب سليمان المستعين بالله إلى قصر هشام المؤيد ، ودعاه للحضور بين يديه . فلما حضر أنبه على قبوله الخلافة بعد التنازل عنها . فاعتذر هشام بأنه مغلوب على أمره . وقبل سليمان عذره ثم قتله سرا بعد ذلك وجلس سليمان على العرش وبايعه الناس فى شوال سنة ٤٠٣ هـ وتلقب بالظافر مضافا إلى المستعين . وكان الظافر هذا أديبا بليغا وشاعرا مجيدا اشتهر برقة الغزل . فمن رقيق شعره :

عجبا يهاب الليث حد سنانى　　وأهاب لحظ فواتر الأجفان

لا تعذلوا ملكا تذلل فى الهوى   ذل الهوى عز وملك ثان
ما ضر انى عبدهن صبابة   وبنو الزمان وهن من عبدانى
إن لم أطع فيهن سلطان الهوى   كلفا بهن فلست من مروان
وإذا الكريم أحب أمن أليفه   خطب القلى وحوادث السلوان
وإذا تجارى فى الهوى أهل الهوى   عاش الهوى فى غبطة وأمان

تتائج تلك الفوضى :

كان من الطبيعى أن تحدث تلك الفوضى النتائج المترتبة عليها . ومن المحتم أنها كانت لا بد أن تؤدى «أولا» إلى الوهن والتفتت فى ملك الاسلام «وثانيا» إلى إتاحة الفرصة للامراء المسيحيين لتحقيق أحلامهم القديمة

فانفصلت عن قرطبة ولايات كثيرة ، واستقل كل أمير أوحاكم بما تحت يده . فتفككت أواصر الوحدة وتمزق الملك الفسيح الى دويلات صغيرة . لكل منها أمير يصور له الغرور انه ملك كبير ، يصح أن يكون للمؤمنين أميرا ويحسده أمراء دويلته فيتواثبون على عرشه ويصارعهم ويصارعونه. فاذ استتب الأمر لأمير منهم طمع فى ملك جيرانه ، والكل يتزلف للامراء المسيحيين، يستنصرهم ويستمديهم على بنى ملته . فقام ابن عباد فى أشبيلية ، وابن ذى النون فى طليطلة وخيران العامرى فى بلنسية وابن الافطس ببطليوس ، وابن هود بسرقسطه ومجاهد العامرى بدانية ، وهؤلاء كلهم عرب . ومن البربر البرزالى فى قرمونة ، وباديس فى غرناطة . أما الخليفة الأموي سليمان المستعين بالله فاقتصرت خلافته على قرطبة وباغة وثلاث مدن أخرى

وانتهز الأمراء المسيحيون الفرصة لزحزحة العرب جنوبا ونمت فى صدورهم أمنية طردهم الى أفريقية ، وإعادتهم من حيث أتوا

استمرار الفوضى فى قرطبة :

أراد البربر أن يستمتعوا بما نهبوا ، فرغبوا فى السلام . كما تاقت نفس الخليفة سليمان المستعين بالله أيضا الى التنعم والاستمتاع ، فانصرف الى اللهو وكتابة الاشعار والتبحر فى الادب . ولكن الناس كرهوه إلى حد المقت . لانه كان فى نظرهم مغتصبا للعرش ، سفاحا ، وصل إلى ما وصل اليه على اشلاء قومه وأطراف بلاده الممزقة ، و بفضل المسيحيين والبربر

وترك المستعين جنوده يعيثون فسادا فى الأرض ، ولما طلب من أمراء الاقاليم الدخول فى طاعته هزأوا به وسخروا منه ، ودعوا فى مساجدهم لهشام الثانى المؤيد وهم لا يعلمون أنه قد مات غدرا بيد سليمان

الفصل الثالث

سقوط المستعين وقيام دولة بنى حمود :

كان هنالك من موالى بنى عامر بقرطبة زعيم صقلبى اسمه خيران . فلما اقتحم المستعين بالله قرطبة للمرة الثانية كان خيران يقاتل فى صفوف هشام الثانى المؤيد ، ولما غلب الصقالبة على أمرهم ارتدوا منهزمين ، وتفرقوا فى البلاد ، فاستولى خيران على المرية وأغار على البربر فى الجهات المجاورة لها ، فقوى أمره ودعى للخليفة هشام الثانى المؤيد

وكان من زعماء البربر الذين قادوا جند سليمان المستعين بالله عند ما اقتحم قرطبة أميران من الأدارسة يرجع نسبهما إلى الحسن بن على بن أبى طالب : وهما على ابن حمود الذى ولاه المستعين سبته وطنجه ، وأخوه القاسم حاكم الجزيره الخضراء ولا يفصل امارتى الاخوين الا مجاز طارق . وكان على بن حمود أصغر الأخوين وأكثرهما طموحا . فتاقت نفسه إلى الاستيلاء على قرطبة وتطلع إلى الخلافة وشجعه على تحقيق أمنيته ما كانت فيه الخلافة الأموية الهزيلة من ارتباك وضعف. فتحالف مع خيران العامرى أمر المرية على اقتحام قرطبة واعادة هشام الثانى المؤيد إلى عرش الخلافة ان كان حيا ، والمناداة بنفسه خليفة ان كان هشاما قد توفى . ولما تم التحالف عبر على البحر من العدوة الافريقية إلى الاندلس ، واستولى على مالقة وانضم اليه حاكمها عامر بن فتوح . ثم سار الجميع الى قرطبة ولما كان على بحكم طول اقامة أسرته بالمغرب معدودا من قادة البربر ، فقد

انضم اليه فريق كبير من بربر قرطبة لشجاعته ونبله ، كما انضم اليه الامير زاوى حاكم غرناطة . وكلما أرسل سليمان المستعين جيشا من جنده البربر لمقاتلة على بن حمود وحليفه خيران ، تظاهر الجيش بالهزيمة وعاد من غير قتال . وأخيرا أشار عليه أحد أمراء جنده بأن يقود الجيش بنفسه واذا أراد الفوز . فلما عمل بهذا الرأى قبض عليه جنده وسلموه إلى على بن حمود الذى دخل قرطبة من غير مقاومة فى يوم الاحد ١٦ يوليه عام ١٠١٦ م — ٤٠٧ هـ

وكان أول ما عنى به خيران البحث عن هشام الثانى المؤيد . ولما لم يعثر له على أثر سأل عنه سليمان فى حضرة الوزراء والفقهاء ، فقال انه مات . وأمن على قوله أحد خدام هشام . ولكن هشاما لم يكن قد مات على ما يقال . وظلت حقيقة أمره سرا غامضا ، ولغزا مستغلقا . ويقال أن هشاما المؤيد بالله فر من سجنه أيام سليمان ، وظل مختبئا فى قرطبة مدة ، ثم اشتغل كعامل عادى ثم فر الى آسيا بعيدا عن متاعب الملك وهمومه

وهكذا كانت نهايته مأساة محزنة . ولما لم يثبت أن هشاما لايزال على قيد الحياة بايع الناس عليا بن حمود حسب ما اتفق عليه الحليفان من قبل وأمر على بقتل سليمان وأخيه وأبيه.

خلافة على بن حمود وقيام النزاع بين الحليفين :

وحكم على البلاد حكما عادلا فقمع وحشية البربر ومنع السلب والنهب ، وحمى الشعب من الظلم ، وكان يستمع للشعراء و يحسن صلتهم .

وأحسن خيران الولاء للخليفة أول الامر ، ولكنه لم يلبث أن قلب له ظهر المجن ، لما فشل فى الوصول الى ما وصل اليه المنصور محمد بن أبى عامر فى

عهد هشام الثانى المؤيد . وأخذ يحيك المؤامرات مع أمراء الأسرة الأموية وعمل جاهدا لاعادة الخلافة الى أمير من بينهم . ووقع أختيـاره على الامير عبد الرحمن الرابع بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر . فلقبه بالمرتضى ودعا العرب الى الالتفاف حوله واحياء عهد خلافتهم واسقاط خلافة البربر . فايقظ الفتنة النائمة ، وأثار العنصرية من جديد ، ولبي دعوته المنذر الهاشمى حاكم سرقسطة الذى زحف جنوبا ومعه حليفه ريموند المسيحى أمير برشلونة وانضم الى خيران كما انضم اليه كثير من أهل الاندلس . ولما تـكشفت لعلى بن حمود حقيقة أمر من نصب نفسه لحمايتهم ورد الظلم عنهم ، ألقى بنفسه فى أحضان البربر وأطلق أيديهم فى معاملة أهل قرطبة كما يشتهون . وفرض ضرائب باهظة على الأهالى وصادر أوقاف المساجد بمقتضى فتوى من أحد الفقهاء المتزلفين واسمه ابن الجيار وعاد حكم الارهاب إلى المدينة التعسة مرة أخرى . ونشر على بن حمود عيونه فى المدينة ، حتى أصبـح نصف الناس جواسيس على النصف الآخر . وفى نوفمبر عام ١٠١٧ م خرج لملاقاة أعدائه ، ولـكن هطول الأمطار اضطره إلى أن يعود أدراجه

وفاة على بن حموده وولاية ابنه القاسم:

فى صبيحة يوم ١٧ ابريل عام ١٠١٨ م تفقده جنده فوجدوه قتيلا فى حمامه . قتله ثلاثة من موالى الأمويين ممن كانوا فى خدمته . وفرح أهل قرطبة لقتله ولـكن البربر أقاموا مكانه ابنه القاسم ولقبوه بالمأمون . أما خيران وحليفه الجديد المنذر الهاشمى فقد بايعا بالخلافة عبد الرحمن الرابع المرتضى وزحفا على غرناطة لمقاتلة زاوى . ولـكنهما كانا يبغيان من نصرته واحياء الخلافة الأموية ، أن يكون المرتضى شبحا يديران باسمه الأمور . فلما رفض أن ينزل لهما عن سلطانه

انضما إلى زاوي وانشق الحلفاء على أنفسهم ؛ فهزم المرتضى وفر إلى إحدى القرى القريبة حيث قتل . وكانت خيانة خيران سببا فى القضاء على الصقالبة ، إذ ضعفت شكوتهم وأصبح البربر أصحاب الحول والطول فى البلاد

وحكم القاسم حكما عادلا ، فأمن الخائف . ونشر السلام والهدوء ، وخفف الضرائب وتصالح مع خيران ، فجمع حوله القلوب . وظل كذلك حتى شك فى ولاء البربر فاستخدم جيوشا من العبيد الزنوج ليحلوا محل البربر مما أثار ثائرتهم

وانتهز هذه الفرصة ابن أخيه يحيى للعمل على اسقاط عمه ، فضم اليه البربر وعبر البحر من العدوة الافريقية إلى الاندلس ، واستولى على مالقة ، حيث انضم اليه أخوه باديس الذى كان حاكما عليها من قبل عمه القاسم

ولما اقترب يحيى من قرطبة فر منها القاسم إلى أشبيلية فى ١٢ أغسطس عام ١٠٢٢ م ودخل يحيى المدينة وما لبث أن انفض من حوله الزنوج والبربر ففر إلى مالقة وعاد القاسم إلى قرطبة فى فبراير عام ١٠٢٣ م

ولم يمض كبير وقت على ذلك حتى ثارت قرطبة مرة أخرى وطردت القاسم فهرب الى أشبيلية ؛ ولكن أهلها أغلقوا أبواب مدينتهم دونه ؛ فسار الى مالقة وهناك قبض عليه يحيى وقتله

الفصل الرابع

محاولة إعادة الخلافة الأموية بقرطبة وظهور الميول الجمهورية :

أصبح على أهل قرطبة أن يقرروا مصيرهم بأنفسهم . نعقدوا لذلك مؤتمرا فى نوفمبر عام ١٠٢٣م واقترح الوزراء اعادة الخلافة الأموية ، ورشحوا لذلك ثلاثة أمراء ولكن أحدهم وهو الأمير عبد الرحمن أخو الخليفة المهدى (محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر) استطاع أن يحيط نفسه يوم الانتخاب بنفر من ذوى الخناجر القوية الذين ملأوا الجو هتافا باسمه . فاضطر الوزراء أن يبايعوه كما بايعه جميع من حضر الجلسة بالمسجد الجامع ، فلقب نفسه بالمستظهر بالله واتخذ ابن حزم وزيرا له

عبد الرحمن الخامس المستظهر بالله :

اشتهر عبدالرحمن الخامس المستظهر بالله بغزله الرقيق كما اشتهر وزيره ابن حزم بالعلم والفضل ، فقد كان أكبر علماء عصره وأقدر كتاب الأندلس ، كما كان من أعظم شعرائها . ولكن عرش الأدب كان أسهل استبقاء من عرش الخلافة . وبخاصة فى بيئة مضطربة . فلم تمض بضعة أسابيع حتى قامت ثورة عمادها الغوغاء والعاطلون بزعامة محمد بن عبدالرحمن بن عبيدالله بن عبدالرحمن الناصر، وانضم اليهم وجوه أهل قرطبة وحرس الخليفة . وانتهت الثورة بالقبض على المستظهر وقتله وتولية محمد بن عبدالرحمن وتلقيبه بالمستكفى بالله وهو أبو ولادة بنت المستكفى

الشهيرة . وقتل الوزراء جميعا ما عدا ابن حزم ، الذى انصرف بعد ذلك للبحث العلمى والتبحر فى الأدب

خلافة محمد بن عبدالرحمن المستكفى ووزارة أحمد بن خالد النساج:

اتخذ المستكفى أحمد بن خالد النساج صديقه الحميم حاجبا . فأغضب باختياره هذا وجوه الدولة وكبرائها وكان حكمه قصير الأمد . وتخبط فى كثير من الأخطاء وارتكب كثيرا من المظالم ، منها القبض على ابن حزم وابن عمه عبد الوهاب ابن حزم . فهرب من ظلمه بعض الكبراء ومنهم أبو عامر بن شهيد . ولجأوا إلى يحيى بن على بن حمود ، وطلبوا منه أن يضع حدا للفوضى الضاربة أطنابها فى قرطبة واستجاب لهم يحيى

ولم يكد يذاع فى قرطبة نبأ ما يجهزه يحيى من جنود الزحف عليها حتى ثار أهلها على النساج وزير المستكفى وقتلوه ، واضطر المستكفى إلى الفرار من قرطبة متخفيا فى زى امرأة مقنعة ، ولجأ إلى قرية على حدود قرطبة حيث دس له أحد أتباعه السم

التراوح بين إعادة خلافة بنى حمود أو اختيار خليفة أموى ثم الانتهاء إلى الجمهورية:

ظلت قرطبة ستة أشهر بلا خليفة وكان يحكمها مجلس من الكبراء . ولكن هذا النظام لم يكن مقبولا لدى أهلها الذين ألفوا الحكم الملكى طويلا . فاستقر الرأى أخيرا على عدم اختيار أمير من بنى أمية لأن التجربة قد أسفرت مرارا وتكرارا عن الفشل ، ووجوب اختيار أمير لديه جيش يكبح جماح الفوضى ، ويمنع الشغب ويقضى على السلب والنهب وسفك الدماء ، الذى مل منه الجميع . واتفق الناس

أخيرا على عرض الخلافة على يحيى بن على بن حمود أمير ملقه فقبلها ولـكنه لم يكترث بها ، بل ظل مقيما حيث هو . وأرسل من قبله جنودا لاقرار النظام فى قرطبه

وأظهرت الحوادث بعد نظر يحيى . إذ مل أهل قرطبة حكم البربر ، فتآمروا مع زعيمى الصقالبة خيران العامرى أمير المريه ومجاهد العامري أمير دانيه على طردهم . وتم لهم ذلك بمعونة الجند الصقالبة المقيمين فى قرطبه . إذ فتحوا أبوابها للقوات التى أرسلها خيران ومجاهد . و باغت الجميع البربر وطردهم من المدينة .

وحاول مجلس كبراء المدينة إعادة الحكم الأموى . فاختار الوزير أبو الحزم ابن جهور الأمير هشام أخو الخليفة عبد الرحمن الرابع المرتضى بالله وتمت البيعة لهشام الثالث ولقب بالمعتمد باللهولـكنه كان إذ ذاك بعيدا عن قرطبه . فاستدعى اليها . وحال أمراء البلاد الواقعة على طريق قرطبه دون وصوله . وأخيرا وصل اليها عام ١٠٢٩

وسرعان ما خيب هشام الثالث المعتمد بالله ظنون أهل قرطبه فيه . إذ لم يكن على شيء من المقدرة ، كان ضعيف الارادة ، بليد الذهن ، عاكفا على اللهو . فترك مقاليد الأمور كلها فى يد وزيره الحكم بن سعيد . وأساء وزيره إلى الفقهاء و إلى الشعب بما فرضه من الضرائب ثم نافسه ابن جهور ؛ وعزم على اسقاطه واسقاط الخليفة معه . فاتفق مع مجلس الكبراء على خلع هشام الثالث واستطاع الأمير أميه إثارة الجنود الذين كانت أعطياتهم قد تأخرت . وفى تلك الثورة قتل الوزير الحكم بن سعيد عام ١٠٣١ م ونهب الجندقصرالخلافة ، ودخلوا مقاصير النساء فجردوها من كل ما فيها . واعتصم هشام الثالث ببرج عال ، واستغاث بأهل قرطبة فلم يغثه أحد ، وجلس أميه على عرش الخلافة مستعجلا

الحوادث ، كأن قد استتب له كل شيء . ولم يدر بخلده ما كان يرتب إذ ذاك في بيت ابن جهور

الغاء الخلافة و إعلان الجمهورية :

اجتمع مجلس الكبراء بدعوة من ابن جهور، وأخذوا يتشاورون فيما يضع حدا لتلك الأحداث الجسام . وأخيرا استقر رأيهم على الغاء الخلافة و إعلان انتهائها ولما اتفقوا على ذلك ركبوا ، وحولهم حراسهم ومواليهم وخدمهم والكل مسلحون إلى قصر الخلافة ، ونادوا بالكف عن النهب والسلب ، فرضخ الجند لأمرهم رهبة من تلك القوى المسلحة التي كانت تصحبهم أو اجلالا لمقامهم ، أو لأنه لم يعد هناك ما ينهب و يسلب أو لتلك الأسباب مجتمعة . ثم نادى الكبراء هشاما الثالث بالنزول من البرج ووعدوه بالأمن ، أن تنازل عن الخلافة . ولما نزل لهم عنها حبسوه هو ونساؤه في قبو مظلم بالمسجد الجامع . وفي المساء دعا الوزير ابن جهور أهل قرطبة الى المسجد الجامع للتشاور في أمر هشام الثالث ، فاتفق الحضور على اعتقاله في حصن من الحصون بلا امهال ، وكلفوا بعض شيوخهم بنقل هذا القرار إلى هشام . فلما ذهبوا إلى القبو لابلاغه قرار المؤتمر الشعبي شهدوه جالسا القرفصاء على الأرض ، وحوله نساؤه يبكين وهن في ملابس مهلهلة ، وقد احتضنته ابنته الصغيرة لتنشد الدفء من البرد الشديد ، وقد كادت الصغيرة المسكينة أن تهلك من الجوع . فكان أول همه قبل سماع رسالتهم أن يتضرع اليهم باحضار لقمة تتبلغ بها ابنته الجائعة

و بعد سجن هشام الثالث أعلن مجلس الكبراء انتهاء الخلافة ، وأن المجلس هو الحاكم الشرعي للمدينة . واتجه ابن جهور إلى قصر الخلافة حيث قبض على

أميه ، وأمر بنفيه إلى خارج حدود قرطبه حيث اختفى ولم يعد أحد يسمع عنه شيئا.

أما هشام الثالث فقد فر من سجنه ، ولجأ إلى الأمير سليمان بن هود أمير لارده . وهناك أقام إلى أن توفى عام ١٠٣٦ م — ٤٢٨هـ و بعد خمسة أعوام كان فيها نسيا منسيا لا يحفل به أحد ، وتلك كانت خاتمة الخلافة الأموية بالأندلس

حالة قرطبة تحت الحكم الجمهورى :

آل الحكم فى قرطبة إلى مجلس شيوخها الذى عهد فى إدارة المدينة إلى الوزير أبى الحزم جهور بن محمد بن جهور ، يساعده عبد العزيز بن حسن ومحمد بن عباس فصلح حالها تحت إدارته ، إذ اتبع سياسة حازمة حكيمة ، فطرد البربر واستبدل بهم حرسا وطنيا ، وكان لايقطع أمراً إلا بمشورة المجلس ، ولم ينتقل إلى قصر الخلافة بل ظل فى منزله الخاص . وكان نزيهاً فى تصرفاته المالية ، فلم يبق خزانة الدولة فى بيته بل وضعها تحت اشراف نفر من أطهر الناس كفا ، وعقد معاهدات صداقة وحسن جوار مع الدويلات المحيطة بقرطبة ، فهدأت الفتن وعاد الأمن الى نصابه ، وتقدمت الصناعة وازدهرت التجارة ، وانخفضت أسعار الأقوات ، واتسعت قرطبة واستوطن بها كثير من وجوه من حولها من المدن . وازدهر عمرانها ، وتجدد ما تخرب من مبانيها ولكن لم تعد اليها منزلتها السياسية التى فقدتها بفقد الخلافة

الفصل الخامس

حالة أشبيلية

انتقلت المنزلة السياسية التي كانت لقرطبة الى أشبيليه إذ كانت المدينتان مرتبطتان فى مصيرهما السياسى ارتباطا دام سنينا طويلة تحت الحكم الأموى ، ثم حكم بنى حمود ، فلما حدثت ثورة ۱۰۲۳ م فى قرطبة حذت اشبلية حذوها وذلك ان القاسم بن حمود لماطرد من قرطبة فر منها إلى اشبيلية حيث كان له فيها جيش من البربر بقيادة محمد بن زيرى ، وكان بها ولداه حاكمين عليها وكان اهل اشبيلية قد قبلوه ملكاً عليم خوفا من بطشه وقسوة جنده ، ولكن المثل الذى ضربته قرطبة فى امكان التخلص من البربر وطردهم شجع اشبيلية على محاكاته ، واستطاع قاضى اشبيلية أبوالقاسم محمد بن عباد ان يستميل اليه القائد محمد بن زيرى بان مناه بالحصول على عرش المدينة ثم عقد اتفاقامع امير قرمونة ، و إذ ذاك تسلح أهل أشبيلية وانضمت اليهم حامية المدينة بقيادة ابن زيرى وحاصرالجميع قصر ولدى القاسم . وفى ذلك الوقت وصل القاسم إلى أبواب أشبيلية لاجئا اليها من قرطبة فوجد أبوابها موصدة فى وجهه ، وأخيرا اتفق مع أهل اشبيلية على اخلائها وسحب حاميته منها نظير اطلاقهم ولديه والسماح له بنقل أمواله ومتاعه ، وهكذا أفلح ابن عباد فى تحرير أشبيلية من نير البربر وانقاذها من ظلمهم ، واكتسب تقدير أهل المدينة فطلبوا الية أن يتولى حكمهافقبل ذلك ، واشترط أن يعاونه فى الحكم بعض ساداتها وكبرائها . وكان القاضى أبو القاسم محمد بن اسماعيل ابن عباد حازما بعيد النظر ، فاختار لمساعدته ابن الهوزانى وابن حجاج ومحمد ابن ياريم وأبا بكر الزبيدى . وهكذاقامت جمهورية ثانية فى اشبيلية بجوارجمهورية

قرطبة . وكان أول هم تلك الجمهورية الحصول على جيش يصد عنها غارات بنى حمود وجندهم البربر الممتلئين منها غيظا ، ولما كان ابن عباد موفور الثراء فقد استطاع أن يجتذب اليه خلقا كثيرا من العرب والبربر وغيرهم ، واشترى كثيرا من الصقالبة وأخذ يدربهم على فنون الحرب والقتال ، وغزا حصنين كانا للمسيحيين شمال أشبيلية واستولى عليهما ، وأصبح عنده خمسمائة من خيرة الفرسان . وفى عام ١٠٢٧ م حاصر أشبيلية الخليفة يحيى بن حمود وبرابرة قرمونة بقيادة محمد بن عبد الله ، ولضعف أشبيلية رضيت بالخضوع للخليفة وقبلت سيادته الاسمية عليها وقدم ابن عباد ابنه رهينة على أن لا يدخل البربر المدينة ، فقبل يحيى ذلك وا كتفى بدخولها فى طاعته ، و بعد ذلك بوقت قصير انفرد ابن عباد بالسلطة فى المدينة ، وعزل وزراءه ومد ممتلكاته إلى مدينة باجة فنازعه فى امتلاكها عبد الله بن الأفطس أمير بطليوس وابنه محمد الملقب بالمظفر ، وحاصر اسماعيل بن القاضى أبو القاسم محمد بن عباد مدينة باجة ومعه جيش من حلفائه بربر قرمونة واجتاح القرى التى حولها ، وهزم محمد بن الأفطس وقتل معظم جيشه وأسره ، وشجع هذا النصر ابن عباد فغزا اقاليم بطليوس وقرطبة ، وبعد وقت قصير عقدت هدنة بين المتحاربين واطلق ابن عباد سراح محمد بن الافطس ١٠٣٠م و بعد ذلك بأربع سنوات انتقم ابن الأفطس من ابن عباد شر انتقام إذ سمح لجيش ابن عباد بقيادة ابنه اسماعيل باجتياز أمارة بطليوس فى طريقه إلى ليون ليغزوها ، و بعد دخوله فى منعطفات الطرق الجبلية وأدغالها هاجمه من الخلف فأوقعه بين نارين ، وأصبح المسيحيون من أمامه والبربر من ورائه . ففقد معظم جيشه وفر اسماعيل مع حفنة من رجاله ولاقى الأهوال حتى وصل إلى مدينة لشبونه أول حدود ملك أبيه .

الفصل السادس

أ عصبة الاندلسية

كان القاضي محمد بن اسماعيل بن عباد يدفع الجزية للخليفة يحيى بن على بن حمود و يحكم دولته فيما عـدا ذلك مستقلا ، ولكن يحيى كان يجمع حوله أمراء البربر حتى أصبح زعيم العصبة الافريقية في الجنوب الشرقي للاندلس ، واستولى على قرمونة واتخـذها مقرا له ، ومنها أصبح يهدد قرطبة واشبيلية معا . فادرك أبو القاسم محمد بن اسماعيل بن عباد عظم الخطر وحراجة الموقف ورأى بثاقب فكره أنه لايدفع هذا الخطر إلا تكوين عصبة عربية أوربية عمـادها العرب والصقالبة ، فوضع أساس اتحاد عربى صقلبي يجمع كل أعداء البربر الافريقين تحت رياسته . ولم تخف عليه وفرة المصاعب التى كانت تعترض تحقيق فكرته إذ كان عليه ان يتغلب على شكوك الأمراء العرب والقواد الصقالبة ومجلس شيوخ قرطبة ، وان يخشى المسـاس بكرامتهم إذا حاول ان ينصب نفسه رئيساً عليهم ، ولكنه لم يتهيب ولم يتردد وساعدته الحوادث بمجرياتها على تحقيق بغيته

وذلك أن الناس كانوا لا يزالون إذ ذاك يعتقدون أن الخليفة المنكود الحظ هشاما الثانى (المؤيد) ما زال على قيد الحياة ، وأنه فر من قصر الخلافة مدة حكم سليمان المستعين بالله حيث انتقل إلى مكه وسرق بعض العبيد أمواله ، فعاش من صناعة الفخار ، ثم سار إلى بيت المقدس حيث احترف صناعة الحصر

ومنها عاد إلى الأندلس . سمع محمد بن اسماعيـل بن عباد ذلك ، فانتهز الفرصة السانحة واستدعى إلى أشبيلية رجلا يشبه هشاما تمام الشبه واسمه خلف ، وكان يشتغل بصناعة الحصر وعرضه على نساء هشام ولما اعترفن بأنه هو الخليفة نفسه (وهذا الاعتراف لا يصح اتخاذه حجة) أعلن عودة الخليفة هشام الثانى إلى عرشه ، وأنه أصبح رئيس وزرائه ودعا الناس جميعا إلى حمل السلاح ، وأخبر مجلس الشيوخ فى قرطبة وأمراء العرب والصقالبة بذلك . ودعاهم إلى حمل السلاح أيضا فى سبيل نصرته . ونجحت الخطة نجاحا محكما إذ اعترف به فى الحال محمد ابن عبد الله بن الأفطس أمير بطليوس ، وعبد العزيز أمير بلنسية ، ومجاهد أمير دنيه وجزر البليار ، وأمير طرطوشة ، واضطر ابن جهور الذى لم تجز عليه هذه الخدعة الى الاعتراف بهذا الخليفة المزيف ، وأخذ البيعة له لما رآه من تحمس الشعب بقرطبة لعودة خلافة هشام ، ولما كان يعلمه من الخطر الداهم الذى يتهدد قرطبة من ازدياد سطوة البربر . واذ ذاك كان يحيى يحرق الأرم لنجاح مسعى ابن عباد ، فصب جام سخطه عليه بأن غزا أشبيلية ، وأخذ يخرب ما حولها ولكنه كان محاطا بشرذمة من الخونة الذين أخبروا قاضى أشبيلية سرا بأن سيدهم يسهل أسره اذا بوغت فجأة ، لأنه قل أن يصحو من سكره فخرج اسماعيل بن الأمير أبى القاسم محمد وهاجم قرمونة بعد أن أعد كمينا ليحيى ، ولما سمع يحيى صراخ جند أشبيلية ترك مجلس الشراب واندفع بمزق وراءهم ومعه فريق من خيرة فرسانه فوقع فى الكمين وقتل . وقتل معظم أتباعه ، وفر الباقون ودخل محمد بن عبد الله أمير قرمونه السابق قصر يحيى وسبى نساءه فى نوفمبر ١٠٣٥ م . واقتسم هو وأولاده أمواله وقوبل نبأ قتل يحيى فى قرطبة واشبيلية بفرح شديد يفوق حد الوصف ، اذ كان فى هذه الهزيمة القضاء على دولة بنى حمود

وزوال خطرهم . نعم ان خلافة يحيى بن حمود انتقلت من بعده الى اخيه ادريس أمير ملقه ، ولكن ابن عمه محمد امير الجزيرة الخضراء نادى بنفسه خليفة ايضا ونازعه السلطة . ولكن هذا لم يجد ابا القاسم نفعا فى ادراك بغيته وتحقيق مطامعه فلما اراد اجلاس الخليفة هشام المزعوم فى قصر الخلافة بقرطبة واقامة نفسه نائبا عنه ظنا منه ان الفرصة مواتية لاتمام مهزلته تصدى له ابن جهور ، واظهر لأهل قرطبة أن الخليفه المزعوم انما هو شخص دعى مزيف وحذف اسم هشام الثانى من الخطبة ، ولما وصل القاضى الى ابواب قرطبة وجدها موصدة فى وجهه فاضطر الى الرجوع بخفى حنين لقلة من كان معه من الجنود . والى تحويل أنظاره إلى زهير أمير المريه ، وكان زهير قد رفض الاعتراف بخلافة هشام الثانى ، وانضم إلى بنى حمود معترفا بخلافة ادريس ، وحالف حبوس أمير غرناطة لما رأى الخطر يتهدده من ناحية أشبيلية . ولما التقت جنود القاضى أبى القاسم بجنود المريه وغرناطة دارت الدائرة على أبى القاسم فعاد إلى أشبيلية مرة أخرى يجر أذيال الفشل ، وأصبح همه أن يخلص نفسه من هجوم جيش غرناطه والمريه على بلاده ، ولكن تقلبات الحوادث أنجته من عدوه من حيث لا يحتسب ، إذ وقع الخليفان فى بعضهما ، فتنفست اشبيلية الصعداء ، وتفككت عرى الوحدة البربرية وخلت أمارة المرية ، وسنحت الفرصة لعبد العزيز بن عبد الرحمن بن المنصور أمير بلنسية فاسترد المرية وضمها الى ملكه

وسبب الوقيعة بين الخليفين ان كان لكل منهما وزير يمقت الآخر اشد المقت . فبعد وفاة حبوس تولى ابنه باديس واتخذ اليهودى صمويل واسمه هاليفى وزيرا له ، وكان نادرة زمانه فى الشعر والفصاحة والذكاء والدهاء وبعد النظر والتجرد من الصلف والغرور ، واما وزير زهير فكان ابن عباس الذى اشتهر بوفرة

غناه (وقدرت ثروته بما يعادل مليونا ونصف مليون من الجنيهات) وبخله وبراعته فى نظم الشعر كما عرف بكبريائه وغروره ، وكان عربى الأصل جميل الصورة رفيع الحسب يرجع نسبه إلى الأنصار ، وكان يكره البربر ويحتقر اليهود ، فكانت كراهية كل من الوزيرين للآخر سببا فى انقلاب الحليفين إلى عدوين . وتصادف ان زار زهير حليفه باديس فى قرطبة ودارت بينهما مخابرات بشأن تجديد التحالف ولكن صلف ابن عباس كان سببا فى اغضاب امراء البربر فانتهت المفاوضات بالفشل ، وقفل زهير راجعا ، وفى عودته كان البربر قد احتلوا مسالك الجبال وسدوها عليه ، وخانه حرسه السود فانضموا الى البربر الذين هاجموه وشردوا رجاله فى الفجاج ، فمنهم من قتل ومنهم من سقط من شاهق اثناء هربه فدقت عنقه وتناثرت اشلاؤه ، وكان من بين هؤلاء الأمير زهير نفسه اما الوزير ابن عباس فوقع فى يد باديس اسيرا فامر بسجنه فى الحمراء مثقلا بالاصفاد ، ولم يقبل منه فدية بل استقر رأيه على قتله فطعنه بحربة فى صدره وتبعه أخوه وحاجبه ، ولم يمت أبو العباس إلا بعد أن تلقى سبعة عشرة طعنة أسلم بعدها الروح فى سبتمبر ١٠٣٨ م

وكان قتل باديس لزهير صدمة كبرى للعصبة العربية إذ استراح بال القاضى أبو القاسم وأصبح قادرا على توجيه جهوده ضد عصبة البربر ، مبتدئا بامارة قرمونة كما دبر مؤامرة فى غرناطه ضد أميرها باديس بزعامة مغامر عربى اسمه أبو الفتوح أصله أديب متضلع فى علم الفلسفة والفلك والشعر ، وفد على الأندلس يطلب صلة أمرائها ، فأتمر بباديس وحرض ابن عمه يزير على الثورة ، ولكن باديس كشف التدبير وعجل بالقبض على المتآمرين ، وتمكن زعماؤهم من الهرب لاجئين إلى أبى القاسم الذي كان المحرك الأكبر لهم فيما فعلوا . وظن القاضى أن الوقت قد حان لمهاجمة قرمونة ، فارسل جيشا بقيادة ابنه اسماعيل للاستيلاء عليها فانتصر

فى عدة مواقع ، وحاصر مدينة قرمونة ، فاضطر أميرها محمد إلى الاستنجاد بادريس خليفة مالقة و باديس أمير غرناطة ، فلبيا نداءه أما ادريس فارسل جيشا بقيادة وزيره ابن بقانه ، وأما باديس فقاد جيشه بنفسه ، ولكن جيش اسماعيل كان يفوق جيشهما فى كثرة المدد . فاضطرا إلى الفرار عائدين كلا الى بلده ، وتبعهما اسماعيل بجيشه ولكن جنده استهانوا بالأعداء المنهزمين ، وتفرقوا فى الطريق فهاجمهم البربر هجوما عنيفا أوقع الهزيمة فى صفوفهم ، وقتل اسماعيل وعاد ابن بقانه الى مالقة و باديس الى غرناطة ، وهناك وفد عليه أبو الفتوح مستغفرا لذنبه لما علم ان باديس قد أمر بسجن زوجته وأولاده ، فكانت عودته هى القاضية عليه اذا أمر باديس بسجنه ثم قتله بيده فى أكتوبر ١٠٣٩ م

الفصل السابع

مملكة البربر فى مالقة أو خلافة بنى حمود :

كان ملوك هذه الدولة ضعافا قنعوا بالسيادة على مالقة وطنجة وسبتة ، واعترف بخلافتهم اعترافا واهيا باديس أمير غرناطة ، و بينما كان باديس لا يثق إلا بالبربر أو بوزير يهودى كصموئيل يخلص كل الاخلاص لمصلحة الدولة كان بلاط ادريس مملوءا بالصقالبة والبربر ومفعما بالدسائس والمنازعات ، وهى بعينها أسباب سقوط ملك بنى أمية ، وتجلى الانقسام بعد وفاة ادريس الاول إذ تنازع السلطة الوزير ابن بقانه المغربى ونجاء الصقلبى ، وأراد ابن بقانه أن يولى الخلافة يحيى ابن ادريس ولكن نجاء نادى بخلافة الحسن بن يحيى ابن عم الأمير يحيى ، وعبر البحر إلى مالقة باسطول كبير ، فلما رأى ابن بقانه شدة باس خصمه أخلى الميدان وفر هاربا ومعه أميره يحيى فاحتل نجاء القصبة ، ووعد ابن بقانه بالصفح ان هو استسلم ولكنه قتله بعد استسلامه ، ثم قتل الأمير يحيى بن ادريس بعد ذلك ، ومع أن القتل كان على غير رغبة الامير الحسن إلا أن زوجة الحسن وهى اخت الامير يحيى المقتول دست السم لزوجها انتقاما لأخيها فمات ، و بعد ان قتل نجاء ابناء للحسن وسجن الأمير ادريس اخى الحسن نادى بنفسه خليفة على مالقة ، وصبر عليه البربر اول امرهم فبايعوه ، وبيتوا النية على ان ينكبوه فى اول فرصة لقتله اثنين من ابناء رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولم يكن نجاء على علم بما يدور فى خلدهم ، فتجهز لاخضاع الجزيرة الخضراء وكان اميرها محمد من بنى حمود ،

وأنس من البربر اعراضا عن القتال وفتورا فى النزال فقفل بجيشه راجعا إلى مالقة لينظر فى أمره ، وفى طريقة اليها انقض عليه جنده وقتلوه فى فبراير ١٠٤٣ م

وبينما كان البربر يصيحون فرحا لقتله ، والصقالبة يحملون متاعهم هاربين خشية أن ينالهم ما نال زعيمهم أسرع اثنان من البربر إلى مالقة وحملا إلى أهلها النبأ السار فأخرج أهلها الأمير إدريس من سجنه ونادوا به خليفة عليهم . ولم يكن ادريس الثانى كفءاً لتولى الخلافة رغم حسن طويته وجوده ، ومما يدل على تسلط الخرافات على عقول البربر أنهم كانوا يزعمون أن أمراء بنى حمود مقدسون لنسبتهم الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنه لا يجوز النظر اليهم أو التحديق فيهم ، فكانوا لايخاطبون الناس إلا من وراء ستار ، ولكن ادريس الثانى كان لايتمسك بهذه التقاليد تساهلا منه فقد حكى أن شاعره أبازيد عبدالرحمن أنشده قصيدة منها

وكأن الشمس لما أشرقت فانثنت عنها عيون الناظرين
وجه ادريس بن يحيى بن على بن حمود أمير المؤمنين
خلقوا من ماء عدل وتقى وجميع الناس من ماء وطين
أنظروا نقتبس من نوركم إنه من نور رب العالمين

فأمر ادريس برفع الستر ، وكان إدريس الثانى ضعيفا خائر العزيمة يدل على ذلك أنه كان لايقوى على رفض طلب باديس ، أو أى أمير آخر إذا ما طمع فى حصن من حصون بلاده أو فى قتل رجل من رجاله ، ويقال أن باديس غضب مرة على وزير من وزراء إدريس الثانى فطلب تسليمه اليه فلم يستطع ادريس أن يرفض هذا الطلب

وأبدى الوزير أسفه وألمه ، لما قد يلاقيه من سوء المصير ، ثم أمره بالذهاب الى باديس فذهب اليه وقتل ، فسخط البربر لضعفه المتناهى ، وثاروا عليه بقيادة أحد عماله ، وأخرجوا الأمير محمد ابن عمه ونادوا به خليفة ، وأراد أهل مالقة أن يحموا أميرهم وخليفتهم ادريس الثانى ، وأن يقوموا فى وجه البربر ، ولكنه رفض أن يسلحهم ليدافعوا عنه ، ولم يقبل أن يسفكوا قطرة دم فى سبيله ؛ وهكذا تم لمحمد دخول مالقة حيث تولى الخلافة وذهب الأمير ادريس الثانى إلى السجن

وكان الخليفة الجديد على عكس سلفه تماما اذ كان مندفعا فى شجاعته وجرأته ، لا يتسامح فى مخالفة النظام ، شديد الوطأة فى حكمه

فلما تبين للبربر والزنوج من جنده حقيقة أخلاقه ندموا على ما كان منهم وتآمروا على اطلاق سراح ادريس الثانى ، ورده الى عرش الخلافة ، وفى هذه المرة لم يتردد ادريس فى قبول ايقاد نيران الفتنة والحرب الاهلية ، فى سبيل الحصول على حريته والعودة الى عرشه

ولكن محمدا قاوم الثوار ، حتى أجبرهم على التسليم ، وقبل أن يسلموا كانوا قد تمكنوا من تهريب ادريس الى افريقية ، حيث ظلت خلافته قائمة فى طنجة وسبتة وذكر اسمه فى الخطبة ثم خشى حاكم طنجة وحاكم سبتة أن ينزع الخليفة السلطة من أيديهما فارسلاه إلى اسبانيا حيث لجأ الى حاكم مدينة روندا وكان من البربر ، وفى ذلك الوقت أعلن أمير الجزيرة الخضراء نفسه خليفة ، وكان اسمه محمدا أيضاً فأصبح بالأندلس أربعة خلفاء فى وقت واحد هم هشام الثانى المزعوم فى اشبيلية ، ومحمد فى مالقة ،

ومحمد في الجزيرة الخضراء ، وادريس الثاني في روندا وكان أمير الجزيرة الخضراء أول من أخلى الميدان إذ تخلى عنه أنصاره ففر إلى المغرب ومات مجللا بالعار عام ١٠٤٨ م ، ومات من بعده محمد أمير مالقة عام ١٠٥٤ م ، وعاد الى تولى الخلافة فيها ادريس الثاني ، وظل يحكمها حتى سنة ١٠٥٥ م ، حين توفي وعندئذ أصبح باديس زعيم العصبة البربرية غير منازع فضم اليه اقليم مالقة وقضى على بني حمود ونفاهم إلى المغرب .

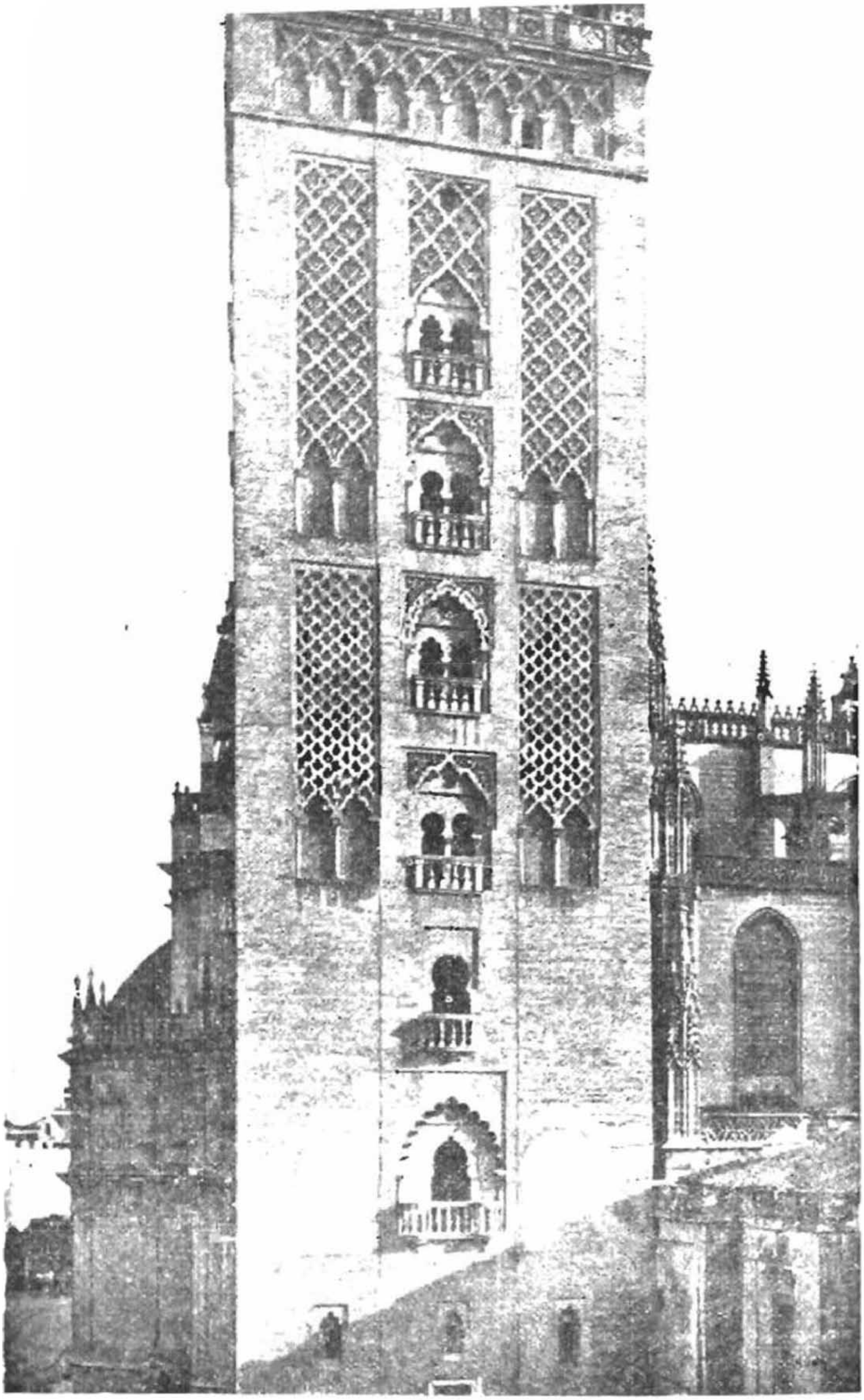
الفصل الثامن

عود إلى مملكة أشبيلية

المعتضد ابن أبي القاسم :

لما توفى القاضى أبو القاسم فى يناير ١٠٤٢ م ، قام بالأمر من بعده ابنه عباد ولقب بالمعتضد ، واستمر يدعى أنه حاجب الخليفة هشام الثانى ، وأصبح المعتضد زعيما للعصبة العربية الأندلسية ، وكفأ للوقوف أمام باديس زعيم البربر يبزه فى خصاله خيرها وشرها ، لايؤمن جانبه ، يميل إلى الانتقام غادرا سفاحا شريرا ظالما قاسيا ، يدمن الخمر وينغمس فى الشهوات ، جمع فى قصره ٨٠٠ من النساء فكان يشبه خصمه كل الشبه فى نواح متعددة ، ويختلف عنه فى سعة اطلاعه وغزارة علمه وثقافته ورقة طباعه

وكان المعتضد نصير العلم والأدب يجزل صلة الشعراء ويكثر من تشييد المبانى ويتشبه بخلفاء بغداد ، وكان حبه للانتقام متغلغلا فى أعماق نفسه ، فلا يعفو ولا ينسى ، ولا يكتفى بقتل أعدائه بل يتشبه بالخليفة المهدى الأموى فى اتخاذ جماجمهم أوعية للزهر فى باحات قصره ، وعلى كل جمجمة اسم صاحبها ، ومع هذا كان يعد نفسه ريحانة الملوك وقدوة الأمراء فى العدل والحلم والكرم ، وينشد ذلك عن نفسه فى أشعاره وقصائده



منارة المسجد الجامع باشبيلية

حروبه :

اشعل المعتضد نيران حروب طويلة مرهقة مع جيرانه ، وكان أول ما بدأ به حكمه أن قتل حبيب وزير أبيه ، ثم هاجم أمارة قرمونة وكان اميرها من البربر فغزاها عام ١٠٤٢ م لأن المنجمين أنبأوه أن سقوط أسرته وزوال نعمتها انما يكون على يد قوم غرباء عن الأندلس ، فأصبح لايهنأ له عيش طالما كان البربر فى الأندلس ملوك ودول ، وتمكن المعتضد من هزيمة محمد أمير قرمونه وايقاعه فى كمين أدى إلى قتله عام ١٠٤٣ م ولكن الحرب استمرت مستعرة بين المعتضد وبين اسحق بن محمد . ومد المعتضد حدود مملكة اشبيلية غربا فانتزع امارة ابن طيفور ثم هاجم امارة نيبلا العربيه فاضطر أميرها أن يلجأ إلى المظفر أمير بطليوس (وهو من البربر) فيكون المظفر حلفا من محمد بن حمود خليفة مالقة ومحمد خليفه الجزيرة الخضراء ، وباديس أمير غرناطه وعبد الواحد بن جهور الذى خلف أباه فى رياسة جمهورية قرطبة ١٠٤٣ م ، واستمرت الحرب سجالا ، وأخيرا دارت الدائرة على الحلفاء قرب قرمونه ، وقتل أمير قرمونه وانهكت قوى بطليوس وعمها الفقر والبؤس ، وتفرق عن المظفر أميرها كل حلفائه ، وأخيرا توسط عبد الواحد بن جهور فى الصلح ، ووفق إلى عقد معاهدة بين الطرفين عام ١٠٥١ م ، وبعد عقد الصلح هاجم المعتضد امارة نيبلا واستولى عليها ، وفر أميرها إلى قرطبة واستولى على امارات أخرى غيرها ثم رأى أن ملكه قد امتد غربا كما كان يشتهى ، فاتجه بجيوشه جنوبا لمناوشة امارات البربر التى كانت خاضعة له خضوعا اسميا تدعو للخليفة المزعوم هشام الثانى على منابرها وتؤدى له الجزية ، ولكن المعتضد لم يكتف بهذه السلطة الوهمية بل أراد استئصال شأفة البربر ، ودبر لذلك خطة جريئة ماكرة ، فزار أمارتى روندا وماورونا ، وكشف هنالك كراهية العرب للبربر ،

فاتفق مع كثير من زعماء العرب و بعض الخونة من القواد البربر على الثورة ، وأمدهم بالأموال وشجعهم ثم أجزل الصلات لمضيفه وعاد الى أشبيلية عام ١٠٥٣ م وبعد ذلك بستة أشهر دعا امراء وكبراء روندا ومارونا الى ضيافته فى اشبيليه ثم أدخلهم الحمام وأمر البنائين باحكام رتاج الباب وبناء الأحجار فى فتحته ، ثم سلط عليهم الحرارة فاختنقوا وماتوا وكان عددهم يناهز الستين أميرا ، ثم أرسل جيوشه لاحتلال اماراتهم ، فكانت مهمتها سهلة ممهدة إذ عاونهم العرب من السكان ، ومن رشاهم المعتضد من الخونة ، وهكذا استطاع المعتضد أن يضم اليه أمارات البربر الجنوبية ويحصنها تحصينا منيعا

حقد باديس :

إستاء ملك غرناطة لقتل الأمراء البربر بهذه الطريقة الوحشية ، وكاد ينفجر من الغيظ ، خصوصاً لما بلغه ما كان من ثورة العرب فى إمارة روندا ومارونا ضد البربر وذبحهم إياهم عن آخرهم ، إذ خشى أن يثور عليه العرب من رعاياه أيضاً اقتداء ببنى جلدتهم ، فصمم على استئصال شأفة العرب فى غرناطه ولكن وزيره صموئيل اليهودى نهاه عن ذلك ، وأفسد تدبيره لما توقعه من وخامة العاقبة ، فعزم على مهاجمة أشبيلية وقاد الجيش بنفسه ، ولكنه صد عنها مهزوما لأن جيش أشبيلية قاتل بحماس لايوصف ، واعتبر حرب غرناطة جهادا فى سبيل الله لأن وزير الدولة كان يهوديا

تشجع المعتضد بعد هذا الانتصار ، فهاجم الجزيرة الخضراء لأن أميرها القاسم الحمودى كان من أضعف أمراء البربر ، واستولى عليها وخرج أميرها لاجئاً إلى قرطبه عام ١٠٥٨ م ولما عاد المعتضد إلى أشبيلية وضع حدا لمهزلة خلافة هشام الثانى ، وأعلن أمام وزراء الدولة ووجوهها أن الخليفة قد مات ١٠٥٩ م وأذاع نبأ وفاته فى طول

البلاد وعرضها ، ودعا الأندلس إلى اختيار خليفة جديد ولما لم يلتفت لدعوته أحد أدعى أن الخليفة المزعوم قد أوصى له بالخلافة (قبل وفاته) وأنه أصبح أمير الأندلس كلها وعزم على الاستيلاء على قرطبة عاصمة الأندلس ، ولكن صدمه القدر صدمة قاسية أفقدته صوابه

ذلك أنه أرسل ابنه الأمير اسماعيل على رأس جيش صغير للاستيلاء على اطلال ضاحية الزاهرة بينما كان هو يخرب ضواحى قرطبة ، فتباطأ اسماعيل ثم طمحت نفسه للحصول على امارة الجزيرة الخضراء والاستقلال بها ، فعاد مسرعا إلى أشبيلية واقتحم القلعة وحمل أموال أبيه وعددا من نساء القصر ومعهم أمه ، ثم اسرع بالذهاب إلى الجزيرة الخضراء ، ولكن رسل أبيه كانوا قد أخبروا حكام المدن والحصون أن يكونوا على حذر واستعداد فلم تفلح مغامرة اسماعيل ، ووقع أسيرا فى يد أبيه ، وذبحه أبوه بيده انتقاما منه ، وصب جام سخطه على كل أصدقائه وخدمه ونسائه فنكل بهم أشنع تنكيل . وكان لعظم الصدمة وقع شديد فى نفس المعتضد حتى أنه نسى مطامعه فى قرطبة وظل جرح قلبه داميا لا يندمل

استيلاؤه على مالقه :

كان عرب مالقه يئنون من جور أميرهم باديس فاستجاروا بالمعتضد لأنه عربى مثلهم ، وأسرع المعتضد إلى نجدتهم ، وفى اليوم المعين ثار عرب مالقة وما حولها من الحصون ، واجتاز جيش المعتضد الحدود بقيادة ابنه المعتمد فسقطت الحصون فى يده سراعا ، وحصر البربر بين نارين فقتل معظمهم وفر

الباقون ، ولم يمض أسبوع حتى كانت امارة مالقه فى حوزة المعتضد ماعدا العاصمة نفسها لمناعة حصونها ، واستماتة الزنوج من حاميتها في الدفاع عنها

وأشار الثوار العرب على حليفهم المعتمد بن المعتضد أن لا يأمن البربر من جنده ، وأن يكون حذرا دائم اليقظة ، وأن يشدد الحصـار على حصون مالقه ولـكنه اغتر بما ناله من فوز وأهمل نصيحتهم وانصرف إلى لهوه وشرابه ، فكانت النتيجة أن أسرع باديس بمهاجمه أعدائه بغتة وهزمهم شر هزيمة وطردهم من حول العاصمة ، واسترد بلاد الامارة كلها وفر المعتمـد إلى روندا ، وهكذا فقد المعتضد من جراء اهمال ابنه جيشا وامارة بأسرها ، وانتقم باديس من الثوار العرب ، فنشر الفزع والهلع ووضع السيف فى رقابهم والنار فى ديارهم . وفى تلك الأثناء توفى صموئيل وخلفه فى الوزارة ابنه يوسف ولـكن البربر ثارت ثائرتهم أخيراً لـكبريائه وصلفه فهاجموه وقتلوه وقتلوا معه أربعة آلاف من يهود غرناطه فى ديسمبر عام ١٠٦٦ م

وفاة المعتضد :

لم تـكن الحال فى بقية أنحاء الأندلس الاسلاميـة على مختلف أماراتها وأقسامها بأقل اضطرابا وتطاحنا وانقساما مما رأيناه فى امارات جنوب الأندلس فالـكل كان يتطاحن ويتناحر على اقتطاع شطر من ملك الخلافة الأموية . فلا غرابة وقد عمت الفوضى بلاد المسلمين أن يظهر بين مسيحى الشمال من يجمع شملهم ويؤلبهم على طرد المسلمين وانتزاع املاكهم جزءا بعد جزء

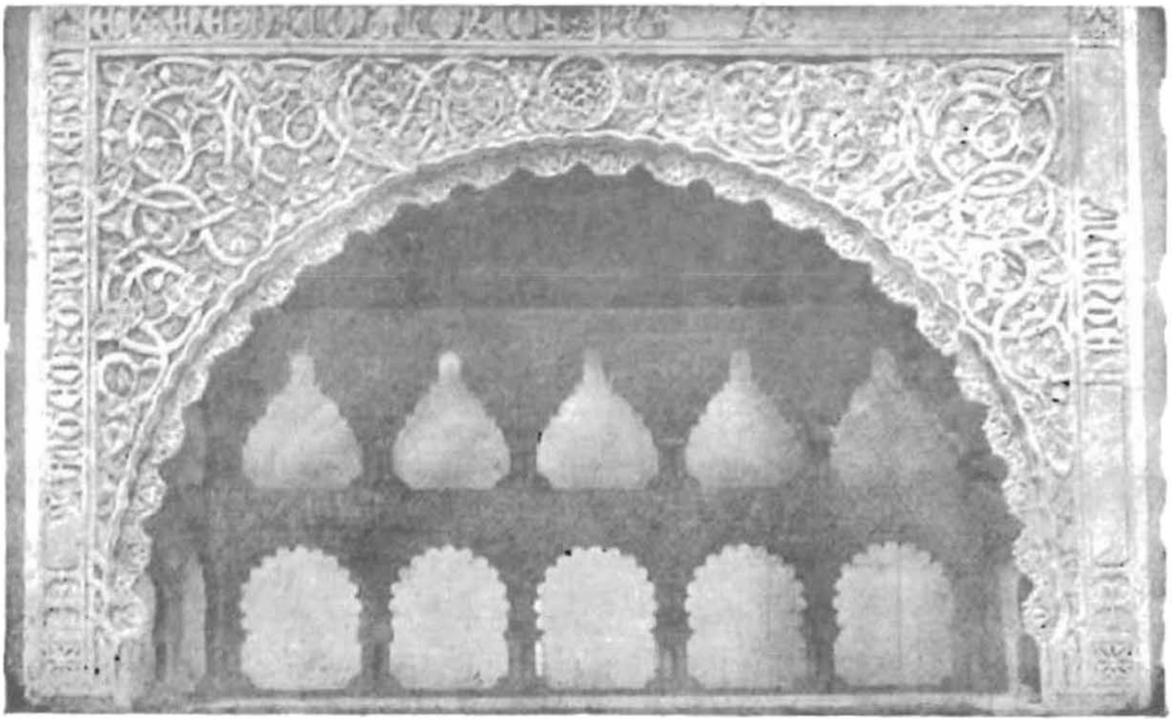
والظاهر أن ملوك الامارات المسيحية الشمالية سرت فيهم عدوى الانقسام أيضا أول الأمر فظلوا فى تطاحن وشقاق زهاء نصف قرن ، ولـكنهم برئوا من

علتهم بعد ذلك وتمخضت الحروب الأهليـه بينهم عن ظهور بطل قومى هو فرناندو الأول ملك قشتالة وليون ، الذى وحد كلتهم عام ١٠٥٥ م وقاد جموعهم ضد أعدائه المسلمين المنشقين على أنفسهم ، و بسم الحظ أخيرا للمسيحيين وحانت ساعة زحزحتهم المسلمين عن موقفهم ، وكان جيش فرناندو يقاتل مدفوعا بنزعة دينية وحماس وطنى ، فانتزع من المظفر أمير بطليوس معظم امارته ، ومن بينها العاصمة عام ١٠٥٧ م ثم دخل امارة سرقسطة ، وانتزع الحصون الواقعة جنوب نهر دورو ، وأغار على إمارة المأمون فى طليطلة ، فأسرع المأمون بتقديم الطاعة والهدايا الثمينة وكانت قدراً وفيرا من الذهب والفضة والجواهر ، وتعهد بدفع جزية سنوية وكان هذا بدأ الانقلاب إذ اصبح المسلمون هم الذين يدفعون الجزية للمسيحيين ثم أتى دور المعتضد ، ففى ١٠٦٣ م احرق فرناندو القرى المجاورة لاشبيليـه ، ومع ان المعتضد كان اقوى ملوك الأندلس المعروفين بملوك الطوائف ، الا انه اضطر مكرها الى ما اضطر اليه المأمون ملك طليطلة ، فزار معسكر فرناندو وقدم الهدايا ورجاه ان يرجع عن بلاده ، بعد أن تعهد بدفع الجزية وتسليم رفات القديسة يوسطا احد شهداء العصر الرومانى . وهكذا ظهر ضعف المسلمين وهوانهم على المسيحيين ، وفى ١٠٦٤ م نكب المسلمون بكارثة عظمى إذ سقطت كومبرا فى يد فرناندوا الذى نفى المسلمين من أهلها ثم حاصر بلنسية وكان يحكمها الأمير عبد الملك بن عبد العزيز ، ولما رأى المسيحيون مناعة حصونها تظاهروا بالتقهقر عنها فخرج اهل بلنسية لمطاردتهم ، فانقض عليهم المسيحيون فيما بين بلنسية ومرسيه . وقتلوا معظم المسلمين . وفر عبد الملك هاربا ولم يكف المسلمون ما يلقونه من ويل على ايدى مسيحى اسبانيا ، بل فوجئوا بغارة النورمنديين على شمال شرق الأندلس بقيادة جو يليوم دى منتروى ، واستيلائهم على بلنسية ،

ثم على حصن للمسلمين بين لاردة وسرقسطة باسمه باربامترو حيث قتلوا حاميته بعد ان تعهدوا باحترام حياة افرادها كما قتلوا المسلمين ، واقتسموا فيما بينهم بيوت المسلمين بما فيها من نساء وأطفال ومال ومتاع ، وارتكبوا من الفظائع ما تقشعر من هوله الأبدان ، ثم ارتحلوا عائدين إلى بلادهم مثقلين بالاسلاب ، فاستولى المقتدر امير سرقسطه على ذلك الحصن مرة اخرى واسترد عبد الملك بلنسية ، ولم يكد يستقر فيها حتى عاد اليها فرناند ، ولما اشتد عليه المرض فيها تركها عائدا إلى بلاده ، فضمها المأمون امير طليطلة إلى ملكه ، وانقذ الموت المسلمين من ألد اعدائهم فرناند حيث توفى عام ١٠٦٥ م ومن بعده بوقت قصير توفى المعتضد عام ١٠٠٩ م فخلفه ابنه المعتمد

المعتمد :

ولد المعتمد عام ١٠٤٠ م ودربه أبوه على ادارة شئون الدولة ، وفى حياة أبيه توطدت الصداقة بينه و بين رفيق صباه الشاعر المجيد ابن عمار ، فادخله فى خدمته ولما تولى الملك بعد أبيه عام ١٠٦٩ اتخذه وزيرا له بعد أن كان مسترفدا ، قصاراه التكسب بالشعر لا يخص بمدحه الملوك دون غيرهم ، بل لا يبالى ممن أخذ ولا من استعطف من ملك أو سوقة . وأصبح المعتمد بعد ابن عمار لكل أمر جليل و يؤهله لكل رتبة عالية ، فكانت حاله معه شبيهة بحال جعفر بن يحيى البرمكى مع الرشيد وتزوج المعتمد من بين نسائه جارية اسمها اعتماد المعروفة بالرميكية ، وكانت آية عصرها فى الذكاء واللياقة والجمال والفصاحة حتى لتعادل ولادة بنت المستكفى ، ولما كان المعتمد ووزيره ابن عمار من فحول الادباء ومجيدى القريض فقد اعتزت بهما دولة الادب والشعر .



خشب منجور من طليطلة

وأصبحت أشبيلية كعبة الشعراء ومستجمع الادباء من كافة بلاد الاندلس ، وكان المعتمد يحسن صلة الشعراء المجيدين و يجيزهم ، وكان يحسن تقدير مواهب الرجال حتى ولو كانوا لصوصا ، تدل على ذلك قصته مع كبير اللصوص الصقر الرمادى الذى عفا عنه المعتمد ، وعينه رئيسا لشرطته ، وله شعر كثير يحكى الماء سلاسة والصخر ملاسة ، وأولع المعتمد بالشراب والنعمان والغيد الحسان ، ومن أشهر جواريه قمر وارماندا ومرغريت وله مقاطيع حسان كان يرتجلها فى مجالس أنسه وشعره الذى قاله أيام محنته يفجر الصم ويزعزع الشم ، وكان لا يتوزر وزيرا إلا أن يكون أديبا شاعرا ، فاجتمع له من الشعراء مالم يجتمع لأحد قبله. ومن جملة وزرائه الوزير الاجل ذو الرياستين أبو الوليد أحمد بن زيدون أحد شعراء الاندلس المجيدين ، وفحولها المبرزين صاحب ولادة بنت المستكفى

ولم يصرف الادب والشعر المعتمد عن تدبير ملكه وحسن ادارة شئون بلاده وقد ساعدته الظروف ففاز بضم قرطبة إلى مملكته ، وحقق ماعجز أبوه وجده عن تحقيقه وادراكه ، ذلك ان ابن جهور رئيس الجمهورية كان قد تنازل عن الرياسه لولديه ١٠٦٤ م وقلدعبد الرحمن الشئون المالية والادارية ، ، وعبدالملك قيادة الجند ، وسار كل شىء على أتم ما يرام بفضل حسن سياسة الوزيرابن السقا ولكن المعتمد أوغر صدر عبد الملك على الوزير ابن السقا لحاجة فى نفسه فنكب عبد الملك وزيره المخلص وقتله ، فاضطرب الحال فى قرطبه بعد قتله ، واستقال كل ضباط الجيش وعدد كبيرمن الجند ، ولم يحفل عبد الملك بنضهم فعمل على الغاء النظام الجمهورى ، وفى هذا الوقت حاصر قرطبة المأمون أمير طليطلة فطلب عبد الملك معونة المعتمد وأمده هذا بجيش قوى فاضطر جيش طليطلة الى الانسحاب ، ولكن قائد جيش أشبيلية كان قد اتفق مع وجوه مدينةقرطبة

، ووفق تعليمات سيده على ضمها إلى ملك المعتمد . فبعد انقضاء سبعة أيام على انسحاب جيش طليطلة تأهب عبد الملك لوداع جند أشبيلية الذين كانوا قد أزمعوا الرحيل ، فلم يكد يغادر قصره حتى وجد نفسه محاطا بجماهير الشعب وقوات المعتمد ، وقبض عليه وعلى والده وأسرته واعترفت قرطبة بالمعتمد أميرا عليها وولى عليها ابنه من الرميكية الأمير عباد

ولكن المأمون لم يسلم بالهزيمة ، وعاود الكرة للاستيلاء على قرطبة ومعه حليفه الفونس السادس ، فصدهما الأمير عباد ، ولم يمض على ذلك طويل وقت حتى طمع ابن عكاشة احد قواد المعتمد فى الاستيلاء على قرطبة ، وكان ابن عكاشة حاكما لحصن من حصون المعتمد فتآمر مع غوغاء قرطبة الذين ساءهم ما كان يعاملهم به محمد ابن مارتين قائد حرس الأمير عباد من معاملة جائره .

وفى ليلة عاصفة من يناير عام ١٠٧٥م ، دخل ابن عكاشة المدينة مع جمع من رجاله ، وقصدوا قصر عباس فوجدوه بلا حرس فاقتحموه وقتلوا الأمير الشاب ، وألقوا بجثته فى الطريق ، ثم اتجهوا إلى قصر محمد بن مارتين وقتلوه أيضاء ثم جمع ابن عكاشة أهل قرطبة فى المسجد الجامع وأخذ عليهم البيعة للمأمون أمير طليطلة ودخل المأمون قرطبة بعد بضعة أيام ، فاغدق العطاء والأنعام على ابن عكاشة ولكن هذا دس للمأمون السم فمات سنة ١٠٧٥م ذلك لأن ابن عكاشة كان قد بلغه أن المأمون يبيت النية على قتله والتخلص منه . وكان المعتمد إذا ذاك حزينا على فقد قرطبة وقتل ولده عباد ، وظل ثلاثة أعوام يحاول استرجاعها حتى وفق إلى ذلك أخيرا فى ١٠٧٨ م حين هاجمها وانتزعها من ابن عكاشة الذى فر منها وقت أن

دخلها المعتمد ، فاتبعه بكوكبة من الفرسان فقبضوا عليه واحضروه إلى المعتمد ، وهذا أمر بقتله وصلبه بجوار جثة كلب ، ثم فتح المعتمد قسما من إمارة طليطلة فيما بين الوادى الكبير والوادى اليانع

المعتمد والفونس السادس :

كان المعتمد ملكا قويا من ملوك الأندلس ، ولكنه كان مثلهم يدفع الجزية للمسيحيين وكان الملك الفونس السادس لا يكتفى بالجزية بل يهدد بانتزاع بلاد الأمراء العرب وحصونهم ، وغزا مرة أشبيلية فى جيش عرمرم غير مكتف بأخذ الجزية ، فساد الهلع والذعر لما رأى أهل أشبيلية أن لا قبل لهم بجنوده ، ولكن الوزير ابن عمار لم يداخله اليأس بل عمد إلى مكره ودهائه لدفع عدو بلاده ، وذهب إلى معسكر الفونس ومعه شطرنج بديع الصنع يود كل ملك أن يقتنيه إذ كانت قطعة من العاج والأبنوس المطعم بالذهب ، فلما أراه للملك الفونس عرض هذا عليه أن يلعب معه ، فاشترط ابن عمار أنه اذا غلب أصبح الشطرنج للملك ، أما اذا غلب فانه سيسأل شيئا واحدا ، ولم يقبل الملك أول الأمر شرطا غامضا كهذا ، ولكن رجال حاشيته هونوا عليه الامر ، وقالوا ماذا عساه أن يطلب ، وهل يعجز الملك عن طلب ما ، وكان ابن عمار قد اتفق معهم سرا على تحقيق بغيته ، ووعدهم بمبلغ عظيم من المال . فلما قبل الفونس شرط ابن عمار ولعب معه وغلب فى اللعب قال لابن عمار الآن ماذا تطلب ، قال أن ترجع من هنا الى بلادك ، فاستشاط الملك غضبا ، وعزم أول الامر على نقض ذلك الشرط ، ولكن رجال حاشيته قالوا ان الغدر لا يليق بالملوك ، فقبل الفونس أن يعود الى بلاده ولكنه ضاعف الجزية على أشبيلية ، وهكذا أنقذ ابن عمار بلاده من خطر داهم

سقوط ابن عمار :

أضاف ابن عمار الى مننه وأياديه على مملكة أشبيلية منة جديدة أخرى هى ضم امارة مرسيه اليها ، وكان حاكمها وأميرها أبو عبد الرحمن بن طاهر من عرب قيس ، ولما دخلها ظافرا ظهر بمظهر الملوك مما أوغر صدر المعتمد ، وانتهز حساده الفرصة وعلى رأسهم ابن زيدون فاوقعوا بينهما حتى تنكر كل منهما لصاحبه ، وسولت لابن عمار نفسه أن يستقل بمرسيه ، فقاومه ابن رشيق احد قواد جنده ، واحاط بقصره مما اضطره الى الهرب لاجئا الى الملك الفونس السادس ، ولكن هذا ابى مساعدته ، فلجأ الى المقتدر امير سرقسطة من بنى هود ، ودخل فى خدمة ابنه المؤتمن من بعده ، ولم تزل البلاد تتقاذفه الى ان وقع اسيرا فى ايدى بنى سهيل فباعوه للمعتمد ، وكانت نهايته السجن ثم القتل . والهى حديث ابن عمار اشبيلية عن ان تعد العدة لكارثة تهدد باجتياحها والقضاء عليها

الباب السابع

ملوك الطوائف

الفصل الأول

انتهز حكام الأقاليم بالأندلس فرصة الهياج والثورة في قرطبة وأعلنوا استقلالهم وتمام انفصالهم عن جسم الخلافة الاموية ، وأقاموا لانفسهم امارات مستقلة ، وأصبحوا ملوكا مستقلين فيها ، كل له عرشه و بلاطه وجنده وشعراؤه ، و بذلك تمزق ملك العرب باندلس ، وانقسمت البلاد إلى دويلات صغيرة تسودها الفتن والمشاغبات الداخلية ، وتغلي مراجلها مما تحويه من تحاسد وتنافس بين الكبراء من أهلها ، وماتضمره من من عداوة لبعضها البعض ، فكان من نتائج ذلك أن اضمحلت القوة الاسلامية ، وسارت إلى الانحلال ، وانتهز امراء الاسبان النصارى هذه الفوضى السياسية والضعف العسكري فشمروا عن ساعد الجد ، ونهضوا لاسترداد ملكهم الضائع ، وشجعوا الفتنة والانقسام ، وحالفوا الضعيف ضد القوى حتى أضعفوا القوى ثم هاجموا الاثنين وانتزعوا منهما الأملاك ، واسترجعوا المدن الواحدة تلو الأخرى .

عرف هؤلاء الولاة والحكام بملوك الطوائف ، واشتهروا جميعا بحبهم للعلم ، وتشجيعهم للآداب والثقافة العامة ، وقد تنافسوا في احياء العلوم تنافسا عظيما . فتقدمت العلوم في عهدهم تقدما كبيرا ، واينعت الفنون ، وازدهرت المدن بآيات

الفن ، وغصت المكاتب بمختلف الكتب القيمة فكان لانفراط ملك بنى أمية فى الأندلس أثره الحميد فى تاريخ النهضة العلمية فيها ، ولو تضافر هؤلاء الملوك الأمراء واتحدت كلمتهم سياسيا كما اتحدت من الوجهة الفكرية لاستطاعوا رد غارات النصارى ، وحفظوا للاسلام مملكة فى تلك الأصقاع ، ولكنهم للأسف تفرقوا شيعا وأحزابا كما قدمنا ، وتطاحنت قواتهم ضد بعضها البعض ، ولجأ الكل الى نصارى الشمال يستعديهم على بنى قومه ، ولا يجد غضاضة فى الدخول فى ذمارهم وحمايتهم ليستنصر بهم فى الكيد لجاره ، هذا وقد اشتهر من هذه الامارات مايأتى :

أولا — أمارات الصقالبة بالجهات الشرقية وقام بالأمر فيها خيران العامرى ثم زهير فى المرية ، أما الجزر التى كانت تتبع الاندلس فى البحر الأبيض المتوسط فقد استولى عليها مجاهد بن عبدالله العامرى أحد موالى الحاجب المنصور ، وكان يسمى أبا الجيوش لامتيازه بالشجاعة الحربية والاقدام النادر ، وكان بارعا فى الملاحة ، واستطاع تكوين أسطول عظيم أغار به على شواطىء فرنسا وايطاليا ، وسيطر على البحار ، وأدخل الرعب فى قلوب المسيحيين وقطع الطرق على تجارهم وملاحيهم حتى أطلق عليه دوزى « شيخ قرصان البحار فى عصره » ، وقد اشتهر بنصرته للعلم والعلماء ، وامتلك فريق آخر من هؤلاء الصقالبة بلنسية وما جاورها من الاقاليم وظلوا بها حتى استخلصها منهم عبد العزيز بن سانكول عبد الرحمن ابن الحاجب المنصور

ثانياً — استولى بنوحمود على مالقة والجزيرة الخضراء وماجاورها من القرى والبلدان ، واتخذوا لأنفسهم لقب أمير المؤمنين وقد ظلوا سادة تلك الجهات

حتى أدركهم الضعف بسبب تنازعهم الأمر فيما بينهم فأغار ملك غرناطة على أملاكهم وانتزعها منهم عام ١٠٥٧ م

ثالثا — غرناطة وقد استولى عليها أمير من أمراء البربر يسمى زاوى وقد خلفه فى الحكم ابن أخيه المسمى حبوس ، وقد ظلت هذه الاسرة تحكم البلاد حتى أخذها بنو الاحمر فى سنة ١٠٩٠ م مما سنفصله فى مكان آخر

رابعا — حكم الامير يعيش طليطلة وظل يحكمها حتى عام ١٠٣٦ م حين استولى عليها ابن ذى النون من أمراء البربر المشهورين ، وقد اشتهرت أسرة ذى النون بكرمها وجزيل عطاياها ، وقد استمر حكمها فى تلك الجهات حتى تغلب عليها النصارى فى عهد الفونس السادس ملك ليون وقشتالة عام ١٠٨٥ م بعد حروب دموية طاحنة

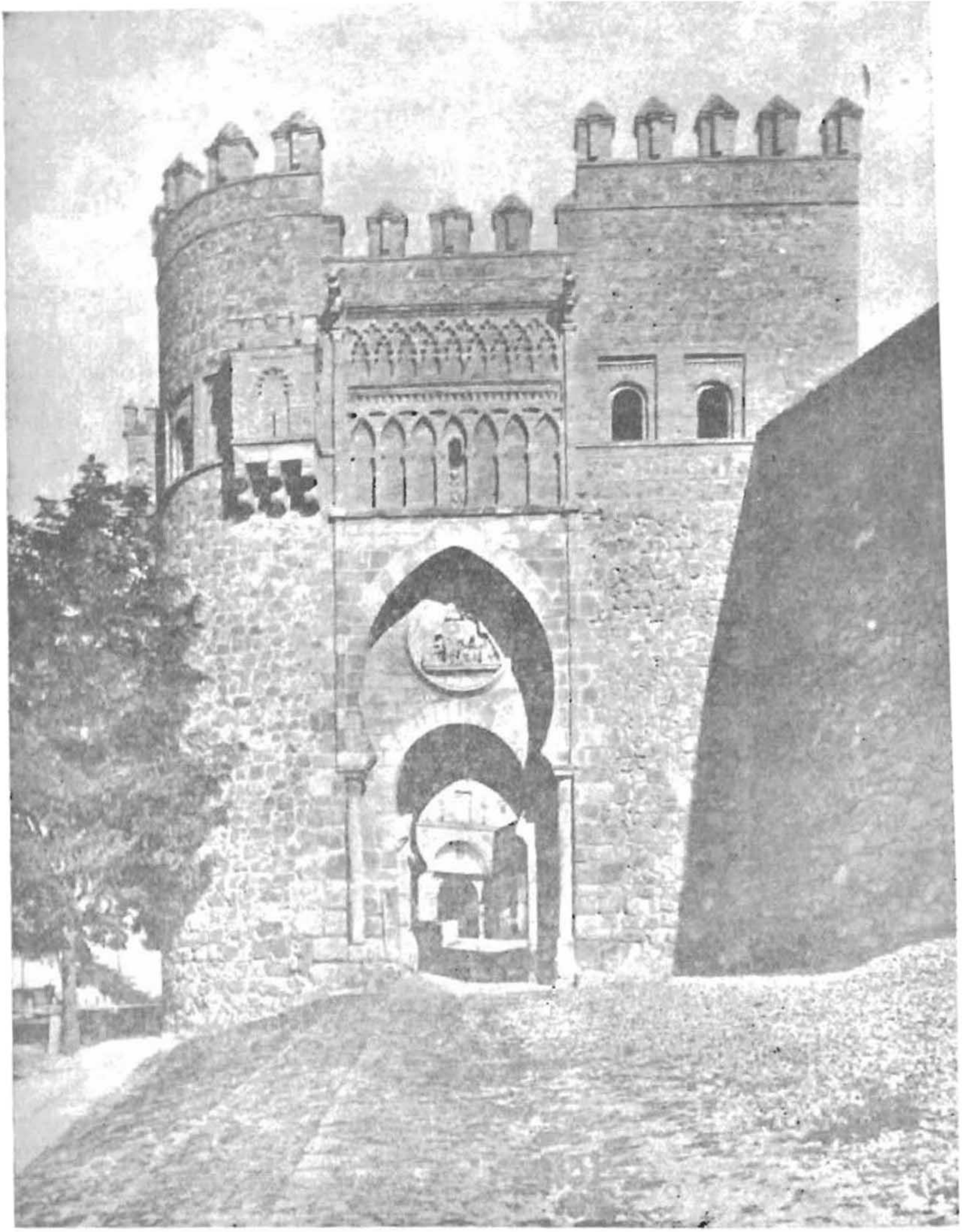
خامسا — سرقسطة وما حولها وقد استولى عليها بنو هود ويرجع نسبهم إلى أحد قواد عبد الرحمن الناصر المسمى محمد بن هشام التميمى ، وقد ظل بنو هود يحكمون تلك الجهات ويردون غارات النصارى ، ويكافحون فى سبيل المحافظة على استقلالهم وبقاء كيانهم حتى غلبوا على أمرهم وزال ملكهم على يد النصارى عام ١١١٨ م .

سادساً — استولى حكام محليون على باقى المدن فى الاندلس العربية ، وأعلنوا استقلالهم ، وظلوا يتطاحنون ويكافحون النصارى فى حروب دموية دامت نحو قرنين من الزمن ، وأخيرا غلبوا على أمرهم ، وسلموا مدنهم الواحدة بعد الاخرى لحكام ليون وقشتالة من النصارى ، واليك بعض البيان عما حدث فى قرطبة وأشبيلية وغرب الاندلس .

الفونس السادس وملوك الطوائف :

لم يكن الفونسوا يضيع وقته سدى فى سفاسف الامور اثناء ذلك ، بل عمل على ضم الاقطار المسيحية تحت حكمه ، حتى اصبح امبراطورا على ليون وقشتالة وجليقية ونافارا ، وحانت ساعة فتحه بقية شبه الجزيرة كلها ، على أنه لم يتعجل الحوادث ، وأخذ يعتصر أموال المسلمين ، و يستنزف ثروتهم على مهل بما فرضه من جزيه عليهم ، وأخيرا أتم عدته ، فشرع فى فتوحاته وأعلن على المسلمين حر با صليبية لا تعرف صلحا ولا هوادة ، فغزا طليطلة عام ١٠٨٠ م لأن أهلها طردوا أميرهم ، فلجأ إلى الفونس ووعده بدفع جزية كبيرة، وتسليم حصون معينة نظير إعادته إلى عرش الامارة ، واستمرت الحرب عامين ، وفى أثنائهما أرسل الفونس رسله إلى أشبيلية يطلب الجزية ، فحملها الوزير أبو بكر بن زيدون إلى شليب اليهودى أحد رسل الفونس، فوجد هذا أن النقود مزيفة لعجز المعتمد عن جمع المبلغ المطلوب، ولذا رفض قبولها ، وقال إنى أطلب ذهبا خالصا هذه السنة ، وفى السنة القادمة أطلب اليكم تسليم المدن ، فلما بلغ المعتمد قوله هذا غضب غضبا شديدا ، وأمر باحضار رسل الفونس ومن بينهم شليب ، ولما حضروا أمر بصلب شليب وسجن بقية الرسل ، ولما رأى اليهودى ما سيحل به ارتعدت فرائصه وطلب الرحمة ، وعرض أن يدفع ثقله ذهبا تكفيرا عن ذنبه ، فابى المعتمد وقال والله لو اعطيتنى كل بلاد الأندلس وأفريقية ما قبلته

ولما علم الفونس بما حدث ثارت ثائرته ، وحلف بالثالوث أنه لا بد منتقم من العدو انتقاما مريعا ، ومكتسح ديار المسلمين حتى جبل طارق ، واضطر أن يسلم حصنا من الحصون للمعتمد نظير اطلاق سراح بقية الرسل ، ولما تم له ذلك سار لفوره إلى أشبيلية وحاصرها ، وخرب ودمر شيدونه ، وقتل كل



أحد أبواب مدينة طليطله

مسلم قابله وأسر من لم يقتل وواصل سيره حتى وصل إلى جبل طارق و بر بقسمه الذى أقسمه ، ثم عاد إلى طليطلة سنة ١٠٨٢ م ، وابتز من أميرها أموالا طائلة حتى أتى على آخر درهم عنده، وانتزع منه حصونا كثيرة ، وخرب ضواحى طليطله ثم دخلها بعد أن سلمها أميرها عجزا منه عن الدفاع عنها عام ١٠٨٥ م ، و بدخولها ازداد الفونس صلفا وطغيانا على المسلمين استضعافا لشأنهم واستهتاراً بهم و بلغت المذلة بامراء المسلمين أن أسرعوا جميعا لتهنئته بدخول أمنع مدنهم وأخذ الكل يتزلف له بارسال الهدايا والاعتراف بأنهم ماهم إلا جباة له ، فاصبح الفونس يلقب نفسه بملك المسيحيين والمسلمين

وأتى دور بلنسية فاستولى عليها الفونس ، وحاصر سرقسطة وغزا المرية وغرناطة ، فعم اليأس ديار الاسلام ، وحل الرعب فى قلوب المسلمين ، وفى هذا الموقف الحرج والظرف العصيب رأى أمراء الاندلس أن يستنجدوا بالمرابطين الذين كانوا قد أقاموا دولة قوية فى بلاد البربر بافريقية فاوفدوا إلى يوسف بن تاشفين أمير المسلمين وفدا من قضــاة قرطبة و بطليوس وغرناطة ومعهم الوزير أبو بكر بن زيدون يدعونه لانقاذ بلاد المسلمين من خطر المسيحيين

الباب الثامن

المرابطون والموحدون بالاندلس وانهيار حكم المسلمين بها

الفصل الأول

دولة المرابطين أو الملثمين

هنالك فى الصحراء الكبرى ما بين حدود هضبة الاطلس والسودان الغربى كانت تضرب خيامها قبائل من البربر أشداء البنية ذوى جلد وفروسية يتلثمون كفرسان الطوارق الحاليين ، وظلوا على وثنيتهم حتى وصل إلى ديارهم مبشرون من قبيلة صنهاجة البربرية ، واخترقوا بلادهم من أقصاها إلى أقصاها من حدود بلاد الجزائر الحاليه حتى السنغال ، فنشروا بينهم الاسلام وعلموهم أحكامه وفرائضه وقد ظلوا مستقلين لم تطأ أرض بلادهم قدم فاتح متحصنين فى صحرائهم المنيعة فاسسوا دولا متعاقبة إلى أن تولى الملك فيهم يحيى بن عمر المتوفى عام ٤٤٧ هـ ، وفى أيامه فتح الملثمون درعه وسجلماسة . وتولى بعده أخوه أبو بكر فافتتح بلاد السوس ٤٤٨ هـ ، ومدينة اغمات ٤٤٩ هـ ، و بلاد المصامدة ٤٥٠ هـ ، ومدينة لواته ٤٥٢ هـ ثم شبت فى عهده ثورة فى أقاصى السودان فاناب عنه فى حكم بلاد المغرب عمه يوسف بن ناشفين وارتحل هو إلى داخل السودان ولقب يوسف بأمير المسلمين ، وانتزع يوسف بقية بلاد المغرب من حكامها البربر وأخضعها لحكم المرابطين وأسس

مدينة مراكش عام ٤٥٤هـ ثم دوخ جبال تلمسان وزناته وضم المغرب الأوسط والمغرب الأقصى الى دولة المرابطين . ثم وفد عليه قضاة أكبر مدن الاندلس يستصرخونه لنجدة المسلمين الذين كانوا قد استذلوا واستهين بهم

قدوم أمير المسلمين إلى الأندلس :

أسرع أمير المسلمين إلى تلبية نداء أهل الأندلس ، وقال أنا أول منتدب لنصرة هذا الدين ، ولا يتولى هذا الأمر أحد إلا أنا بنفسى ، ثم عبر البحر فى معسكر ضخم فى مائة سفينة من مدينة سبته إلى الجزيرة الخضراء ، وسلم الراضى ابن المعتمد ليوسف الجزيرة الخضراء ، كما استقبله المعتمد فى أشبيلية ومعه وجوه أهل دولته ، وقدم اليه من الهدايا والتحف والذخائر ما أدهش أمير المسلمين وبهره ، ووفد عليه عبد الله ملك غرناطة ، وتميم أمير مالقه حفيد باديس وأرسل المعتصم امير المريه جيشا كما أمد ملوك الجزيرة يوسف والمعتمد بما قدروا عليه من خيل ورجال وسلاح وعتاد ، وسار الجميع إلى بطليوس حيث انضم اليهم المتوكل أميرها مع جيشه ومنها الى طليطله بعد تكامل عدد المسلمين ، وكان الفونس السادس اذ ذاك يحاصر سرقسطة ، فرفع الحصار عنها ، وعاد مسرعا الى طليطلة ، فلقيه المرابطون وحلفاؤهم المسلمون عند الزلاقة على مقربة من بطليوس وتبادل الماهلان المكاتبات ، وكان رد يوسف الأخير الجواب ما ستراه وكان عدد المسلمين ٢٠ الفا والمسيحيين ٥٠ الفا ، وهاجم المسيحيون المسلمين على حين غرة فى ٢٣ أكتوبر سنة ١٠٨٦م ، ١٢ رجب سنة ٤٧٩ هـ ففر الأندلسيون وكانوا فى مقدمة الجيش عدا جند أشبيلية وعلى رأسهم المعتمد ولحقهم المرابطون فتعادلت الكفتان ، ودار المرابطون فالتفوا حول جيش الفونس وقتلوا منه مقتلة عظيمة ،

وأشعلوا النار فى معسكره ؛ فهرب المسيحيون وظل يوسف ينتقل بين عسكره حاثا لهم على الثبات والمصابرة وحسن البلاء ، ثم قذف يوسف بحرسه الأسود نحو الملك ألفونس فهجم عليه عبد منهم وجرحه فى فخذه بخنجر وفى المساء تم النصر للمسلمين وتمزق جيش المسيحيين كل ممزق ، فلم يبق منه الا القتيل أو الجريح ، وفر كثير من المسيحيين ومن بينهم الملك ألفونس نفسه وكان فى نية أمير المسلمين أن يخترق بلاد المسيحيين ويغزوهم فى عقر دارهم ولكن موت ابنه الذى كان قد تركه نائبا عنه فى سبته اضطره الى الاسراع فى العودة فترك أربعة آلاف من جنوده تحت أمرة المعتمد

نتائج معركة الزلاقة :

١) أخلى المسيحيون بلنسيه ، واضطروا الى رفع الحصار عن سرقسطة وفقد ألفونس خمسة وعشرين ألفا من خيرة جنوده

٢) تخلص أمراء الاندلس من مذلة دفع الاتاوة لألفونس

٣) تنفس عرب الأندلس الصعداء ، وأصبحوا آمنين من غارات المسيحيين بفضل ما تركه يوسف من الجنود المرابطين وظل الجزء الشرقى من الاندلس حيث بلنسيه ومرسيه ولورقة والمريه مكشوفا للاعداء

٤) سر أهل الأندلس بنجاتهم من عدوهم وأظهروا التيمن بأمير المسلمين وكثر الدعاء له فى المساجد وعلى المنابر ، وانتشر الثناء عليه بالاندلس ، وأظهر الناس اعظامه مما أطمعه فى بلادهم . ومع هذا فقد ظل ملوك الأندلس ضعافا لا حيلة لهم فى دفع الخطر عن انفسهم ولا طاقة لهم بحرب عدوهم

عودة يوسف الى الأندلس :

أظهر امراء الاندلس ضعفا امام المسحيين ، وظهر فى اثناء غزوات المسيحيين لشرق الاندلس تفوق جند قشتاله على جند المسلمين ، اذ هزموا جيش المعتمد عند لورقة مع انه كان عشرة اضعافهم ، وارهق اهل بلنسيه زعيم مسيحى من شذاذ الآفاق اسمه رودريجو الكمبيا دور المعروف فى التاريخ بالسيد فالبسهم لباس الخوف والفزع ، واجبرهم على دفع جزية شهرية قدرها اثنى عشر الف دينارا وبنى المسيحيون لانفسهم حصنا منيعا فى قرية اليدو تسلطوا منه على الامارات الاسلامية ، وحاول المعتمد حصرهم عند لورقة وصمم على استدعاء يوسف ثانية فحاصر قصر يوسف بن تاشفين بمدينة مراكش جمع من فقهاء الاندلس وكبرائه من بلنسيه ومرسيه ولورقة واشبيلية يناشدونه أن ينجد المسلمين مرة أخرى حتى لا يكتسح المسيحيون أسبانيا ، وفى هذه المرة زار المعتمد بنفسه يوسفا ورجاه أن ينقذ المسلمين من عدوهم ، ومع أن المعتمد لم يكن غافلا عما قد يترتب على عمله هذا من طمع يوسف فى ملك الاندلس الا أنه فضل أن يرعى الابل فى صحراء مراكش على رعى الخنازير فى قشتالة وقبل يوسف رجاء زعماء الأندلس وأمرائها فنزل بعسكره فى الجزيرة الخضراء للمرة الثانية عام ١٠٩٠م

انضم المعتمد الى يوسف كما انضم اليها بقية أمراء الاندلس تميم ملك مالقة وعبد الله ملك غرناطة والمعتصم ملك المرية وابن رشيق أمير مرسيه ، وحاصر الجميع حصن اليدو ، وأعد صناع مرسية عدد الحصار ، وأخذ كل أمير يهاجم الحصن يوما بطوله ، ولكنهم عجزوا عن فتحه لاستماتة حاميته فى القتال ، وكان عددها ١٣ الفا

وأخيرا عزم المسلمون على اجبارهم على التسليم جوعا ، وفى أثناء ذلك داخل المحاصرين الهواجس مما ترامى اليهم من اتجاه نية يوسف إلى اخضاع الأندلس وانتزاعها من أيدى أمرائها وضمها إلى ملكه ، وشجعه على ذلك كثير من الفقهاء والزعماء الذين رأوا أن انضمام الاندلس إلى عاهلية المرابطين يخلصهم من الكوارث والنكبات المنصبة عليهم من المسيحيين، بسبب انقسام البلاد إلى إمارات متباغضة وطمع كل أمير فى ملك جيرانه ، واستعانتهم جميعا بالمسيحيين على بعضهم البعض ، على أن الأمراء والشعراء والفلاسفة وكبار ذوى المناصب لم يكن يروقهم أن يستولى المرابطون على البلاد

أما الشعب فكان فى صف الفقهاء يريد أن يضم المرابطون بلاد الاندلس إلى ملكهم حتى يأمن الناس على أنفسهم وأموالهم وأهليهم من كل اعتداء ، ويتخلصوا مما يفرضه الأمراء عليهم من باهظ الضرائب ، ويخلصوا بلادهم من مذلة دفع الجزية للمسيحيين ، وأخيرا تحرك القاضى أبو جعفر القليعى قاضى غرناطة فافتى بحق يوسف الشرعى فى امتلاك الأندلس دفاعا عن بيضة الاسلام ، وبدأ يوسف ينظر جديا فى تحقيق غرضه ، وشجعه على الاسترسال فى مشروعه ماشهده من انقسام الأمراء على أنفسهم وتحاسدهم ووشاياتهم ودسائسهم حتى وقت ان كانوا فى معمعمة النزال محاصرين لحصن اليدو . إذ طلب المعتمد القبض على ابن رشيق أمير مرسية لأنه سبق أن كان حليف الفونس السادس ، ولاشىء يمنعه من أن يكون متصلا به كما أنه كان حاكما على مرسية من قبل المعتمد فاستقبل بها . وأحال يوسف المشكلة على الفقهاء فافتوا بتسليم ابن رشيق الى المعتمد ، وإذ ذاك استاء جند مرسية وأضربوا عن الاشتراك فى القتال ، وعن تقديم الأطعمة والذخيرة . فتحرج موقف المسلمين وقد أقبل الشتاء بهصرهم قره ، وزحف عليهم

الفونس بجيش عدده ١٨ ألفا لفك الحصار عن حصن اليدو

صمم يوسف على الانسحاب إلى لورقة لأنه خشى فرار الاندلسيين كما حدث فى موقعة الزلاقة ، ولأنه رأى أن اليدو لم تعد تصلح أن تكون حصنا وحققت الحوادث صدق نظره إذ لم يكد يشهد الفونس ما أصاب أسوار الحصن من تلف لا يمكن ترميمه وما فقدته الحامية من خسارة فى أثناء الحصار (لم يبق منها إلا ١٠٠ جندى) حتى أحرق الحصن ، وعاد إلى قشتالة

والقى الفقهاء اللوم كله فيما حدث على الأمراء ودسائسهم واحقادهم ، واتجه يوسف فى مسيره إلى غرناطة بجزء من جيشه ، وأمر بقية الجيش أن تلحق به ولما رأى عبدالله ملك غرناطة نوايا يوسف العدائية استنجد بالفونس فلم يجده ذلك نفعا ، وأخيرا سلح صناع غرناطة ونساجها ، وأنفق فى ذلك كل ما لديه من مال فلم يغن ذلك عنه شيئا ، إذ تسلل أنصاره منفضين من حوله ، ونصحه مستشاره كما نصحته أمه بالتسليم ، وكانت أمه تطمع فى أن يتزوجها أمير المسلمين ، فخرج لاستقباله فى ركب فخم ، ولكن يوسف امر بالقبض عليه وان يوثق بالاغلال ، ثم رحب باعيان غرناطة ودخل المدينة فى صحبتهم وسط حماس لا يوصف حيث بايعه الناس

واستولى يوسف على كنوز غرناطة ، وما فى قصورها من تحف واموال وعتاد واحجار كريمة من زمرد و ياقوت وماس ولآلىء وآنية من فضة واكواب من ذهب ، وفى غرناطة قدم عليه المعتمد والمتوكل مهنئين بالفتح والظفر ، وارسل المعتصم ابنه عبيد الله للتهنئة ايضا فقوبلوا مقابلة فاترة ، وقبض يوسف على ابن المعتصم وسجنه فتفتحت اعين الأمراء إلى الخطر الذى جروه على انفسهم وعزموا على

تكوين حلف ضد المرابطين والاستعانة بالفونس السادس على طردهم من الأندلس

واستدعت الحوادث عودة يوسف إلى أفريقية ، فسافر إلى الجزيرة الخضراء ومنها عاد إلى بلاده . وفى طريقه انتزع امارة مالقة من تميم أخى عبدالله أمير غرناطة وترك لقواده مهمة اخضاع أمراء الاندلس بفتوى الفقهاء، الذين أفتوا بان الأمراء فسقة مستهترون ، وظلمة مارقون ، وأنهم بتحالفهم مع أعداء الاسلام قد حل خلعهم وأصبح يوسف فى حل مما عاهدهم عليه ، بل صار لزاما عليه أن يقضى عليهم إذ لو تركهم على ماهم فيه لسلموا بلاد المسلمين إلى أعدائهم المسيحيين ، ووافق على هذه الفتوى علماء المغرب ومصر والعراق وعلى رأسهم حجة الاسلام الغزالى

استيلاء المرابطين على البلاد

كانت الحرب بين المرابطين والأمراء حرب حصار لاحرب ميادين، فسارت كتيبة من جند المرابطين لحصار المرية ، وأخرى إلى قرطبة ، ففتحتها بعد أن دافع عنها الأمير فتح بن المعتمد وقتل فى دفاعه عام ١٠٩١م، وسقطت قرمونة فى مايو ١٠٩١ م ثم حوصرت أشبيلية وتحرج مركز المعتمد فلجأ إلى الفونس يستنجده ولكن المرابطين هزموا جيش المسيحيين الذين جاءوا لنجدة المعتمد . فيئس وترك أمر الدفاع عن أشبيلية إلى ابنه الرشيد . ولم تجد المقاومة نفعا فسقطت أشبيلية فى سبتمبر ١٠٩١ م ونهب المرابطون قصر المعتمد وسلمت روندا فغدر المرابطون بقائدها الراضى بن المعتمد . ثم سقطت بطليوس وقتل المتوكل أميرها وولداه الفضل والعباس . وفى عام ١٠٩٤م استولى المرابطون على بطليوس قبل أن يتمكن

الفونس من أنجاد أميرها ، أما فى شرق الاندلس فقد سقطت المريه ومرسيه ثم بلنسيه ١١٠٢ م ومات يوسف سنة ٥٠٠ هـ ١١٠٧ م فتولى الملك من بعده ابنه على بن يوسف بن تاشفين فاستمر فى اخضاع امارات الاندلس واستولى على سرقسطة و بذلك تم الأمر للمرابطين

مأساة المعتمد :

سكب المعتمد أحزانه وهمومه على القرطاس فدون قصة مفجعة حزينة هى مأساة خالدة من أروع المآسى وسالت عيون قصائده رائعة تهز المشاعر هزا وتملأ النفس رثاء واشفاقا ولما قبض عليه وعلى اسرته ونفوا إلى طنجه قال المعتمد عندما وطئت قدمه العدوة

لما تماسكت الدموع وتنهنه القلب الصديع
قالوا الخضوع سياسة فليبد منك لهم خضوع
وألذ من طعم الخضوع على فمى السم النقيع
أن تستلب عنى الدنى ملكى وتسلمنى الجموع
فالقلب بين ضلوعه لم تسلم القلب الضلوع
أجلى أتأخر لم يكن بهواى ذلى والخشوع
ما سرت قط إلى القتال وكان من أملى الرجوع
شيم الألى أنا منهم والاصل تتبعه الفروع

ومات المعتمد ١٠٩٥ م ودفن بأغمات ورثاه ابو بكر بن اللبان شاعره بهذه الأبيات :

تبكى السماء بدمع رائح غادى على البهاليل من أبنـاء عباد
على الجبال الذى هدت قواعدها وكانت الأرض منهم ذات أوتاد
والرابيات عليها اليانعات ذوت أنوارها فغدت فى خفض أوهاد
باضيف أقفر بيت المكرمات فخذ فى ضم رحلك وأجمع فضلة الزاد
ويا مؤمل واديهم ليسكنه خف القطين وجف الزرع بالوادى

حكم المرابطين بالأندلس

تحققت رغبة الفقهاء والشعب بتوحيد ملك الاسلام فى الاندلس تحت حكم المرابطين ، فأصبح لرجال الدين القول الفصل ، وكان ملوك المرابطين على أعظم جانب من الصلاح والتقوى ، وخصوصا على (١١٠٦ — ١١٤٣ م) وتاشفين الثانى (١١٤٣ — ١١٤٥ م) وكان على كثير التقوى يصوم النهار ويقوم الليل ، وفى عهده علت كلمة ابن حمدين قاضى قرطبة . ولكن الشعراء والفلاسفة والمشتغلون بالعلوم ضاقت بهم سبل العيش ، واضطهدوا اضطهاداً شديداً ، فأصبحوا يتحسرون على عهد الامراء الذين كانوا ينعمون فى بحر عطاياهم . واضطر كثير منهم أن يهجر الاشتغال بالفلسفة ، ويستبدل بها دراسة الفقه والحديث كما فعل مالك بن وهيب ، وتغيرت معاملة المسيحيين واليهود : فلم يعودوا ينعمون بالتسامح الدينى الاسلامى ، فهدمت الكنائس بأمر الفقهاء مما استفز الفونس إلى العودة إلى قتال المسلمين ، فغزا ديارهم وأعمل فيها النهب والتخريب حتى نواحى قرطبة ، وعند عودته انتقم المسلمون من المسيحيين المقيمين بين ظهرانيهم ، فاضطر عشرة آلاف منهم إلى الهجرة شمالا والاستيطان فى ديار

المسيحين ، ومما يدل على تعنت الفقهاء أمر القاضى ابن حمدين باحراق كتاب الاحياء للغزالى حجة الاسلام

على أن المرابطين قد تمكنوا من إعادة الامن إلى نصابه، وضبط الطرقات وارهاب ملك قشتالة حتى لم يعد يجرأ على شن الغازات على المسلمين ، وكانت الضرائب معتدلة ، وكان اليهود يشترون حريتهم الدينية بدفع مال يكفى لسداد العجز فى وارد الخزينة ، فعم الرخاء بلاد الاندلس ، وتحسنت حالتها الاقتصادية ، أما من الوجهة الحربية فان المرابطين لم ينالوا نصراً باهراً على المسيحيين ، فلم يحققوا ما عقده الشعب عليهم من الآمال، ولم تبلغ انتصاراتهم ما بلغته انتصارات عبد الرحمن الثالث أو الحكم الثانى أو المنصور بن أبى عامر ، ولقد فوتوا فرصة لا تعوض: ذلك أن مسيحى الشمال انقسموا على أنفسهم بعد وفاة الفونس السادس عام ١١٠٩م وقامت الحروب الأهلية فى أسبانيا المسيحية فلم يحرك المرابطون ساكناً ومع أنهم استولوا على بضعة مدن صغيرة لا أهميه لها فقد ضاعت سرقسطة من أيديهم إذ استولى عليها المسيحيون عام ١١١٨م كما أنهم عجزوا عن الاستيلاء على طليطلة ، وأدرك مسلموا أسبانيا بعد قليل أنهم لم يستفيدوا من ذلك الانقلاب إلا فائدة لا تكاد تذكر ، إذ إنغمس المرابطون بدورهم فى الترف والنعيم : فتبدلت طباعهم وفقدوا خشونة الجندية وتقشف المجاهدين وتقوى النساك ، وأخذتهم زخارف المدنية التى رأوها ، فبدأوا يقلدون الأمراء الذاهبين الذين خلعوهم ، وفشا العصيان فى الجند . فأخذوا ينهبون الناس ، وكثر فرارهم من مواطن القتال وقعودهم عن جهاد العدو ، وتدهورت حالة الجيش حتى اضطر على أمير المسلمين مع شدة كراهيته للمسيحيين إلى اتخاذهم له أجناداً ، فاستخدم الجند المرتزقة من جليقية وقطلونيه وإيطاليا والرم،

كما أن النساء أصبحن يتدخلن فى تسيير شؤون الدولة،وتسيطرت قمر زوجة على على بعلها ، كما سيطرت زوجات الأمراء والقواد على أزواجهن ،وكان كل شرير من لص أو قاطع طريق ينتسب إلى إمرأة عظيم فيجعلها ملجأ له ، وبدا عجز الحكومة وارتباكها فتخبطت فى قراراتها تنقض اليوم ما ابرمته بالامس وتطلع الامراء إلى عرش البلاد كل يتحفز للوثوب عليه

سقوط دولة المرابطين :

فى أثناء ذلك كانت صحارى أفريقية فيما وراء هضبة الاطلس تتمخض عن ثورة جديدة عام ١١٢١م — ٥١٥هـ زعيمها المهدى المصلح محمد بن تومرت . وأخذ المهدي ينشر دعوته بين قبائل البربر والزنوج الذين أطلقوا على أنفسهم اسم الموحدين وتقلدوا السلاح لحرب المرابطين ، وكان قيام الموحدين الضربة القاضية على دولة المرابطين المتداعية إذ لم يكد الجند يرون الاعداء حتى فروا من القتال فرقاً ورعباً وحبا فى الحياة ، ولم يثبت فى مواطن النزال إلا الجند المسيحيين . واضطرت دولة المرابطين ابقاء على نفسها أن تحشد كل مالديها من جند وتجمع كل ماعندها من الجيوش والحاميات ولم يهمل المسيحيون انتهاز هذه الفرصة فاغار الفونس السابع ملك قشتاله الذى لقب نفسه بلقب امبراطور المسلمين والمسيحيين على الاندلس الاسلامية عام ١١٣٣م ونشر النار ووضع السيف فيها حتى قرطبة وأشبيلية وقرمونه ووصل إلى قادش ثم إلى جبل طارق ، وفى ١١٣٨ م خرب وعبيده أنحاء جيان وفى عام ١١٤٣ م أعادوا الكرة على قرطبة وأشبيلية وقرمونه وفى ١١٤٤م أتم اجتياح جميع بقاع الاندلس

ورأى الشعب الاندلسى ، والاسى يملا قلبه ، أن الانقلاب لم يفده الابارقة

من الازدهار كانت برقاً خلباً ثم انقضت وشيكا، وأعقبها عجز الحكومة وتفشى الفساد والظلم فيها وانقلاب الجند وحوشا جبناء يفرون من العدو وينهبون المستضعفين من الناس ، وانحلال السلطات الحكومية ، حتى غدت المدن والريف تعج بقطاع الطرق ومناسر اللصوص ، ووقفت حركة التجارة ، وقل القوت وغلت أثمانه ، وعز على الفقير نواله ، ويضاف إلى تلك الكوارث طامة كبرى هى عودة المسيحيين إلى ترويع المسلمين بغزواتهم التى لا تنقطع .

فتحطمت تلك الآمال التى وضعها الناس فى المرابطين وانقلب ثناؤهم سخطا وحبهم مقتا ، وفى ١١٢١ م ثار أهل قرطبة على جند المرابطين وانضم الفقهاء إلى جانب الشعب وأفتوا بأن قتال المرابطين مشروع جائز دفاعا عن النفس التى حرم الله قتلها إلا بالحق ، وخضع على للفقهاء فعاد الشعب الى السكون واستمر السخط تغلى مراجله فى المدن الاخرى حتى اشتكى أهل سرقسطه وأشبيلية إلى الفونس السابع ملك المسيحيين ، واستجاروا به أن ينقذهم من المرابطين ، ووعدوه أن يدفعوا له الجزية كما كانوا من قبل ،وصمم الشعب أخيرا على أن يقوم قومة رجل واحد لطرد المرابطين والالتجاء الى محالفة الفونس السابع بعد ماندم على خذل أمرائه والغدر بهم وتسليمهم لأمير المسلمين

الفصل الثاني

الموحدون

فى سنة ٥١٥ هـ ١١٢١ م قام بسوس بين قبائل البربر من مصمودة المهدى محمد بن تومرت فى صورة آمر بالمعروف ناه عن المنكر ، وادعى نسبته إلى الحسن بن على وكان قد رحل إلى المشرق فى طلب العلم ، وانتهى إلى بغداد ولقى أبا بكر الشاشى فأخذ عنه شيئا من أصول الفقه والدين وسمع الحديث على المبارك بن عبد الجبار ونظرائه من المحدثين ، ولقى أبا حامد الغزالى بالشام أيام تزهده وأخذ بمذهب الأشعرية أهل السنة ، ولما عاد إلى المغرب أخذ يعظ الناس ومعظمهم على مذهب أهل الظاهر فى منع التأويل ، فاجتمع عليه الناس ومالت اليه القلوب ، وأخذ يبث آراءه بين البربر وسمى أتباعه بالموحدين استنكارا منه لتكفير القائلين بالتجسيم الذى يؤدى اليه الوقوف على الظاهر . إذ كان هو ينهى عن الجمود على الظاهر . ولما كثر أنصاره ادعى أنه المهدى المنتظر والامام المعصوم . ورفع نسبه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم بسط يده فبايعه أنصاره على ما بايع عليه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عام ٥١٥ هـ

ولما تمت البيعة أخذ يقاتل المرابطين فى المغرب وأمر على جيوشه عبد المؤمن أحد كبار المخلصين له من أنصاره ، فاخضع المهدى لمنونه . وقضى على دولة المرابطين فى المغرب الأوسط والمغرب الاقصى من حدود برقة إلى المحيط الاطلسى وتوفى المهدى عام ١١٣٠ م — ٥٢٤ هـ فخلفه عبد المؤمن أكبر أنصاره وأشدهم إخلاصا لدعوته وحكم ٣٠ عاما حكما موفقا

ولما اجتاح الفونس السابع حفيد الفونس السادس بلاد المسلمين مخربا مدنها العامرة واضعا السيف فى الوادعين من أهلها استنجد أهل الأندلس بالموحدين فأرسل عبدالمؤمن أسطولا وجيشا انتزعها من المرابطين وهزم المسيحين وصدهم عنها عام ٥٤٠ هـ ١١٤٦ م وفى ٥٤٧ غزا الموحدون تونس وضموها الى ملكهم

فتح الأندلس :

نزلت جيوش عبدالمؤمن بالجزيرة الخضراء ١١٤٥ م فوجدوا مسلمى الاندلس يمزق كيانهم التنافس والشقاق والمسيحيين أشداء عليهم فأخذوا فى فتح البلاد واستخلاصها من أيدى المرابطين الذين كانوا قد استقلوا بها . ومن الجزيرة الخضراء زحف الموحدون على اشبيلية ثم مالقة ١١٤٦ م . ثم استولوا على قرطبه وأخضعوا الجنوب حتى جبل طارق ١١٥٠ م ومات عبد المؤمن ١١٦٣ م بعد ان وسع ملك الموحدين نصف بلاد المسلمين فى العالم القديم تقريبا . وكان أشقر اللون أزرق العينين حاد الذكاء شجاعا حازما متصلبا فى دينه يحب العلماء و يقربهم اليه فازدهرت العلوم والفنون فى عصره وبخاصة فى الاندلس . وشيد عبد المؤمن جامعات العلم فى مراكش وتولى من بعده ابنه محمد ثم ابنه الثانى ابو يعقوب يوسف . وكان كريما رحيما سعد الناس فى عصره ورتعوا فى سعة من العيش ورغد واجاز ابو يعقوب يوسف الى الأندلس مرارا وكان له فيها انتصارات باهرة على المسيحيين وتولى الملك من بعده ابنه يعقوب المنصور عام ١١٨٤ م وفى عهده وصلت دولة الموحدين الى اتمام عظمتها ورقيها وقوتها وكان عالما نافذالبصيرة فأعلن الحرب على الفونس التاسع ملك قشتالة ثم هادنه خمس سنين فى اثنائها تضخم جيش قشتالة بمن انضم اليه بدافع التعصب الدينى من مسيحى ما وراء جبال البرانس

فغزا الاندلس الاسلامية وارتكب من الفظائع ما تقشعر من هوله الابدان وأخذ يسلب ويسفك الدماء، فلما علم يعقوب ذلك اجتاز البحر من مراكش إلى الاندلس وصدم المسيحيين الذين تجمعت جموعهم من اقصى بلاد العالم المسيحى فى موقعة الاراك عام ٥٩١هـ ١١٩٥م بجوار بطليوس وهزمهم هزيمة عظيمة تفوق هزيمة الزلاقة وقتل من جيوشهم ١٤٦ الفا وأسر ٣٠ الفا وغنم يعقوب غنائم لاحصر لها، من خيام وجواهر ومال وبغال وحمير وخيل فقسمها بين المسلمين، وفر الفونس إلى طليطلة وجمع جيشا آخر لقتال الموحدين. وسقطت مدريد وسلمنقة وحصونا ومدنا كثيرة فى أيدى المسلمين

ثم زحف يعقوب لحصار طليطلة وضيق الخناق على الفونس التاسع فيها فخرجت أمه وزوجاته وبناته باكيات بدموع غزيرة، وتوسلن الى يعقوب أن يكف عن حصار المدينة، فتأثر يعقوب وعفا مكرمة منه عن الفونس. واستجاب اليهن وردهن مكرمات، ثم عاد إلى أشبيلية حيث وفد عليه رسل الفونس يطلبون الصلح وبعد عقده عاد يعقوب إلى أفريقية عام ١١٩٧م وتوفى هناك ١١٩٩م

وكان يعقوب معاصرا للسلطان صلاح الدين الأيوبى واليه أرسل صلاح الدين بعثة تطلب منه المعونة ضد الصليبيين، وكان نصيرا للعلوم والفنون متدينا صالحا حكم امبراطوريته حكما عادلا قويا، وكان جيشه حسن التنظيم مدربا وهو الذى أسس المستشفيات والمستوصفات فى كل مدينة تحت حكمه لمعالجة المرضى والعناية بالضعفاء والمعوزين، ونبغ فى عصره ابن رشد الفيلسوف الشهير، وكان قاضية لقرطبة، وابن زهر الطبيب الذائع الصيت، وابن باجة الطبيب. واعتنى بالرى وتشييد المبانى والمدن والقصور والحصون، ومن أثاره مرصد اشبيلية الذى بناه بعد موقعة الاراك

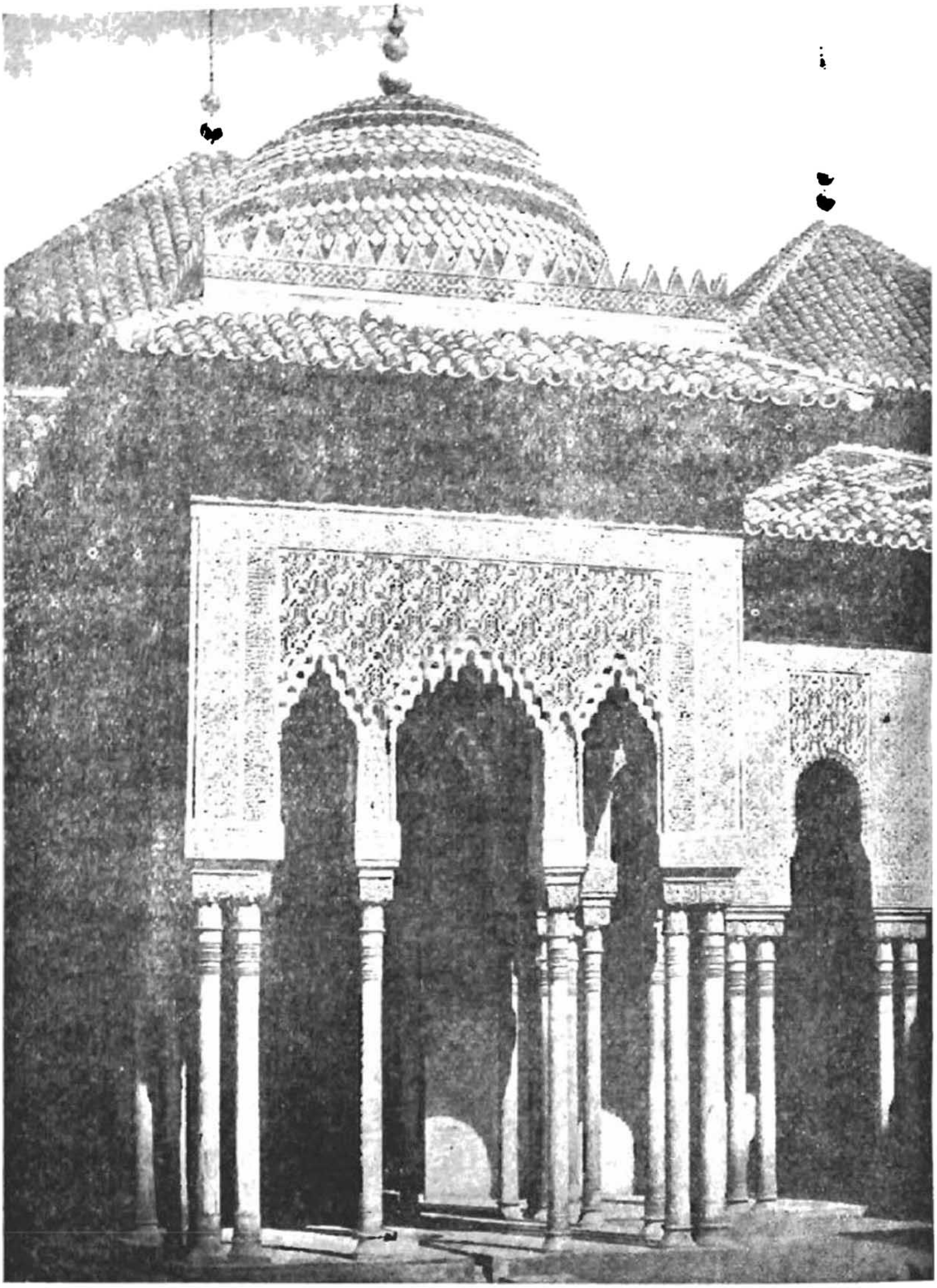
وتولى بعده ابنه محمد الناصر لدين الله فكان على عكس أبيه خامد الهمة عاكفا على اللهو معدوم الكفاية . وعلى يديه كان خراب دولة الموحدين وضياع ملك الاسلام فى الاندلس. ولم يكد يعلم المسيحيون بموت يعقوب حتى جددوا غاراتهم على المسلمين ، وملأ الفونس التاسع البقاع المحصورة بين أشبيلية وقرطبة بجنوده يعبثون فسادا، فيها فاضطر الناصر إلى عبور البحر من سبته بمراكش الى الأندلس ومعه ٦٠٠ ألف مقاتل عام ٦٠٩هـ ١٢١٣م وتخاذل الاندلسيون عن جهاد عدوهم وكان انتصار صلاح الدين فى الشرق قد أعاد الى أوربا جموعا من مغامرى الصليبيين الذين أرادوا أن يثأروا من مسلمى الغرب لما لاقوه من هزيمة على أيدى مسلمى الشرق

واعلن البابا أنوسنت الثالث حربا صليبية على المسلمين وأخذ اسقف طليطلة يحرض المسيحيين على القتال كما كان يفعل بطرس الناسك من قبل . فاجتمع ملوك قشتالة وأرغون والبرتغال وليون ونافارا وانضم اليهم جموع من فرسان فرنسا وايطاليا وألمانيا الصليبيين، والتقى الجمعان فى موقعة العقاب وفى أول صدمة هرب الاسبانيون . وثبت البربر . ولكن غلبهم جموع المسيحيين وقضوا عليهم ورجع الناصر مهزوما إلى أشبيلية . ومنها أسرع بالعودة إلى مراكش حيث مات حزنا وعارا وبموته قسمت دولته وتمزقت كل ممزق . ووثب كل أمير على ماتحت يده مستقلا به. وأخذ كل يكيد للآخر ويستعين بالمسيحيين، الذين عادوا يتسلمون الحصون والبلاد والجزية نظير معونة يقدمونها لأمير على آخر. وأخيرا اجتمع أبناء الأسر العربية وكبار مسلمى اسبانيا على اخراج الموحدين من بلادهم، وثاروا تحت قيادة ابن هود وابن مردنيش وابن الاحمر. فاستولى ابن هود على شرق الاندلس وابن زياد على بلنسية . ومحمد بن يوسف المعروف بابن الاحمر على غرناطة .

وانقرضت دولة ابن هود سنة ٦٦٨هـ ١٢٤٦م

وكذلك سقطت الدويلات الأخرى الواحدة بعد الأخرى فى أيدى المسيحيين ومازال المسيحيون يهاجمون قرطبة حتى سقطت فى أيديهم عام ٦٣٤هـ ١٢٣٦م وفى ١٢٣٨م سقطت بلنسيه وفى ١٢٤٨م سقطت اشبيلية ولم يقو على الوقوف طويلا فى وجه لمسيحيين إلا بنو الأحمر فى غرناطة

هذا ويرجع سقوط الموحدين فى اسبانيا إلى السبب الرئيسى. وهو عدم نقل مقر حكمهم من افريقية إلى الاندلس . وانهم اكتفوا بالبقاء فى أفريقية وبسط نفوذهم على اسبانيا والمجىء اليها من آن لآخر لمحاربة النصارى.



ردهة فى بهو السباع بقصر الحمراء

الفصل الثالث

دولة بني الأحمر : ٦٣٠ — ٨٩٨ هـ ١٢٣٢ — ١٤٩٢

انكمشت دولة المسلمين فى امارة غرناطة التى أسسها محمد بن الأحمر فاستطاعت لمناعة موقعها أن تقاوم المسيحيين مدة قرنين ونصف . واصل بنى الأحمر من أرجونه ويعرفون ببنى نصر ويرجع نسبهم إلى سعد بن عباده سيد الخزرج . وقد جاء بنو نصر إلى بلاد الأندلس عقب الفتح الاسلامى ودخلوا فى خدمة الدولة الأموية ، وتقلبوا فى وظائفها وبخاصة قيادة الجند ، وكان محمد هذا يلقب بالشيخ ومعترفا له بزعامة بنى نصر بسبب خلقه القويم وكفايته النادرة ، وعرف بابن الأحمر لأن بشرته ولون وجهه كان يميل إلى الحمرة .

وظهر ابن الأحمر فى أرجونه من ضواحى قرطبة وتحصن بها ، ومد فتوحاته منها إلى شواطىء مضيق جبل طارق ونادى بنفسه سلطانا ، ونافس ابن هود فى مطامعه فاضطر إلى الاستعانة بالمسيحيين ، وحالف فرديناند الثالث ملك قشتاله واستعان به على ابن هود ولكن هذا قدم للمسيحيين ثلاثين حصنا ليساعدوه على اسقاط ابن الأحمر . وهكذا عادت الفتن الأندلسية سيرتها الأولى فخسر المسلمون واستفاد المسيحيون ، وقامت حرب داخلية انتهزها المسيحيون فاستولوا على بلاد أولئك المساكين ، ولم تكن معاونة المسيحيين لابن الأحمر ضد بنى هود إلا للتخلص من خصم من خصومهم على يد خصم آخر ثم الانفراد به بعد ذلك

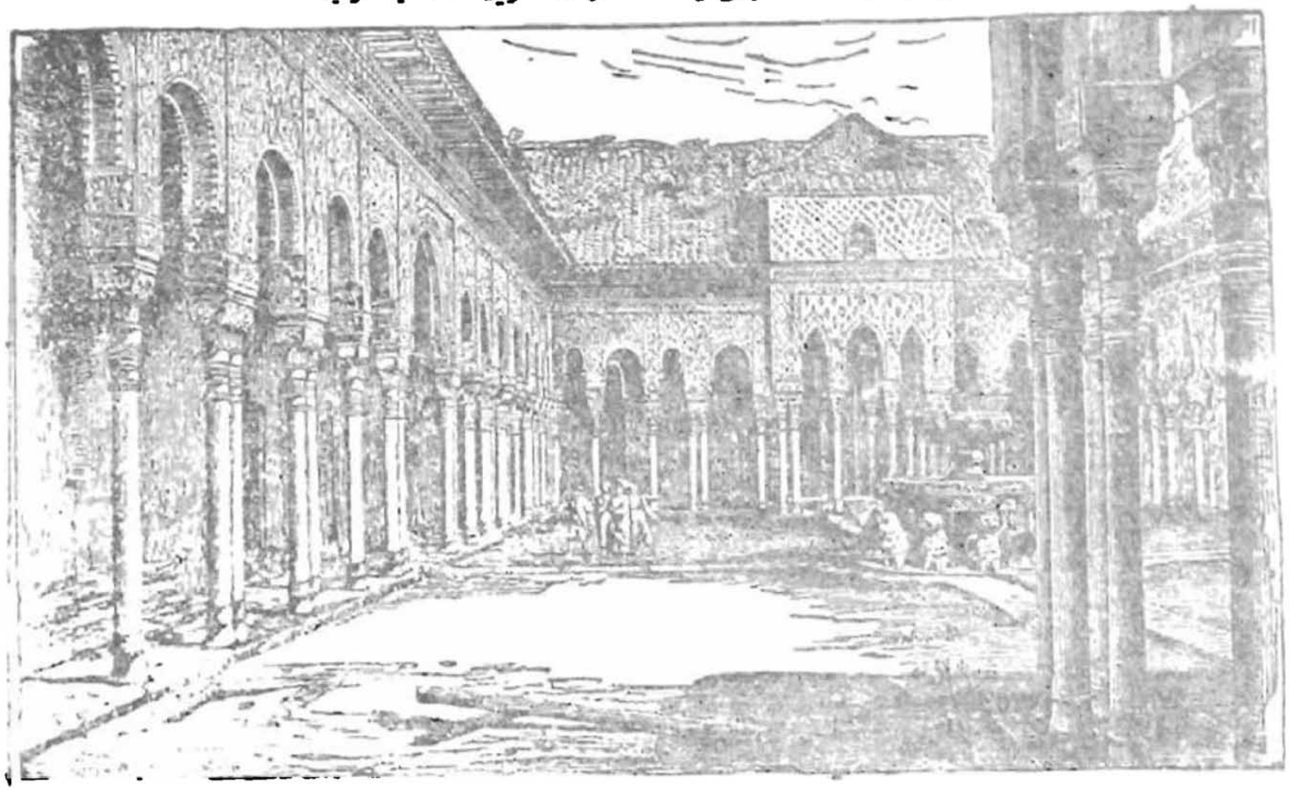
وتمكن ابن الأحمر أثناء انشغال ابن هود بحرب المسيحيين من انتزاع بعض

ممتلكاته مثل الاراك وجيان وغرناطه ومالقه والمريه ، واقامة دولةحصينة قويت على صد أحداث الزمان أمدا طويلا واتخذ غرناطه عاصمةله ، وسمى نفسه الغالب بالله وهو الذي شيد قصر الحمراء والقصبه

ويعتبر قصر الحمراء جوهرة فريدة بين آثار المسلمين ويقع على ربوة عالية تشرف على سفوح سيارأ نفادا ، ويعد معجزة لفن العمارة العربى وآية فى ابداع نقوشه وشموخ أبراجه واتساع باحاته وردهه الأنيقة وقبابه العالية ، التى يتدلى من سقفها الثريات وأهداب الذهب ، كأنها مدلاة من مغارات طبيعية . أرضه مفروش بالرخام وبه قاعة تسمى ردهه القضاء ، كان يجلس فيها الملوك والقضاة لرد المظالم والنظر فى الدعاوى، منقوشة نقشا رائعا، سقفها مكون من ٣ آلاف قطعة وصل بعضها ببعض بمهارة عجيبة حتى ليخالها الرائى قطعة واحدة . ثم تليها قاعة الآس المدهشة الاخاذة، ومنها يصل الزائر إلى حجرة تسمى صحن البركة وبها بحيرة جميلة تصب المياه فيها من أفواه سباع وكأن خرير مياهها زئيراً ترسله فى الآفاق . وإلى جانبها قاعة الخلافة مزينة بالقباب مزخرفة بالنقوش المموهة بالذهب، وعلى مقربة من هذه قاعة الحريم وفيها يتجلى الجلال والجمال ، أرضها من الرخام الأبيض ، وسقفها مموه بالذهب ويشرف على روض زاهر وبساتين نضرة ، ويشتهر قصر الحمراء بمقصوره السباع التى طبقت شهرتها الخافقين ، وهى لاشك أبدع ما فى القصر إذ بها أعمدة مدهمة فوقها عقود وهى لكثرتها يخالها الناظر غابة متجمعة من الرخام ، وتحصر هذه العمد فسقية يتناثر رشاش مياهها من أفواه سباع محكمة الصنع الوضع

كل ما فى الحمراء مدهش معجز ، فالنقوش البارزة والغائرة ، والحواشى المهدبه والتماثيل والزخارف والجص والفسيفساء والهندسة والتنظيم والوضع كله آية يعجز عن محاكاتها البشر ، ويكاد الرائى يحسب القصر كله قطعة واحدة لا عوج فيها

وضراغم سكنت عرين رئاسة   تركت خرير الماء فيه زئيرا



مقصورة السباع بقصر الحمراء

ولا امتاء هذه التحفة الفنية قد أعمل الاسبان الجهلة فيها يد الهدم الوحشية شفاء لاحقادهم،غافلين عن أن الحظ الأعمى قد الق اليهم بأعجوبة من أعاجيب الزمان. بين مقاصير هذا القصر وفى نضرة هذا النعيم كان تعيش سلاطين بنى الأحمر ينعمون ويلهون كأنما نقلوا فى منامهم إلى أرض خيالية هم عنها راحلون

وقد بلغت مساحة هذا القصر خمسة وثلاثون فداناً ، وكان قصر العظمة والجلال ، ومعجزة الفن ، والمثل الأعلى للصناعة العربيه ، وقصارى ما أبدعته يد الفنان ، ومنتهى ما وصلت اليه صناعة الانسان ، أطلت من الحضارة العربية ، وقد أخذت زخرفها وازينت على أوربا وهى إذ ذاك موحشه مقفره ، فكان ذلك أسطع دليل على أن الحضارة الغربية وليدة الحضارة العربية

وكان جل اعتماد ابن الاحمر فى سياسته على تحالفه مع بنى مرين ملوك أفريقية (المغرب الاقصى) . وبفضل هذا التحالف استطاع ابن الاحمر أن يرد هجمات ملك قشتاله عام ١٢٦١ م ٦٦٠هـ ومات ابن الاحمر ١٢٧٢

وخلفه على العرش ابنه أبو عبد الله محمد الثانى وكان عالما فقيها محبا للعلم، وفى عصره غزا ملك قشتاله غرناطه مرة أخرى عام ١٢٧٤م وكان الجيش المسيحى بقيادة جونز الزدى لارا، ولكن سلطان غرناطه استنجد بحلفائه بنى مرين، وبفضل مساعدتهم استطاع أن يهزم المسيحيين وأن يقتل جونز الزدى لارا أثناء الهزيمة ، وتمتعت غرناطه بعد ذلك بسلم دام إحدى عشر عاما ما لبث القتال أن تجدد بعدها مع القشتاليين ، ولكنهم هزموا فيه ومات محمد عام ١٣٠٢م بعد حكم دام ٣٠ عاما وكان يلقب بالفقيه لتفقهه فى أمور الشرع والدين

وخلفه ابنه أبو عبد الله محمد الثالث وكان حكيما قديرا، على أن أخاه نصرا ثار

عليه واغتصب منه العرش، فانتهز القشتاليون الفرصة وجددوا هجومهم على غرناطه وساعدهم ملك أرغون ، واضطر نصر إلى دفع الجزية ، فاستاء الشعب والفقهاء فى غرناطه وخلعوه عام ١٣١٤م وولوا مكانه الأمير اسماعيل بن فرج بن اسماعيل بن الاحمر وفى مستهل حكمه هاجمه القشتاليون وانتزعوا منه مدنا وحصونا كثيرة ، ولكنه لم يلبث أن انتصر عليهم فى موقعة البيرة ١٣١٩م ٧١٩هـ وكان نصره نصرا مبينا إذ قتل فى تلك الموقعة ابن ملك قشتاله و ٢٥ أميرا من بينهم أمير انجليزى كان قد جاء بجيش انجليزى لنصرة المسيحيين، وقتل اسماعيل غيلة بعد حكم دام احدى عشره سنه

وتولى بعده ابنه أبو عبد الله محمد الرابع فكان سلطانا قويا موفقا، وفى ١٣٣٣م استولى على جبل طارق واسترده من المسيحيين وقتل غيلة كأبيه ، فتولى الملك من بعده أخوه أبو الحجاج يوسف، وكان أكثر ملوك هذه الاسرة استنارة وذكاء وعدلا، فازدهرت البلاد ونعم الناس بالعيش الرغيد واستمر حكمه ٢١ سنة وقتل غيلة وهو يصلى فى المسجد ١٣٥٤ م ٧٣٣ هـ وخلفه ابنه محمد الغنى بالله ، وكان نصيرا للعلوم والفنون واستوزر لسان الدين بن الخطيب مؤلف تاريخ الدوله الناصريه ، وحدث أثناء غيابه عن عاصمة ملكه أن خلعه أخوه اسماعيل واغتصب العرش، فسافر من وقته إلى أفريقية واستقر بمدينة فاس إلى أن علم بقتل اسماعيل أخيه فى ثورة واستدعاه أهل غرناطه فعاد إلى عاصمة ملكه وقضى مدة حكمه الباقية فى هدوء وسلام، تقدمت البلاد فى أثنائها وازدهرت ازدهارا علميا واقتصاديا ومات الغنى بالله ١٣٩١ م وخلفه ابنه يوسف الثانى ثم يوسف الثالث و به يختتم تاريخ منعة غرناطة وعزتها ١٤٢٣ م

و بدلت الأيام غرناطة بأمنها خوفا ومنعتها خذلانا، إذ أغار عليها المسيحيون

ومع أنهم هزموا شر هزيمة عند أرقدونة إلا أنهم خربوا ماحول غرناطة ، وعاد داء الفتن والانقسام العضال يدب دبيبه فى جسم الدولة الباقية للمسلمين فى الأندلس ومرت خمسة أعوام تقضت كلها فى تطاحن داخلى زاد المسلمين وهنا على وهن ، ثم أغار القشتاليون على غرناطة واستمرت الحرب طويلا فخربت كل عامر فى أرجاء الامارة من قصور وحصون أصبحت ترابا وحقول عادت يبابا وقناطر لم يبق منها حجرا على حجر ، فاستولى القشتاليون على جبل طارق وأرقيدونة ، وأحدقوا بغرناطة فاضطر أميرها ابن اسماعيل أن يعترف بالخضوع لهنرى الرابع و بحكم البلاد باسمه ، ويدفع له جزية سنوية مقدارها ١٢ ألف دينار واستمر هذا العهد قائما حتى وفاة ابن اسماعيل ١٤٦٦ م

انتهاء حكم المسلمين بالأندلس — سقوط غرناطة

خلف ابن اسماعيل أكبر أولاده أبو الحسن على وكان له زوجان أحداهما ابنة عمه عائشة مسلمة شريفة يجرى فى عروقها دم الملوك ، وله منها أبو عبدالله محمد والثانية اسبانية مسيحية اسمها ايزابلا وهى المعروفة بالزهرة ، وكانت موضع حبه ، وذات الحظوة لديه هى وأولادها مما أحقد عليه زوجته عائشة وابنها ، وأدت ثورة الابن على أبيه إلى ضياع البقية الباقية من ملك الاسلام بالأندلس . و بينما زواج منحوس يهدد الدولة الاسلامية بشر مستطير كان هناك زواج سعيد يعقد فى الدولة الاسبانية المسيحية يبشر المسيحيين بسعد طالعهم وقرب ظفرهم وهو زواج فردناند أمير قشتالة من ايزابلا ملكة أرغونة عام ١٤٦٩ م مما ترتب عليه انضمام ملكيهما ، وانضمت اليهما ليون بعد ذلك وكان كل من الزوجين متعصبا يكره المسلمين ، فصمما على طردهم من غرناطة ، وظلا يترقبان سنوح الفرصة حتى هيأها لهما أبو الحسن نفسه

وذلك ان فردناند أرسل رسله إلى غرناطة فى طلب الجزية فردهم أبوالحسن رداً مملوءاً صلفاً وغروراً ، وقال لهم لقد مات الملوك الذين قبلوا دفع الجزية ، أما أنا فجعلت من دار الضرب مصانع للسيوف وأسنة للرماح ، ثم قاد جنده إلى الزهراء واحتلها بغتة فأثار على نفسه كامن التعصب والبغضاء المسيحية ، وجر على بلاده الويلات والكوارث

وتنبأ العقلاء من أهل غرناطة أن عاقبة الطيش انما هو جر النكبات على رءوسهم ، وان زوال ملك الاسلام قريب وان أيامه معدودة ، وهاجم المسيحيون سريعاً الحامه رداً على مهاجمة الزهراء وكانت الحامه مدينة حصينة على بعد ٥٠ ميلا من غرناطة ، وهى مفتاح الطريق اليها

ولما سقطت فى أيديهم أحرقوها بعد أن نهبوا مافيها ، وقتلوا جميع من بها من الرجال والنساء والأطفال رغم التجائهم إلى مسجدها الجامع ، فاوقع سقوطها الرعب والفزع فى قلوب أهل غرناطة ، وارتفع البكاء والعويل واستنزل الناس اللعنات على رأس من كان سبباً فى ضياعها ، وحاول أبو الحسن مرتين استردادها فلم يفلح فى المرة الأولى ، وكاد يوفق فى المرة الثانية لولا أن خرج عليه فى غرناطة ابنه أبو عبدالله محمد أثناء اشتغال أبى الحسن بقتال العدو ، فاضطر إلى العودة إلى غرناطة حيث كان ابنه قد احتل الحمراء ، ونادى بنفسه سلطاناً على البلاد ورأى أبو الحسن حراجة موقفه فلجأ إلى أخيه محمد المعروف بالزاجل أمير مالقه ، وأرسل فردنياند وايزابلا جيشاً إلى إمارة مالقة فاحرق الحرث ، وقطع أشجار الزيتون والكرم ، ودمر القرى ، وذبح الوادعين من سكانها ولكن الزاجل استطاع أن يهزم المسيحيين ، ويقتل منهم مقتلة عظيمة ، ورأى أبو عبد الله أن اسم عمه أصبح على كل لسان فى غرناطة ، فاراد أن ينافسه ويقلده فى مهاجمة المسيحيين

ولكن هؤلاء هزموه وأسروه و إذ ذاك نزل أبو الحسن لأخيه الزاجل عن ملك غرناطة

ولكن فرديناند وايزابلا وجدا فى أبى عبدالله أداة طيعة سهلة لتحقيق مايرتجيان من نشر التفرقة والانقسام ، و بذر بذور الشقاق بين سكان غرناطة ، ثم القضاء على هذه الامارة المنكودة بعد ذلك ، فاسرعا باعادته إلى غرناطه ، ومداه بالمال الرجال ليحارب عمه الزاجل حتى إذا بلغ منهما الاعياء انقضا عليهما معاوضرباهما الضربة القاضية . و بمساعدة جيش من مسيحى قشتالة وقسم من أهالى غرناطة الذين أشترتهم أمة بالمال استطاع أبو عبد الله محمد أن يستولى على البيسان احدى ضواحى غرناطة ، وعادت المدينة المنكودة تقاسى و يلات الحرب الأهلية وتقدم العم إلى ابن أخيه يناشده الدين والرحم ، و يقترح أن يحكما معا و يقاتلا العدو معا ولكن أبو عبد الله أبى واستكبر

وتلك كانت فرصة العد المواتية فلم يتركها تفلت من يده ،بل انتهزها وأسرع بالاستيلاء على رونده وحصونا كثيرة حولها على مقربة من مالقة وهى امارة الزاجل وفى عام ١٤٨٧م استولى الاسبان على مالقة نفسها وحاول الزاجل استردادها فاعترضه أبو عبد الله وسد عليه المسالك اليها ، و بلغ من دناءة هذا الأمير أن أرسل يهنىء فرديناند وايزابلا بانتصار جيوشهما على عمه الزاجل واستيلائهما على مالقه عاصمة امارته ، ومع أن المدن التى سلمت اعما فعلت ذلك على شرط أن يؤمن أهلها على دينهم وأموالهم وأولادهم إلا أن فرديناند بعدأن تم له الاستيلاء عليها لم يتردد فى نقض العهد والنكث به ، وعرض على الناس العبودية أو الجلاء فاختاروا الجلاء ، وتحالف فرديناند مع أبى عبد الله على اعطائه البلاد التى يفتحها من امارة الزاجل ، واستغاث هذا بملوك المسلمين فى المغرب ، ولكنهم كانوا عن

استغاثته فى شغل شاغل بحروبهم الداخلية ، ولما لم يلب نداه أحد خرج الزاجل إلى أفريقية وسلمت الحاميات الاسلامية فى البشرات

لم يبق إلا غرناطة و بضعة مدن مجاورة ، وظن أبو عبد الله المسكين أن فرديناند وايزابلا تاركاه ينعم طويلا بحكمها ، ولكنه كان فى ظنه واهما إذ لم يكد يبارح الزاجل الأندلس حتى طلبا منه تسليم غرناطة ، ولما رفض وصمم أهلهاعلى القتال إلى النفس الأخير خرب فرديناند الفيحاء ، ودمر المنازل حولها ، وسبى وقتل كل من لقيه من المسلمين ، ثم عاد فرديناند إلى قرطبة

وكان يقود المسلمين موسى بن أبى الغازات وهو من أشجع فرسانهم فملأ المسلمين ثقة بالنصر ، وقاد جيوشهم ومعه أبو عبد الله إلى ما وراء حدود الامارة واستولى على بعض الحصون ، ولكن فرديناند عاد بجيش عظيم عدده ٥٠ الفا و بدأ يخرب كل عامر من جديد و يذبح السكان الآمنين و يعذبهم بأنواع العذاب و يبيح لجنده هتك الأعراض ، وضيق فرديناند الخناق على غرناطة وشدد فى حصارهاعام١٤٩١م — ٨٩٦هفلجأسكانالغوطة إلىداخلأسوارغرناطةوعماليأس وعظم الخطب واشتد الحال ، وكان القوت يصل إلى غرناطه منطريقالبشرات ولم يكن العدو قد قطعه مما قواها على الثبات على الحصار ، وكان القتال معظمه مبارزة ومناجزة فارس لفارس وفيه كان النصر دواما لفرسان المسلمين لبراعتهمفى الفروسية ، ولما رأى فرديناند أنه خسر خيرة فرسانه عزم على أن يحمل الحملة الأخيرة فقطع طريق البشرات ، وعندها عز القوت وجابه الناس شبح المجاعة عام ٨٩٧ ﻫ

الخاتمة :

كانت المدينة غاصة بألوف المهاجرين اليها من المدن الأخرى التى سقطت فى أيدى الأسبان، وكان العدو قد أحرق المزارع حولها وأفسد الأرض وخرب القرى وقرب من المدينة المدافع والات الحصار ، وأمر فرديناند فشيدت أمام غرناطة بلدة سنتافى ، فهال ذلك المسلمين وأوقع الرعب فى قلوبهم لأنهم رأوا فيه عزم المسيحيين على متابعة الحصار صيفا وشتاء ، وكان من المعتاد أن ينسحبوا إلى بلادهم شتاء فيرتاح المسلمون من الحرب ويصلحوا ما اختل من شأنهم ، فلما تمكن فصل الشتاء وكلب البرد ونزل الثلج ، وانسد باب المرافق وانقطع الجالبه ، وقل الطعام واشتد الغلاء وعظم البلاء واستولى العدو على أكثر الأماكن خارج البلد ومنع المسلمين من الحرب وضاق الحال وبان الاختلال ، وطمع العدو فى الاستيلاء على غرناطة بسبب الجوع والغلاء دون الحرب ، اجتمع ناس ممن يشار اليهم من أهل العلم وقالوا أنظروا فى أنفسكم وتكلموا مع سلطانكم : فاحضر السلطان أهل الدولة وأرباب المشورة وكلمهم فى هذا المعنى ، وقال لهم أن العدو يزداد مدده كل يوم ونحن لا مدد لنا وكان ظننا أنه يقلع عنا فى الشتاء فخاب الظن وبنى وأسس وأقام وقرب منا ، فانظروا لأنفسكم وأولادكم » من نفح الطيب للمقرى

ثم شرع ابو عبد الله يفاوض الاسبان على ان يخلى لهم قلعة الحمراء ، وينزل عن غرناطة بما فيها نظير شروط ومطالب ، ولما قبل ذلك فرديناند تليت الشروط على اهل غرناطة ، ونزل السلطان ابو عبد الله من الحمراء شاكيا باكيا وامه تقول له :

ابك مثل النساء ملكا مضاعا   لم تحافظ عليه مثل الرجال

وكانت شروط التسليم ٦٧ منها ان ينزل السلطان عن غرناطة و يسلمها في بحر شهرين إذا لم تصله نجدات من دول اسلامية اخرى ، وللمسلمين في تلك المدة أن يخلصوا بلدهم بالقوة إذا استطاعوا — يقدم السلطان ووزراءه وقواده وفقهاء غرناطة وأهلها عامة فروض الطاعة لفرديناند

يمنح فرديناند أبا عبد الله جزءا من اقليم غرناطة يحكمه برجاله ، يتعهد المسيحيون بأن لا يتعرضوا للمسلمين ولا يعتدوا على ازواجهم ، وأموالهم ودورهم وعقارهم وسيوفهم وخيلهم ، ولا يتدخلوا في اقامة شريعتهم ، فلايهدموا جامعاولا يمنعوا مصليا ، وان لا يحاكم المسلم إلا بشريعته ، ولا يقهر من اسلم على الرجوع إلى النصرانية ، و يسير المسلم في بلاد النصارى آمنا في غير ان يحمل علامة كاليهود ، وان يحكم المسلمين جماعة منهم ، ولا يدفع المسلمون إلا جزية ، وان يطلق المسيحيون سراح اسرى المسلمين ، وان يكون للمسلمين الحق في الخروج بأموالهم واولادهم إلى افريقية متى شاءوا

ووافق المسلمون على هذه الشروط إذ لم يكن في مقدورهم غير ذلك الافائدهم موسى فانه كان يفضل القتال الى اخر رجل من المسلمين ، ولم يثق بعهود المسيحيين وقد رأى كيف ينقضون المواثيق بعد ابرامها ، وكيف كانوا يحاكمون بقية مسلمي المدن الاخرى أمام محاكم التفتيش التى بدأت عملها في أشبيلية عام ١٤٨٠ م ويصلبون و يحرقون من لم يقبل النصرانيـة منهم . ورأى موسى ان الرأى العام مجمع على التسليم ، فالقى بنفسه في النهر ومات غرقا قبيل تسليم المدينة ، وهكذا غربت شمس الاسلام في الأندلس وانطفأت شعلة العلم والفن والحضارة والرقى التى ظلت تنير اوربا الغارقة في ظلمات العصور الوسطى من ٨٨ هـ — ٨٩٧ زهاء

نيف وثمانية قرون ، ولكل شيء غاية ، ولكل أمر نهاية ، وسبحان من يرث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين ، قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير انك على كل شيء قدير

نهاية أبى عبد الله :

خرج الاسلام من أحد أبواب غرناطة ودخل الصليب من باب آخر ورددت احدى جوانب الفضاء الله أكبر وانبعثت من الجانب الآخر ترانيم القسوس ، وخرج أبو عبد الله إلى قرى صغيرة تركها له فرديناند وايزابلا ولكنها ما لبثا أن طرداه منها فخرج إلى أفريقية وأقام بفاس حتى توفى ٩٤٠ هـ ١٥٣٨ م

غدر الأسبان :

لم يلبث الأسبان أن نقضوا العهد ونكثوا بالوعود فبدأوا باضطهاد اليهود ابتزاز لأموالهم ، وأحرقوهم بعد محاكمة هزلية أمام محكمة التفتيش ، ثم جاء دور المسلمين فاجبروهم على التنصر أيضا ، واظهروا من ضروب القسوة والوحشية ما تقشعر له الأبدان ، وامتنعت قرى واماكن عن التنصر فاستأصلها الأسبان قتلا وسبيا واحراقا وطردا ، وكثيرا ما قاتل المسلمون ذبا عن بيضة دينهم ، وانتصروا مرارا وشقوا لأنفسهم طريقا وسط ديار اعدائهم ، منه خرجوا إلى مراكش ومصر وتركيا

وكانت تركيا إذ ذاك فى أوج عزتها ومنعتها واستغاث مسلمو الأندلس بسلطانها فلم يغثهم . أما من بقى من المسلمين فاجبروا على اعتناق النصرانية : اضطروا

إلى اظهار قبولها ، وكان هؤلاء مهرة الفلاحين وحذاق الصناع ، ومع ذلك ظلت الشكوك تحوم حولهم والجواسيس تحيط بهم ، وكانوا يساقون إلى محاكم التفتيش لأقل شك أو ريبة أو وشاية ، وكان جزاء من يحاكم منهم الحرق علنا فى شوارع غرناطة ، وقرطبة ، وأشبيلية ، ومن لم يقبل من المسلمين اعتناق النصرانية اعتبر عبدا رقيقا . وفى عام ١٥٦٨ م أمر ملك اسبانيا فيليب الثانى المسلمين أن يغيروا لغتهم وأزياءهم وأسماءهم فى يوم واحد ، إذ حدثت حوادث فى البحر الأبيض المتوسط أثارت الأسبان على المسلمين ، ذلك أن قرصان البحر من مسلمى البربر أقرباء مسلمى الأندلس أغاروا على ساحل اسبانيا . ولما ثار المسلمون أزاء ما يلقونه من ضروب الاضطهاد وقاتلوا فيلب زهاء ثلاث سنين أخضعهم أخوه دون جوان وذبحهم وحرق مساكنهم

وفى عام ١٦٠٩ م طرد جميع المسلمين من اسبانيا ، وأحرقت كتبهم ومصاحفهم علنا فى شوارع غرناطة وقرطبة ، فخسر العلم وخسرت الانسانية من عمل الاسبان الجهلة ما لا يذكره التاريخ إلا بالحسرة والأسف والمقت لهذا التعصب الذميم .

خرج من الاندلس زهاء نصف مليون من المسلمين ، وسار إلى فرنسا مائتا ألف منهم ومنها تفرقوا إلى بقية ديار المسلمين ، وهكذا خلت الاندلس من مصلحيها ، ومخرجيها من الظلمات إلى النور ، ومن بدلوا تأخرها حضارة ، وجهلها علما ، ومن قضوا على فوضى القوط واستبدلوا بها نظام الاسلام وعدالته ، وبدلوا فقرها غنى ، وخرابها عمرانا وجدبها خصبا ، ولا شك أن روح التعصب الذميم الذى حدا بالاسبان إلى مناوأة المسلمين واخراجهم من ديارهم قد عاد عليهم بالوبال والخسران ، إذ حرمهم ألوفا مؤلفة من نابغى المسلمين واليهود ، مما ترتب عليه تأخر الصناعة والزراعة والتجارة فى البلاد ، واضمحلالها الاقتصادى والعمرانى

الفصل الرابع

الحضارة الاسلامية بالاندلس فى أهم مناهجها

كان الخليفة أو الامير هو الرئيس الاعلى للدولة وصاحب السلطان ورئيس الحكومة فيها ، والمصرف لشئونها ، وكثيرا ما كان يعهد للوزير فى إدارة الشئون نيابة عنه ، وكان لكل مقاطعة وزيرها ومهمته إدارة الشئون المالية والخارجية والنظر فى المظالم وتنظيم الجيش وصرف أعطياته ، وكان هنالك وزراء مهمتهم حضور مجلس الخليفة المشورة ، أما من كان له سلطة ايجابية فى الامر والنهى من الوزراء فكان يلقب بذى الوزارتين ورئيسهم يلقب بالحاجب ، وكان متصلا دائما بالخليفة أو الامير ، وكان يضم الجميع ديوان واحد ، وكانت مرتبة الحاجب أعلى من مرتبة بقية الوزراء

وكان لكل ديوان كاتب خاص يسمى كاتب الدولة . وأهم الكتاب كاتب الرسائل وكاتب الزمام واليهما كان يعهد بالنظر فى شئون غير المسلمين ، ورعاية مصالحهم ، أما حسابات الدولة فكان يشرف عليها صاحب الاشتغال ، وكان ديوانه شبيهاً بوزارة المالية فى عصرنا الحاضر ، وهو الذى كان يقبض الدخل ، ويفرض الضرائب ويضبط الخرج ، ويحاسب ؛ وكان يقوم بهذه المهمة فى عصر دولة بنى الأحمر موظف اسمه الوكيل ، أما صاحب الاشغال فكان يجمع الضرائب ليس غير

القضاء :

كان لكل مدينة قاض ، ومنصبه معدود من أسمى المناصب . أما رئيس القضاة فكان يسمى قاضى الجماعات وحكمه نافذ وأمره مطاع

الشرطة :

كانت مهمتهم حفظ الامن وردع الاشرار ، ورأسهم صاحب الشرطة ، وكان سلطانه عظيم مدة حكم خلفاء قرطبة . أما فى مختلف المدن فكان رئيس الشرطة يسمى صاحب الليل أو صاحب المدينة، وكان مرؤوسا للقاضى . ولمراقبة الاسواق ومنع الغش ومراعاة اعتدال أسعار السلع وضبط الموازين والمكاييل كان هناك شرطى خاص اسمه المحتسب ، وكان حراس الابواب يقومون بغلق المدن بعد صلاة العشاء ، وكانوا يسيرون دائما مدججين بالسلاح وفى صحبتهم كلاب تعاونهم فى مهمة الحراسة

الأسطول:

كان رئيسه يسمى أمير الماء أو قائد الاساطيل على عهد الناصر وخلفائه ، وكان الاسطول على درجة عالية من المقدرة والقوة أيام الامويين والموحدين، وكان يفوق أساطيل جميع الدول المسيحية مجتمعة ، و يقول ابن خلدون ان اضمحلال الاسطول وضعف القوى البحرية وكان من بين أسباب تدهور وانحطاط الدولة الاسلامية فى الاندلس

الزراعة :

لم تبلغ الزراعة فى بلد ما من الرقى ما بلغته فى اسبانيا الاسلامية ، إذ درس

بالعرب الزراعة دراسة علمية ، واستخدموا العلم والبراعة فى قلب الفيافى جنات وزروع ، وعرفوا ملاءمة كل نبات للتربة الخاصة به ، وانواع ومقدار الأسمدة اللازمة لكل نبات : وادخلوا الى الاندلس زراعة الارز وقصب السكر والقطن والاسفيناخ والعصفر وانواع الفاكهة التى توطنت فى الأندلس ونمت فيها وانتشرت منها إلى بقاع اخرى فى اوربا ، وهم الذين ادخلوا شجر النخيل إلى مقاطعة غرناطه وزرعوا الزيتون والكروم وحفروا الترع ، وابتكروا المخصبات وعرفوا خواص التربة ولما دخل فرديناند الأول اقليم اشبيلية عام ١٢٥٥ م وجد به ملايين من شجر الزيتون ومايه الف معصره

الصناعة :

صنع العرب الآلات الحديدية والصلبية ، واشتهرت سيوف غرناطة فى كل انحاء شبه الجزيرة : وادخلوا صناعة المنسوجات الحريرية والقطنية إلى الأندلس وصنعوا الاقمشة الصوفية الدقيقة ، وهم أول من صبغ الملابس ونبغوا فى هذا الفن نبوغا عظيما ، وارتقت صناعة الخزف فى أيامهم رقيا عظيما تشهد بذلك أوعية الزهر ، وأنية قصر الحمراء ، وارتقت تجارتهم واشتهرت بضائعهم فى المشرق والمغرب وكانوا يصدرون النحاس والذهب والفضة والحرير والسكر والزئبق والحديد المصنوع منه والفل والمنسوجات الصوفية ، والعنبر والمسك والزيتون والعقاقير والكبريت ، واستخرجوا المرجان من شواطىء الاندلس ، واللؤلؤ من مغاصات خطالونيه ، والياقوت من مناجم مالقه واشتهروا بدبغ الجلود وصبغها ، وماتت تلك الصناعة بخروج العرب من الأندلس حيث نقلوها معهم إلى مراكش ، واشتهر الجلد المدبوغ بطريقتهم باسم مراكش أو قرطبة ، وأدخل العرب إلى أسبانيا صناعة البارود والورق

الفنون الجميلة :

لم يهمل العرب الفنون الجميلة بل فاقوا جيرانهم المسيحيين . فى النحت والنقش والتصوير ، وامتلأت قصور الخلفاء فى قرطبة والزهراء بالزخارف والصور وتماثيل السباع ورسوم المواقع التاريخية ، وحفلات الصيد وموكب الخليفة ولا يزال باقيا بالحمراء من هذه كثير .

العلوم والجامعات :

ولم تخل مدينة من مدن الأندلس مهما صغرت من مدارس وكليات ، وكان بكل مدينة كبرى جامعات ومدارس عالية ، وأشهرها جامعة قرطبة وأشبيلية ومالقة وسرقسطه ولشبونة وجيان وسلمنقة ، وأشهر من نبغ فى التاريخ من بين طلبتها ابن حيان وله مولفان فى تاريخ الأندلس ، أولهما من عشرة مجلدات والثانى فى ستين جزءاً ، وابن الآبار المتوفى ١٩٠٦ م وأبو عبيد الله البكرى وأبو القاسم خلف المتوفى فى قرطبة ١١٨٣ وأبو الحسن على بن السعيد المتوفى بغرناطة ١٢٨٦م ولسان الدين بن الخطيب وزير يوسف أبو حجاج المتوفى قتلا عام ١٣٧٤ م وكان لكل جامعة رئيس ، ولكل كلية عميد ، واشتهر فى رياسة جامعة غرناطة فى منتصف القرن الثالث عشر الميلادى سراج الدين أبو جعفر عمر الحكمى ، ولم يكن هناك تمييز بين العلماء بسبب دينهم ، وكثيراً ماعين يهودى أومسيحى مديراً لجامعة قرطبة ، وكانت كل جامعة تعقد اجتماعات عامة يحضرها كل من شاء حيث يتلو الطلبه النابغون ثمار قرائحهم وابحاثهم ، وكان مكتوبا على كل كلية « قوام العالم أربع علم الحكماء ، وعدل العظماء ، وورع الاتقياء ، و بسالة البسلاء » ونافس أمراء غرناطة خلفاء قرطبة فى نصرة العلم والفن ، فنبغ فى غرناطة فحول العلماء وكبار الشعراء ونبغ من النساء والاديبات نزهون بنت أبى بكر الغسانى وكانت

ضليعه فى التاريخ والأدب، وزينب وحمده ابنتى زياد الكتبى الذى عاش بوادى الحامه وحفصة الركونية وحفصة بنت حمدون ، وصفية وعاشت فى أشبيلية وكانت خطيبة مقتدرة وشاعرة مجيدة ، واشتهرت بحسن خطها وكتابتها ، ومريم بنت أبى يعقوب الأنصارى ، وكانت تدرس النحو والأدب والشعر ، وممن نبغن فى شمال الأندلس حسانة التميمية بنت أبى الحسين الشاعر ، وأم العلا وعمة العزيز وزينب المربية وعاشت فى عصر المظفر بن المنصور بن أبى عامر وأسماء العامرية باشبيلية و بهجة وصديقتها ولادة بنت المستكفى بقرطبة واعتماد الرميكية زوجة المعتمد بن عباد وابنته بثينة ، وممن نبغ فى الطب والفلسفة وسجلوا اسماءهم فى صحيفة الخالدين أبو بكر محمد بن يحيى المعروف بابن الصائغ ، وكان وحيد عصره فى الطب والفلسفة والرياضة والفلك والموسيقى وأقام بسرقسطة ومات بفاس عام ١١٣٨م والعلامة ابن طفيل ،وعاش على عصر أبى يعقوب يوسف ثانى ملوك الموحدين ومات بمراكش عام ١١٨٥ م ، و يشتهر ابن طفيل بكتابة حى بن يقظان الذى ترجم فى العصور الوسطى إلى اللاتينية ، وابن زهر الاشبيلى وكان أحد أفراد أسرة أنجبت كثيرا من العلماء وتطس الأطباء و كبار الوزراء، وكابن زهر طبيب أبى يوسف المنصور ، وله مبتكرات جمة فى الجراحة والطب وتوفى عام ١١٩٩م وابن رشد، وكان أبوه وجده قضاة لقرطبة وكان هو قاضيا لأشبيلية ثم لقرطبة ، وكان ابن رشد صديقا حميما لابن زهر ، وابن طفيل وتوفى عام ١١٩٨ م وكابى القاسم خلف المعدود فى طليعة جراحى القرن الحادى عشر الميلادى وله طرق فى العمليات الجراحية تطابق الطرق الحديثة ، وابن البيطار صاحب اليد الطولى فى علم النبات ومؤلف كتاب مفردات ابن البيطار الذى لم يقتصر بحثه فيه على ما وصل اليه علم الاغريق بالنبات ، بل ساح من أجله فى جميع أنحاء المشرق للوقوف على خواص

الأعشاب والعقاقير الطبية وفوائدها .

أثر الحضارة الأندلسية فى النهضة الأوربيه

كانت الأندلس حاملة مشعل الحضارة وقبس العلم وسط ظلام العصور الوسطى فكانت مقر الفنون والصناعات الراقية ، وبها من المدارس الجامعة ودور الكتب العظيمة مالا يدخل تحت عصر ؛ فلا عجب أن كانت كعبة القصاد ومهبط طلاب العلم من جميع أنحاء أوربا المسيحية وممن وفدوا على الاندلس راهب تغلب على التعصب الدينى وجاور فى أشبيلية ثلاث سنين ، ثم درج فى وظائف الكنيسة الكاثوليكية حتى رقى كرسى البابوية وهو البابا سلفستر الثانى، ونحا نحوه الكثير من الطلبة فكثر ارتحالهم الى مدارس الأندلس ، حيث تخرجوا فى جامعاتها ثم عادوا إلى أوطانهم يلقون دروس العلم فى ساحات المدن الكبيرة ، وقرب الملوك والأمراء المسيحين علماء المسلمين اعترافا بفضلهم ، فكان الشريف الادريسى الجغرافى الشهير مقربا عند روجار الثانى ملك صقلية، وكان أحفاد ابن رشد مقربين كذلك عند خلفاء روجار ، وفى القرن الثالث عشر للميلاد لما أراد الفرنسيون فتح مدرسة للطب فى مونبيليه بجنوب فرنسا استقدموا للتدريس بها أساتذة من عرب الاندلس ، وعنهم نقلوا علوم العرب وآدابهم

ولم يكن تأثير حضارة الاندلس العربية فى الشعر والمرسيقى باوربا بأقل من تأثيرها فى العلوم والفلسفة ، فقد كان لرقى الشعر وكثرة تداوله بين جميع الطبقات فى الاندلس من الأمير إلى الفلاح أكبر أثر فى تحبيبه إلى الطلاب الاوربين الذين وفدوا على تلك البلاد فى طلب العلم ، ونشر أولئك الطلاب فى أقوامهم تلك النزعة الشعرية التى أثرت فى أناشيدهم وأغانيهم القومية . وقد نقل الاوروبيون

كثيرا من كتب العرب فى الفلسفة والطب . نخص بالذكر منها ثلاث كتب من مؤلفات ابن رشد وهى الكليات فى الطب ، وفلسفة أرسطو ، وكتاب فصل المقال فيما بين الشريعة والحكمة من الاتصال ، وكذا كتاب حى بن يقظان لابن طفيل

تلك كانت شعلة وهاجة قبس منها من كانوا إذ ذاك فى جهالة يعمهون . وشاءت المقادير أن يضىء قبسهم وأن تنطفىء الشعله الأصلية ويخرج الأسبانيون أهلهامن ديارهم بسبب انقسامهم على أنفسهم ، والكيد لبعضهم والالتجاء إلى العدو الذى كان يتربص بهم الدوائر ، وماقامت بينهم من حروب ذهبت بريحهم وعجلت فى القضاء عليهم ، هذا إلى انحلال أخلاقهم وضياع وحدتهم وتماسكهم وانغماسهم فى الترف ، وانصرافهم عن المعيشة الحربية وخشونه الجندية إلى طراوة النعيم ، تلك هى بعينها الأسباب التى أسقطت دولا من قبلهم ومن بعدهم ، تلك أمم قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تظلمون فتيلا

الفصل الخامس

أسباب سقوط الدولة الاسلامية فى الاندلس

ليس فى حوادث التاريخ ما هو أغرب من أخبار الدولة الاسلامية فى الأندلس ولا ما هو أوعظ من سقوطها من علياء مجدها ، بعد أن بلغت من العز والمنعة والحضارة والسطوة ما لم ير له العالم القديم مثيلا ، ففى أقل من عشر سنين بعد غزو العرب أسبانيا عام ٧١١ م تمكنوا من اتمام فتحها فيما خلا بعض أصقاع جبلية فى الشمال الغربى منها ، ولم يقتصر العرب على فتح أسبانيا بل عبروا جبال البرانس وفتحوا جنوب فرنسا وتوغلوا فى أصقاعها حتى صدمهم شارل مارتل فى موقعة بوانيه التى يسميها العرب بلاط الشهداء ٧٣٢ م فاضطروا إلى التراجع بعد قتل قائدهم عبد الرحمن الغافقى . ولو أن تم النصر للعرب لوقعت أوربا فى يدهم ولانتشر الاسلام فى ربوعها ، وتعد موقعة تعد من المواقع الحاسمة فى التاريخ . ولم يحاول العرب الاستيلاء على بلاد الفرنجة بعد هذه الموقعة ، وبدأوا يتراجعون تدريجا إلى الأندلس ولم يبق لهم فيما وراء البرانس إلا مقاطعة سبتمانيا ولم تعد حروبهم فى جنوب فرنسا إلا غارات لا أهمية لها

وحكم الأندلس بعد موسى بن نصير ولاه عدة من ٩٦ — ١٣٨ هـ ، شغل معظمهم عن الفتح بقمع الفتن الداخلية الناجمة عن ظهور العصبيات، واحياء الاحن والحزازات التى نشأت بين الآباء والأجداد فى مجاهل بادية العرب، وأخذ الأبناء والاحفاد يصفون حسابها و يجعلون منها شغلهم الشاغل فى أزهر بقاع أوربا حضارة،

فكانت بلاد الأندلس مسرحا للحروب بين العرب والبربر، ثم بين العرب المضريين واليمانيين، وظهر من هذا المسلك المعوج سوء سياسة العرب، وعجزهم عن إقامة ملك وطيد، لأنهم جلبوا على أنفسهم عداوة حلفائهم البربر لما نالهم من حيف وسوء معاملة، ولم يحافظوا على وحدتهم مع ذلك وسط شعب أجنبي عنهم اشتهر بكبريائه واعتداده بنفسه، ولا حسبوا حسابا لنهضته من كبوته بعد إذ غلب على أمره. وساعد على زيادة الخلل والاضطراب بعد الأندلس عن مقر الخلافة الاسلامية بدمشق مما جعل سلطة الخلفاء الامويين ضعيفة فيها، وتركها فريسة للتطاحن الحزبي، فأصبحت الأحزاب تقيم الأمراء وتعزلهم بلا اكتراث بالخليفة أو عماله في أفريقية. وتضاءلت سلطة الخليفة على أقصى ممتلكاته في غرب أوربا حتى أصبحت شبحاً وزوالا أثناء ما انتاب الأمويين في أواخر ستى دولتهم بالمشرق من احداث جسام. وأخيراً سقطت الدولة الأموية وقامت على انقاضها الدولة العباسية. وبالغ خلفاؤها في اضطهاد بني أمية ودبروا المذابح المتعددة لاستئصال شأنه البيت الأموى

وكانت الاندلس تتخبط في فتن مدلهمة خبط العشواء. وأميرها يوسف بن عبد الرحمن الفهري عاجزاً عن القضاء على الخلافات التي نشأت بين القبائل. فرأى موالى بني أمية فيها نقل الامارة الى أحد الامراء الامويين الفارين من مذابح العباسيين. واستعانوا بجند اليمن وبعض البربر على تنصيب عبد الرحمن ابن معاوية بن هشام. وكان من أثر الجهود التي بذلها بدران رحبت القبائل السورية واليمنة بعبد الرحمن لما دخل الاندلس، وانتصر على يوسف وأصبح أميرا على الاندلس ومؤسسا لدولة أموية دامت قرابة ثلاثمائة عام، واجتازت أدوار ثلاثة:

ففي دورها الاول وطد الامراء ملكهم وأصطدموا بعناصر الانحلال والفوضى فصارعوها وكافحوها ، فترى الداخل وابنه هشاما والحكم بن هشام يظهرون الحزم والعزم والبطش والقوة ، يخضعون الثورات ويغزون الشمال ، ويقلمون أظفار الامراء المسيحيين ، ويقيمون الحكم المطلق ، ويشيدون صروح الدولة الاستبدادية ويقمعون الفتن بحد السيف مما لم يستسغه العرب الذين ألفوا الحرية والف ذووا الحسب من بينهم التسامي الى منافسة الحاكم وغل يديه واضعاف شوكته وسلطانه ، وأعيت شكيمتهم وعنادهم حكمة السواس ودهاء الامراء فلم يكن خضوعهم الا خضوعا وقتيا كلما غلبوا على أمرهم ، ولا يستمر الا ريثما يلمون شعثهم ، ويجمعون شتاتهم ويعدون العدة لثورة أخرى ، ومن عناصر الشغب التي جابهت الحكم بن هشام تطلع الفقهاء والذين درسوا مذهب مالك على ذلك الامام الاعظم بالمدنية الى نوال سلطان سياسي في الاندلس ، وأطمعهم حلم هشام والد الحكم وسماحة خلقه ولين جانبه في زيادة الطموح ، ولما لم يمكنهم الحكم بن هشام من بغيتهم ألبوا عليه الرعاع ، وقاد ثورتهم يحيى بن يحيى وعيسى ابن دينار ، وشبت نيران فتنة دينية كادت تقضي على ملك بن أمية لولا رباطة جأش الحكم وتمكنه من اخماد الثورة والبطش بالثائرين

وفي دورها الاوسط بدت طلائع أفول نجم الدولة الأموية بالأندلس ، بعد موت الحكم لانشغال ابنه عبد الرحمن الثاني بتجميل قرطبة ، وتركه شؤون الدولة في أيدي يحيى بن يحيى ، والسلطانة طروب ونصر الخصي ، ولكنه لم يلبث أن ادرك خطأه فاقصى تلك الايدي العابثة ، واسترد للملك هيبته وسلطانه . ورفع الخصيان محمد بن عبد الرحمن الى العرش ، فساءت سيرته سوء اجلب على الدولة شرا مستطيرا وتألبت الولايات متحفزة للخروج عن طاعته ، فاستقلت طليطلة وتشجع موسى

الثـانى اميرا رجونه، فبسط نفوذه على الولايات الشمالية وحالف الفونس الثالث. وتلك كانت خطوة مشؤومة، ان دلت فانما تدل على انعدام الآخاء الدينى بين كبراء الدولة وساداتها ، وتغليبهم الشهوات والمنافع والاغراض الذاتية على نصرة دين الله واعلاء كلمته . وتجرأت تلك الرذيلة على توطيد قدميها فظهر ابن حفصون مسلما يريد استقلال اقليم من وطنه أول الامر ، ثم كشف عن خبيئة نفسه فارتد عن الاسلام ودعا رعاياه الى أن يفعلوا فعلته ، واستقلت ماردة وسقطت هيبة الامارة ، ولم يطل العهد بالمنذر بن محمد الذى اغتاله أخوه عبد الله بن محمد . وفى عهده استفحل الشر وتوطد ملك ابن حفصون ، وتحركت الاسر العربية والبربرية كل يعمل فى امارته على الانفصال عن قرطبة . ولـكن موت عبد الله وتوليته الناصر أعاد الى الدولة الأموية شبابها ومكنها من استرداد قواها ، فـكانت خاتمة الدور الاوسط عصر الاندلس الذهبى الذى استمر مدة حكم الناصر ، والحكم الثانى والمنصور بن أبى عامر حاجب هشام الثانى ، وولديه عبد الملك المظفر وعبد الرحمن المأمون الذين خلقوا الدولة خلقا جديدا ، و بدلوها من ضعفهـا قوه ، ومن الفتن هدوءا ، ومن الفوضى نظاما ، فقضوا على جميع الثائرين وأعادوا الى البلاد كيانها الذاتى ووحدتها السياسية ، وضموا اليها كل المقاطعات التى كانت قد استقلت عنها ، وحموا الاسلام وردوا عنه عداته ، وزحفت جيوشهم متوغلة فى ديار المسيحيين من أهل الشمال يدكون حصونهم و يذلون كبرياءهم . ويخضدون شوكتهم ، و ردوا الفاطميين على أعقابهم ، وازدادت البـلاد رخاء وثروة ونظاما وعدلا فازدهرت وخطت خطوات فسيحة فى الحضارة والرقى . ولـكن المنصور بن أبى عامر احنق الشعب بتهجمه على العرش واغتصابه كل حقوق الخليفة وسلطانه وألقابه ، فـكان بعمله هذا أول ممهد للقضاء على الدولة الاموية

فى الاندلس ، ومع ذلك فقد تسامح الشعب واحتمل منه استطالته على الخلافة الأموية لكفايته وبطولته النادرة ، أما ولداه فلم يبلغا مبلغه ولم يدركا شأوه ، وتبدى للشعب عجز ثانيهما عبد الرحمن المأمون عن ضبط أموره وأنه مع عجزه هذا فاق الكل فى طغيانه واستهتاره ، و بلغ به الامر أن تجرأ على جعل نفسه ولى عهد للخليفة المستضعف هشام الثانى ، مما أثار عليه ثائرة الشعب فى قرطبة فثار عليه وقتله ، و بقتله انتقلت الدولة الاموية إلى دورها الثالث وهو عصر الفتن والشغب والفوضى ، وفيه تنافس الامراء من أحفاد الناصر فى الاستحواذ على الخلافة وتنازعوا على العرش ، واستعانوا بالمسيحيين على بعضهم البعض حتى أن جنود المستعين لما أرسلوا إلى سانكوا أمير قشتالة يعرضون عليه التحالف و يطلبون منه المعونة وجد رسولهم عنده رسلا من قبل المهدى ، يعرضون عليه التحالف ، و يعدونه بتسليم مدن وحصون اليه ، إذا انضم إلى المهدى و كان الموقف على عكس ذلك تماما منذ خمسة أشهر ، وكان هذا بدء الانقلاب فى تاريخ الاسلام بالاندلس ، ومستهل المآسى المفجعة ، إذ أصبح مصيرها بيد الامراء المسيحيين ، وأصبح المسلمون يستعدونهم على اخوانهم و بنى جلدتهم ، و بعد أن كان المسلمون هم الآمرون الناهون يملون إرادتهم على جميع الامراء المسيحيين إذا بأمير مسيحى واحد هو أمير قشتالة يصبح معقد الرجاء ومناط الآمال والمقرر لمصير الدولة الاموية بالاندلس

ومن مظاهر عصر الفوضى :

(١) أن التنازع على الخلافة لم يكن سوى نتيجة مطامع الوزراء والحساب والقواد ، كل يدفع مرشحا من أمراء بنى أمية إلى الثورة، والوثوب على الخليفة ليصبح هو المدبر للامر باسمه

(٢) استقلال الأمراء والحكام كل فى مقاطعته ، وقيام ملوك الطوائف منفصلين عن قرطبة ، فقام ابن عباد فى أشبيلية وابن ذى النون فى طليطلة ، وابن أبى عامر فى بلنسيه ، وابن الأفطس فى بطليوس ، وابن هود بسرقسطه ، ومجاهد العامرى بجزر البليـار ، والبرزالى فى قرمونه ، وباديس فى غرناطه ، واقتصرت سلطة المستمعين على قرطبة وثلاثة مدن حولها

(٣) استفحال الفوضى وتفكك وحدة الدولة الأندلسية، فاصبح كل امير من أمراء الدويلات الصغيرة ، يصورله الغرور أن ملك كبير يصح أن يكون للمؤمنين أميراً ويحسده أمراء دويلته فيتواثبون على عرشه ، فاذا استتب الأمر لأحدهم طمع فى ملك جيرانه ، وكل يتزلف للامراء المسيحيين يستنصرهم ويستعديهم على بنى ملته ، ولا يجد غضاضة فى الدخول فى ذمارهم وحمايتهم ليشد بهم أزره فى الكيد لجيرانه

(٤) ظهور خلافة بنى حمود فى مالقه حيث تولاها على بن حمود ثم أخوه القاسم بن حمود ثم يحيى بن على بن حمود ثم عادت للقاسم ثم ليحيى مرة أخرى واستمرار الفتن فى قرطبه من عام١٠٠٩ — ١٠٣٦م مما أدى إلى الغاء الخلافة فيها واعلان الجمهورية برياسة ابن جهور

(٥) تولد الأمل فى صدور المسيحيين بحلول ساعة خلاص بلادهم من أيدي الغزاة الفاتحين من العرب والبربر ، فعمل الفونس السادس على ضم الأقطار المسيحية تحت حكمه حتى أصبح أمبراطورا على ليون وقشتالة وجاليقة ونفارا ، على أنه لم يتعجل الحوادث بل أخذ يعتصر أموال المسلمين ، ويستنزف ثروتهم على مهل بما فرض من جزية عليهم ، وأخيرا تبدى له أنه أتم عدته فشرع فى فتوحاته وأعلن على المسلمين حربا صليبية لا تعرف صلحا ولا هوادة ، ويرجع

أصل الشر إلى تلك الشراذم من القوط التى سمح لها العرب عند فتح الأندلس بالانسحاب إلى الشمال ، وتركوها تعتصم فى جباله الوعرة . وهذا الخطأ الذى لا يغتفر هو سبب البلاء ومصدر الكوارث والمحن التى عاناها مسلموا الأندلس بعد ذلك

(٦) تحلل أخلاق العرب والبربر وتبدل طباعهم نتيجة الترف والنعيم الذى انغمسوا فيه ففقدوا خشونة الجندية ، وفشا فيهم داء العصيان العضال ، وقعدوا عن مجالدة العدو الذى اشتغلوا عنه بأنفسهم يكيدون لبعضهم البعض ، و يحالفون الأعداء ، ويكشفون لهم مواطن الضعف فيهم ، مما أطمع المسيحيين فيهم ، وشجعهم على زحزحتهم عن ديارهم ، فكان حكم ملوك الطوائف شرما أضر بالمسلمين ، إذ أن انقسامهم على أنفسهم جر الخراب عليهم ، فاكتسح الفونس السادس ديارهم حتى جبل طارق عام ١٠٨١م وحاصر أشبيلية ودمر شيدونة، وخرب طليطلة ثم استولى عليها ١٠٨٥م وبلغت المذلة بامراء المسلمين من ملوك الطوائف أن أسرعوا جميعا لتهنئته بدخول أمنع مدنهم، فأصبح يلقب نفسه بملك المسيحيين والمسلمين ، واستفحل أمره فاستولى على بلنسيه وحاصر سرقسطة وغزا المريه فعم اليأس ديار المسلمين مما اضطرهم إلى الاستغاثة بالمرابطين

(٧) وأنجد المرابطون مسلمى الأندلس ولكنهم اضطروا إلى ثل عروش ملوك الطوائف ، على أن دولتهم لم تعمر طويلا إذ سرعان ما دبت فيها عوامل الضعف ، وأعاد التاريخ نفسه فبسم الحظ لملوك الشمال المسيحيين الذين عادوا يزحفون جنوبا ، وهددوا قرطبة ، فاستغاث عرب الأندلس بالموحدين ، وهذه الدولة أيضا أصابها ما أصاب سابقتها من العجز والضعف والفناء ، وعاد الداء العضال يدب دبيبه ، فى ذلك الجسم المريض فتجزأت دولة الموحدين بين أمراء

متحاسدين متباغضين يكيد بعضهم لبعض ، ويستنصر الكل بالمسيحيين ولم يكن هؤلاء بغافلين عن حقيقة حال جيرانهم ، ولا كانوا بحاجة إلى من يحثهم على القضاء عليهم فأخذوا يهاجمون قرطبة عاصمة المسلمين ، حتى سقطت في أيديهم عام ٦٣٤هـ ١٢٣٦ م ، ولم يقف في وجه المسيحيين سوى بنو نصر أو بنو الأحمر الذين استقلوا بغرناطة عام ٦٣٠هـ ١٢٣٢م

(٨) انكمش ملك الاسلام فى تلك الامارة التى بدأت قوية واستطاعت أن تصمد للعدو وترد غاراته زهاء قرنين ونصف قرن من الزمان لمناعة موقعها ، وعدم اتحاد الأمراء المسيحيين ضدها . ولقد شيدت تلك الامارة للاسلام مجدا خالدا فى ديار الأندلس ، ورفعت منارة ، وحمت ذماره ، ورقت الصناعة والزراعة وحمت العلوم والفنون ، ولكن داء الفتن والخصام وهو بلية البلايا فى تاريخ الدولة الاسلامية بالأندلس ، عاد فقضى عليها . فبينا كان زواج منحوس يهدد البقية الباقية من ملك الاسلام بالزوال والضياع كان هناك زواج سعيد يعقد فى الدولة الأسبانية المسحية يبشر المسحيين بسعد طالعهم وقرب ظفرهم ، وهو زواج فرديناند أمير قشتالة من ايزابل ملكة أرغونة عام ١٤٦٩م مما ترتب عليها انضمام ملكيهما وانضمت اليهما ليون بعد ذلك ، فلم يلبث الزوجان المتعصبان أن أسقطا آخر معاقل الاسلام فى ديار الأندلس واستوليا على غرناطه ١٩٤٢ م ، و بذلك انتهى حكم المسلمين وذهبت ريحهم وغربت شمسهم . أن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم فاعتبروا يا أولى الأبصار

الباب التاسع

قيام الادارسة والاغالبة والفاطميين بافريقية

الفصل الأول

الأدارسة

ظلت أفريقية منذ فتحها المسلمون فى أثناء خلافة الأمويين ولاية اسلامية تعترف بالسلطة الزمنية والروحانية لخليفة المسلمين وأمير المؤمنين ، حتى انتهى حكم المهدى الخليفة العباسى الثالث ، وحدث فى زمن الهادى أن قامت فتنة فى المدينة المنورة من جانب العلويين ، وقد زعم الفتنة الحسين بن الحسن المثلث بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن على بن أبى طالب ، وانضم اليه أهل بيته وأبناء عشيرته نذكر منهم ادريس ويحيى وسليمان من أولاد عبد الله بن الحسن المثنى وقد استفحل أمر الثورة واشترك فيها الكثيرون ، فنهض عامل الخليفة على المدينة وهو عمر بن عبد العزيز من نسل عمر بن الخطاب وقاوم الثوار ولكنه غلب على أمره ، و بايع الناس الحسين العلوى فاشتد ساعده وخرج من المدينة زاحفا على مكة المكرمة ، واستعدت قوات العباسيين للاقاتة ، ودارت رحى الحرب بين الفريقين فى مكان يقال له فخ على ثلاثة أميال من مكة ، و بعد قتال عنيف دارت الدائرة على العلويين وقتل زعيمهم ، وذلك فى سنة تسع وستين ومائة هجرية

وكان من نتائج هذا الانتصار أن تفرق من بقى من العلويين فى أنحاء الخلافة الاسلامية ، ففر يحيى إلى بلاد الديلم ودعا لنفسه ودخل الناس فى طاعته ، واشتدت شوكته ، وظل فى تلك البلاد حتى جاء عصر الرشيد فسير عليه جيشا بقيادة الفضل بن يحيى البرمكى ونجح الفضل فى الاحتيال عليه ، وأمنه ، وقبل يحيى الأمان وسار الى بغداد ، واستقبله الرشيد استقبالا عظيما ، ولكنه قبض عليه بعد ذلك وسجنه ، وظل فى سجنه حتى مات

وأما ادريس فانه فرمتجها نحو الجنوب ودخل مصر ، واتصل بعامل البريد المسمى واضح وكان من الشيعة ، وبفضل معاونته استطاع ادريس أن يخرج ومعه مولاه راشد ، متجها نحو المغرب الأقصى حيث نزل بمدينة وليلى عام ١٧٢ ﻫ وكانت وليلى وقتئذ قاعدة جبل زرهون . وكانت مدينة حصينة كثيرة المياه والغروس والزيتون ، وكان لها سور عظيم . وكان يحكمها ابن عبد الحميد الأوربى زعيم قبيلة أوربة . وكانت من أعظم قبائل البربر بالمغرب الأقصى وأكثرها عددا

استقر ادريس بمدينة وليلى ، وأعلن دعوته فدخلت قبائل البربر بالمغرب الاقصى فى طاعته . واعترفت بزعامته وكون لنفسه امارة اسلامية فى تلك البقاع انفصلت عن جسم الخلافة الاسلامية ، ثم أخذ يجند الاعوان والانصار ويسير بهم غازيا القبائل التى تحيط به ناشرا لواء الاسلام بين الامم المغربية التى كانت لا تزال على نصرانيتها أو على دينها اليهودى ، فانتشر الاسلام فى تلك الارجاء بفضل دعاويه . وازداد عدد أنصاره واشتهر أمره ، وفى عام ١٧٣ ﻫ خرج غازيا وفتح مدينة تلمسان وأخضع قبائل زناتة وبنى مسجدا فى تلك المدينة لا يزال قائما حتى يومنا الحالى

وفاة ادريس

بلغت الرشيد شهرة ادريس فحقد عليه وخشى على أملاكه من استفحال أمره . وعزم على التخلص منه . وجمع الوزراء والقواد للمشاورة . واستقر رأيهم على أن يرسل الرشيد رجلا إلى ادريس يحتال على قتله والخلاص من منافسته ووقع الاختيار على سليمان بن جرير المعروف بالشماخ . وقبل الرجل القيام بما عهد اليه وزوده الرشيد بمال وأرسل معه الكتب الى ولاته فى الاقاليم ليسهل له أمر التنقل فيها ، ووصل الشماخ إلى بلاد المغرب وقصد الى وليلى ونزل بهاواتصل بادريس وتقرب اليه. وكان الشماخ ممتلئا من الادب والظرف والبلاغة عارفا بصناعة الجدل فاستطاع أن أن يكتسب الحظوة عند ادريس وأصبح له نفوذ عظيم فى و بين رجال دولته . وقد انتهز الشماخ فرصة مواتية ودس السم لادريس أما فى طيب واما فى سنون، فمات ادريس وهرب الشماخ إلى بلادالمشرق قافلا إلى بغداد وذلك عام ١٧٧ هـ

إدريس الثانى :

لم يترك ادريس الاول من يخلفه على العرش ، بل ترك زوجة تسمى كنزة وكانت حاملا فى الشهر السابع من ، حملها واستطاع راشد أن يقنع رؤساء البربر . بالاستمرار على ولائهم لآل ادريس الثانى حتى تضع كنزة ، وأقام هو بتدبير شئون دولةالادارسة . ولما وضعت المرأة حملها وكان ولدا سماه راشد ادريس وظل يتعهده حتى كبر وتسلم شئون ملك أبيه .

يقول ابن خلدون : « بايع البربر ادريس الأصغر حملا ، ثم رضيعا ، ثم فصيلا

إلى أن شب فبايعوه بجامع مدينه وليلى سنة ثمان وثمانين ومائة ، وهو أبن احدى عشرة سنة »

وقد اختلف المؤرخون فى تاريخ وفاة راشد فمنهم من قال إنه مات قبل مبايعة إدريس الثانى بسنتين ، ومنهم من قال إنه مات قبل المبايعة بعشرين يوما ، وقال فريق ثالث إن راشدا لم يمت حتى أخذ البيعة لسيده عندما ظهر له من فورة عقله ونباهته وفصاحته ما اذهل عقول الخاصة والعامة ، وعندما تمت البيعة صعد ادريس المنبر وخطب خطبة العرش ، وحض الناس على التمسك بطاعته ، فعجبوا من فصاحته وقوة جأشه على صغر سنه ، وتسارعوا إلى بيعته ، وارتموا عليه يقبلون يده، وأعلنت قبائل المغرب من زنانة ، واوربة ، وصنهاجه، وغمارة، وسائل قبائل البربر الطاعة له

استقام له الأمر بعد ذلك ، وتوطد ملكه ، وهرعت اليه الوفود من عرب أفريقية والأندلس فاتخذ منهم الحرس والبطانة والوزراء ، وضاقت وليلى بمن فيها فعزم ادريس على بناء مدينة جديدة ليتخذها مقرا لحكومته، وبعد ارتياد الاماكن وقع اختياره على موقع مناسب ، وبنى فيه مدينة فاس عام ١٩٢هـ ، وانتقل اليها فعمرت وازدهرت ، وأصبحت كعبة القصاد . ومجتمع الرواد

فتوحاته :

فرغ إدريس من بناء فاس وتعميرها ثم التفت إلى محاربة القبائل التى لم تخضع لسلطانه ، والتى لم تعترف له بالبيعة ، وجهز الجيوش وخرج بها غازيا فى ١٩٧هـ ، وقاتل المصامدة واستولى على مدينه نفيس ، ومدينة اغمات ، ثم رجع إلى عاصمة بلاده منتصرا بعد أن بسط نفوذه على سائر بلاد المصامدة ، ثم خرج بعد

ذلك بسنتين لغزو قبائل نفزة واستولى على مدينة تلمسان وأصلح سورها وجامعها وبنى فيه منبرا جديدا و بعد أن أقام بها ثلاث سنوات رجع إلى فاس .

قال ابن خلدون . « انتظمت لادريس بن ادريس كلمة البربر وزناته . ومحا دعوة الخوارج منهم ، واقتطع المغربين عن دعوة العباسيين من لدن السوس الأقصى إلى وادى شلف . ودافع ابراهيم بن الأغلب عن حماه بعد ما ضايقه بالمكان واستفساد الأولياء حتى قتلوا راشدا مولاه ، ولكن عجز هؤلاء الأغالبة بعد ذلك عن مدافعة الادارسة فبقى ملك المغرب لادريس . وضرب السكة باسمه واستمر بدار ملكه إلى أن توفاه الله ثانى جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة ومائتين وعمره نحو ست وثلاثين سنة ، ودفن بمسجده بازاء الحائط الشرقى منه سنة ٢٢٠هـ وهى توافق ٨٢٥ م »

محمد بن إدريس :

تولى أمر الأدارسة بعدوفاة ادريس الثانى ابنه محمد بعهد منه اليه . وأخذ يقسم البلاد بين اخوته وعينهم أمراء وحكاما على الاقاليم والقبائل المختلفة . فأخلصوا جميعاً فى خدمته ، وظلوا كذلك طوال حكمه . ولم يشذ منهم غير واحد يسمى عيسى إذ خرج عليه فى مدينة آزمور وحاول الاستقلال بنفسه ونبذ الطاعة، فكتب إلى أخيه القاسم حاكم طنجة يأمره بالخروج لمحاربة عيسى فامتنع القاسم، فكتب إلى أخيه الثانى عمر لاخضاع الثائر، فأطاع الامر وأمده محمد بالمال والرجال وزحف على الثائر وحاربه وتغلب عليه وانتزع منه امارته وطرده منها ، ثم زحف لمحاربة القاسم وتغلب عليه أيضا واستولى على مابيده ، حتى أصبح سيد بلاد الريف البحرى . وظل مواليا لاخيه حتى توفى سنة ٢٢٠ هـ ، فاحتفل أخوه بموته احتفالا

كبيرا وحمله إلى فاس ودفنه إلى جوار أبيه ، وعمر هذا هو جد الاشراف الحموديين الذين أسسو لهم ملكا ببلاد الاندلس كما مر بنا ، وظل محمد أميرا على البلاد حتى توفى عام ٢٢١ هـ ٨٣٣ م ، وفى أيامه حسنت أحوال الرعية وكثر الخراج

وخلفه على العرش ابنه على وكان فى التاسعة من عمره فعاونه فى إدارة الشئون وزراء أبيه وأعمامه وأقاربه ، وسارت الامور فى الدولة على أتم ما يكون حتى توفى فى السنة الثانية والعشرين من عمره ، ولم يترك عقبا فتولى الامور من بعده أخوه يحيى

ولاية يحيى بن محمد (٢٣٤ — ٢٦٤ هـ . ٨٥٠—٨٧٨م)

قام يحيى بالامر وكان حاكما قديرا ، فامتد سلطانه وعظمت دولته واتسعت مدينة فاس ، وبنيت بها الحمامات والفنادق للتجار ، وقصد اليها الناس من الاندلس وأفريقية وجميع بلاد المغرب ، وأصبحت من البلدان العامره وفى عصره بنى مسجد القرويين المشهور

اضمحلال ملك الادارسة وسقوط دولتهم

مات يحيى بن محمد بعد حكم موفق طويل وذلك فى عام ٢٦٤ هـ وخلفه ابنه يحيى الثانى . ولكنه كان ظالما غشوما سار سيرة رديئة فى حكم البلاد . فثار الناس فى وجهه . وطردوه من عرشه ففر إلى بلاد الاندلس وظل بها حتى مات وخلفه على العرش ابن عمه « على بن عمر » واستولى على فاس . ولكنة لم يعمر طويلا فى الحكم ، إذ قامت فتن بين الاهالى أثارها « الخوارج » وغلبوا عليا على أمره وطردوه من عرشه وفر هو ايضا إلى الاندلس واختار الناس حفيدا من أحفاد ادريس الثانى يسمى « يحيى بن القاسم » ورفعوه الى عرش الدولة

وتلقب « بيحيى الثالث » . ودخل الناس فى طاعته وكان فقيهاً ورعا ومشرعا كبيرا ومحدثا عظيما استطاع أن يرجع للبلاد هدوءها ، ونشر لواء الامن والسلام بين ربوعها ، ولكن حدث فى أيام حكمه أن قوى نفوذ الفاطميين فى شمال أفريقية، واستطاع مصالة بن حبوس حاكم مكناسة الفاطمى أن يثير عليه حربا عوانا انتصر فى نهايتها وطرده من فاس عام ٣٠٩ هـ ، واستولى على ملك الادارسة . وقد اعتزل يحيى أمور الدنيا واعتكف يعبد الله مخلصا وظل كذلك حتى توفى عام ٣٣١هـ فى مدينة (المهدية) وبموته انقرضت دولة الادارسة فى أفريقية ، وتفرق أمراؤها فى أطرافها وحكموا أقاليمها النائية يدافعون عنها جهد طاقتهم ، ويجاهدون فى سبيل استقلالهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا . ولكن حدث فى عام ٣١٩ هـ أن أرسل عبد الرحمن الناصر لدين الله حاكم الاندلس حملةعسكرية إلى بلاد المغرب قضت على استقلال الكثيرين منهم وحملت عدداً منهم إلى قرطبة . ووضع الناصر بذلك بذور دولة بنى حمود التى سيطرت على العرش الاموى بالاندلس فى أوائل القرن الخامس للهجرة، بعد انفراط حكم الامويين فيها . وقد خضعت الاقاليم الغربية من بلاد المغرب إلى حكم الامويين بالاندلس وتملك الفاطميون الاقاليم الشرقية ، وانقلبت بلاد المغرب إلى ميدان قتال ومركز صراع بين الامويين فى الاندلس والفاطميين فى أفريقية، مما قرأنا عنه فى مواضع أخرى

الفصل الثانى

ثانيا: الأغالبة

(١٨٤ — ٢٩٦ هـ) — (٨٠٠ — ٩٠٩ م)

كانت أفريقية تابعة للخلافة العباسية، ولكنها كانت مصدر اضطراب من الوجهتين السياسية والاقتصادية للدولة الاسلامية، إذ كانت تكلفها سنويا مائة الف دينار تدفع لسد نفقاتها من ايرادات القطر المصرى وفى زمن الرشيد تقدم أحد قواده العظام « ابراهيم بن الاغلب » وطلب إلى أمير المؤمنين أن يوليه أمرها وتعهد له أن يعيد الأمن إلى نصابه و يعمل على اخماد الثورات فى تلك البلاد الثائرة، وأن يدفع لبيت مال المسلمين فى بغداد أربعين الف دينار سنويا، معلنا استغناءه عن الأموال التى كانت تدفعها الخلافة الرشيدية إعانة لحكومة أفريقية فاستشار الرشيد كبار رجالاته فيما عرض عليه ابن الأغلب، ونصحه قائده الكبير « هرثمة بن أعين » أن يقبل لما كان يعرفه من أحوال افريقية وكثرة ثوراتها واضطراباتها المتكررة. قبل الرشيد العرض وعين «ابراهيم بن الاغلب» حاكما على افريقية على أن يظل الحكم له مدة حياته و يبقى وراثيا فى اسرته من بعده على شرط أن يعتمد الخليفة ولاية كل متول بصفة رسمية عند بدء توليته، و بذلك استقلت افريقية استقلالا ذاتيا وخضعت لحكم «الأغالبة»، وكان ذلك فى سنة ١٨٤ هـ — سنة ٨٠٠ م

كان (ابراهيم) حاكما قديرا و إداريا ماهرا استطاع فى مدة وجيزة أن

ينشر العدل بين ربوع افريقية ويعيد إلى البلاد طمأنينتها وهدوءها ، وقد بنى فى خارج مدينة (القيروان) مدينة جديدة سماها (العباسيــة) ونقل اليها مقر الحكومة ، فعمرت وازدهرت بالمبانى الشاهقة ، وبعد أن حكم حكما موفقا لمدة ١٢ عاما توفى وخلفه فى الحكم ابنه عبد الله سنة ١٩٦هـ ، وظل حاكما حتى توفى سنة ٢٠١هـ ٨١٧ م ويقول ابن الأثير (أن عصره كان عصر هدوء وسكينة وفيه أثرى الناس ثراء عظيما) وبعد موته خلفه أخوه أبو محمد زيادة الله بن ابراهيم وكان أميرا واسع المطامع محبا للعلم نصيرا للأدب والأدباء ، ولكنه كان متكبرا لدرجة استفزت غضب رؤساء العشائر بالبلاد فثاروا فى وجهه ، ولكنه استطاع أن يقمع ثورتهم ويقضى على عصيانهم ، وذلك فى سنة ٢٠٨ هـ ٢٠٩ هـ وارجع للبلاد الأمن والسلام

فتح صقلية :

يروى المؤرخون أسبابا كثيرة لقيام حملة الأغالبة لفتح جزيرة (صقلية) ورفع لواء الاسلام بين ربوعها ، وتختلف الرواية المسيحية عن زميلتها الاسلامية اختلافا بينا : فيقول مؤرخو الفرنج (إن شابا بيزنطيا فر من اضطهاد الامبراطور البيزنطى إلى افريقية وحسن لأمير الاغالبة الحملة على صقلية ومهد له السبيل وأنار أمامه الطريق ، فجهز ابن الاغلب الحملة وارسلها إلى الجزيرة تحت قيادة قاضى القضاة (الامام أسد بن الفرات) ويقول ابن الاثير (إن أمبراطور الروم أرسل أحد نبلائه المسمى (قسطنطين) حاكما على صقلية وقد عين قسطنطين قائدا للاسطول يسمى « فيمى » وهذا أغار بأسطوله على شواطئ افريقية وخرب انزالها والقى الرعب فى قلوب المسلمين على سواحل افريقية ، ثم غضب الامبراطور على فيمى وطلب

إلى حاكم الجزيرة أن يقبض عليه وأن يلقيه فى غياهب السجن و يعذبه عذابا أليما لأسباب خاصة ، فثار فيمى فى وجه الحاكم وطرده من الجزيرة وأعلن نفسه حاكما عليها . ثم قامت الحرب بينه و بين حاكم « بالرم » وانتصر حاكم بالرم ومن معه من الحلفاء ، واستطاع خصوم فيمى أن يدخلوا (سرقوسة) فلجأ « فيمى » إلى « زيادة الله الأغلب واعترف بسيادته على صقلية ولذلك قامت الحملة العسكرية التى نحن بصددها ».

قامت الحملة العسكرية فى شهر ربيع الاول سنة ٢١٢ هـ ونزل عسكر المسلمين بمدينة مازورة (اغرار) من مدن صقلية ، وحاربوا المسيحيين وانتصروا عليهم وتقدموا نحو مدينة «سرقوسة» وحاصروها حصارا شديدا ، وحول أسوارها مات قائد الحملة « الامام أسد » ومات معه عدد كبير من جنده بسبب انتشار عدوى الطاعون بينهم ، فتولى القيادة بعده « محمد بن أبى الجواري » ودخل سرقوسة واستولى على غيرها من بلدان الجزيرة ثم مات ابن الجوارى » ومات بعده حليفه «فيمى» وتولى قيادة المسلمين « زهير بن غوث » ، وحاول امبراطور الروم فى ذلك الوقت اخراج المسلمين من الجزيرة ولكنه لم يستطع بسبب الامدادات التى وصلت الى المسلمين من افريقية وأسبانيا ، وتمكن المسلمون بعد ذلك من الاستيلاء على « بالرم » عاصمة الجزيرة وذلك فى شهر رجب سنة ٢١٦ هـ ، وسقطت المدن بعد ذلك الواحدة تلو الأخرى وأرسل زيادة الله من قبله حاكما قديرا من أفراد أسرته يسمى « أبو الأغلب ابراهيم بن عبد الله » ساس الأمور فى الجزيرة على أفضل الاساليب الادارية والسياسية ، وتقدم بالفتوحات الاسلامية حتى دخل الأقاليم التى حول بركان « أتنا » وتملك مدينة « نابولى » عروس إيطاليا فى الوقت الحاضر

موت زيادة الله :

مات زيادة الله بن الاغلب بعد حياة حافلة بجلائل الأعمال فى شهر رجب سنة ٢٢٣ ﻫ يوليه سنة ٨٣٧ م

عصر أبى عقال بن الأغلب ابراهيم :

تولى الامارة فى افريقية بعد وفاة أخيه ، وكان حاكما قديرا حذا حذو أخيه فى السياسة والفتح حتى أن المسلمين فى عهده تغلبوا على شواطى « كابريا » الايطالية ، ولكنه مات بعد حكم زاهر دام قصيرا وذلك فى شهر ربيع سنة ٢٢٦ﻫ وخلفه « أبو العباس محمد بن الأغلب » ويصفه المؤرخون بأنه كان حاكما مستنيرا ومصلحا عظيما

وفى سنة ٢٢٨ﻫ أرسل الفضل بن جعفر الهمذانى » حاكم صقليـــة حملة عسكرية على مدينة « مسينى » ، وبعد أن حاصرها نحو سنتين ودخلها عنوة منح أهلها شروطا دلت على مقدار تسامح المسلمين فى فتوحهم فى ذلك الوقت وقد استمر الفضل يفتح البلدان الايطالية الواحدة بعد الأخرى حتى استولى على البلدان والمدن التى حول رومة نفسها ، وتقدم اليها لفتحها لولا أن قام نزاع بين أمراء العرب وقوادهم كان من نتائجه أن أنقذت رومية من السقوط فى أيدى المسلمين ولكن المسلمين استأنفوا سيـــاسة الغزو والفتح حتى سيطروا على معظم بلاد إيطاليا الجنوبية ، ومات أبو العباس محمد بن الأغلب سنة ٢٤٢ ﻫ وخلفه على عرش الأغالبة ابنه أبو ابراهيم أحمد بن محمد واستمر يحكم نحو سبع سنوات ، وفى عهده عاد الامن إلى نصابه وتمتعت البلاد برخاء كبير وبنى الحصون والمعاقل فى أنحاء دولته ، حتى بلغت على قول المؤرخين ١٠ آلاف حصن ومعقل تقف حائلا فى وجه المغيرين على بلاد الاغالبة

وفى أثناء ولايته طلب إلى « العباس بن الفضل » والى صقلية أن يغزو قصر الحديد ومدينة « شلفورة » وفتحها ونزل باسطوله إلى جزيرة « كريت » وحارب الاسطول البوزنطى محاربة عنيفة ، وانتصر ولكنه مات سنة ٢٤٧ هـ فتقلد بالحكم فى صقلية ابنه وتولى قيادة الجيش والأسطول واستأنف سياسة الغزو والحرب فى ايطاليا وجزر البحر الأبيض

توفى أبو ابراهيم أحمد بن محمد فى شهر ذى القعدة عام ٢٤٩ هـ وجلس على عرش الاغالبة « زيادة الله ابن محمد الاصغر » ولكنه حكم حكما قصيرا ، وخلفه على العرش أخوه « أبو الغرانيق » محمد بن أحمد ، ويصفه ابن الاثير بأنه كان حاكما عالما عاقلا متحليا بالصفات الجميلة وفى عهده أوفد حاكم صقلية « محمد بن خفاجة » أسطولا غزا جزيرة « مالطة » واستولى عليها والحقها بشمال افريقية ، وكان مقام المسلمين فيها أطول وأثبت من مقامهم فى صقلية وأثرهم لايزال باقيا حتى الآن

ولكن استطاع الروم على الرغم من ذلك أن يستردوا كثيرا من البلدان والاقاليم التى خضعت للحكم الاسلامى ، ولما مات فى شهر جمادى الآخرة سنة ٢٦١ هـ تولى الملك بعده أخوه (ابراهيم ابن احمد) واشتهر بالتقوى والصلاح فى أول عهده ولكنه انقلب ظالما غشوما فى أواخر أيامه ، وعمد إلى القتل من غير مبرر قوى مما أثار غضب رعيته ، فثاروا فى وجهه وأرسلوا الشكوى تلو الأخرى إلى الخليفة العباسى (المعتضد) فخلعه الخليفة وعين مكانه ابنه (أبا العباس) عبد الله محمد ابن ابراهيم ، وكان حاكما على صقلية وذلك عام ٢٨٩ هـ سنة ٩٠٢ م وقد برهن الحاكم الجديد على رجاحة عقل وعدل بين الرعية وحنق فى الادارة وعلم بأمور الحرب ولكن تآمر ابنه عليه طامعا فى الحكم ودس عليه ، من ذبحه وهو على فراش النوم

فحرمت البلاد من ذكائه وحذقه ، وتولى الحكم بعده ابنه (أبومضر) زيادة الله بن أبى العباس وهو آخر حكام الأغالبة فى أفريقية

تولى الحكم فى أفريقية لمدة ست سنوات (٢٩٠—٢٩٦هـ)—(٩٠٣—٩٠٩م) وكان ظالما سفاكا للدماء مستهترا يعاشر اخوان السوء ويلازم الناى والقدح فجر الخراب على البلاد واضمحل فى عهده ملك الأغالبة ، وسقط على يد الفاطميين الذين ظهروا فى ذلك الوقت وأسسوا الدولة « العبيدية » فى شمال أفريقية على انقاض دولة الأغالبة ، وكان من نتائج ذلك أن تعطل الفتح الاسلامى فى أوربا وانقلبت جيوش المسلمين فى أفريقية شرا مستطيرا على العالم الاسلامى ، إذ قوضت دولة اسلامية بعد أخرى وعملت على التعجيل بسقوط الدولة العباسية فى المشرق . وتحولت السياسة الاسلامية تجاه أوربا من الهجوم والتوثب إلى الدفاع والتسليم .

الفصل الثالث

الفاطميون

الفاطميون فريق من الشيعة يقولون إنهم من نسل فاطمة الزهراء زوج الامام علي ، وان رسول الله أوصى له بعده بالامامة على المسلمين وانها صارت من علي إلى الحسن ثم الحسين ثم علي زين العابدين ثم ابنه (محمد الباقر) ثم ابنه (جعفر) الصادق المتوفى بالمدينة سنة ١٤٨ ﻫ وهؤلاء الشيعة يسمون (بالامامية) واختلفوا بعد هذا الامام السادس ، فقد كان له ولدان أحدهما اسماعيل ولي عهده ولكنه مات قبل أبيه عام ١٤٥ وثانيهما (الكاظم) خلف أباه

فأغلب الشيعة الامامية يرون أن الامامة صارت من (جعفر) إلى ابنه (موسى) ثم ابنه (علي الرضا) ثم ابنه (محمد التقي) ثم ابنه (الهادي) (ثم ابنه الحسن العسكري) ومات هذا سنة ٢٦٠ ﻫ وترك جنينا وضعته أمه وسمته (محمدا) زعموا أنه دخل مع أمه سردابا في جامع (سامرا) فلم يعدو أنه حي واتخذوه اماما ولقبوه المهدي ، وهم الآن ينتظرونه فهو عندهم المهدي المنتظر والامام الثاني عشر — ولذلك يسمون (الاثني عشرية) و يروى أنهم بعد صلاتهم المغرب يقدمون مركبا بجهازه وحليته إلى السرداب و ينادونه (أيها الامام اخرج الينا فان الناس منتظرون والخلق حائرون والظلم عام والحق مفقود، فاخرج الينا نقرب الرحمة من الله في آثارك ومذهبهم منتشر في المدينة والشام والعراق

وقد تصدى خلفاء بني العباس لأئمة الاثني عشرية بالاهلاك . فقد أشخص (هارون الرشيد) موسى الكاظم من المدينة إلى بغداد وحبسه حتى مات مسموما

سنة ١٨٣هـ و بعد أن عهد المأمون لعلى الرضا بالأمر من بعده وكان بخراسان سمه «على ماقيل» فى الطريق إلى العراق ودفن « بطوس » سنة ٢٠٧هـ وقال بعضهم ان المقتدر سم «عليا الهادى» سنة ٢٥٤هـ وحبس الحسن العسكرى بسامرا حتى هلك سنة ٢٦٠ ، ودفن فى جانبها المعروف «بالمشهد » وفيه السرداب الذى زعم الشيعة أن مهديهم يخرج منه ، والقليل منهم يرون أن الامامه حلت فى «اسماعيل» فان الله عهد بها اليه على لسان أبيه جعفر و إلا له لا ينقض عهده ، وأنها انتقلت من اسماعيل إلى ابنه «محمد المكتوم » ثم ابنه « جعفر المصدق » ثم ابنه « محمد الحبيب » ثم ابنه « عبيد الله المهدى » صاحب الدولة الفاطمية فى افريقية — وهؤلاء هم « الاسماعيلية » وكان أئمتهم مستورين ولهم دعاة ظاهرون فقد وجه أمامهم جعفر إلى افريقية الحلوانى وأبا سفيان وقال لهما « بالمغرب أرض بور فاذهبا واحرثاها حتى يجىء صاحب البذر» فنزلا أرض كتامة ففشت دعوتهما فيها — وأنفذ أمامهم محمد الحبيب وكان ينزل سلمية من أرض حمص بالشام « رستم » بن الحسن بن حوشب الكوفى إلى اليمن لاقامة دعوتهم فيه ومبشرا بقرب ظهور المهدى،فسار إلى عدن ودعا و بشر وقاتل و غلب حتى ملك « صنعاء » من بنى يعفر ، واجتمع به وهو فى « عدن » أبو عبد الله الحسين الصنعانى وحضر مجالسه وأخذ عنه ، فانفذه ابن حوشب » إلى المغرب حين بلغه موت الحلوانى وصاحبه

وقيل أن أباعبد الله كان محتسبا بالبصرة ويعرف بالمعلم لأنه كان يعلم مذهب الامامية ، فاتصل بمحمد الحبيب فارسله إلى « ابن حوشب » وهذا أرسله الى « كتامة» بعد أن زوده بعلمه، فسار الى «مكة» فالتقى بموسم الحج رجالات كتامة ورؤساءهم واستمالهم اليه بعلمه ودهائه فالفوا صحبتـه ودعوه الى بلادهم ، فرافقهم

ومروا بمصر وسلكوا طريق الصحراء عادلين عن طريق « القيروان » مركز حكومة بنى الأغلب ودخلوا (كتامة) سنة ٢٨٠ وقيل سنة ٢٨٨ﻫ فنزل أبوعبدالله الشيعى فى فج الأخيار من بلدى انكجان أو ايكجان ، ودعا الناس إلى مذهب الشيعة وأعلن أمامة أهل البيت فاتبعه أكثر كتامة ، وأخذ أمره يستفحل شيئا فشيئا حتى انتزع البلاد من أيدى (بنى الأغلب) وفر أميرهم الأخير زيادةالله من مدينة (قادرة) وملكها الشيعى سنة ٢٩٦ ﻫ — فى هذه الأثناء مات الامام (محمدالحبيب) وخلفه ابنه (عبيد الله المهدى) فدعاه الشيعى من المشرق وألقى اليه مقاليد ملك أفريقية فنزل (رقادة) سنة ٢٩٧ هوسكنها إلى أن اكمل بناء (المهدية) على البحر سنة ٣٠٦ﻫ .

و بناء على ماسبق يكون عبيد الله المهدى بن محمد بن جعفر بن محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق بن محمد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب وقيل عبيد الله المهدى بن محمدبن عبدالله بن ميمون بن محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق — وعلى كلا القولين ينتهى نسب المهدى هذا إلى على بن ابى طالب — وقد أثبت صحة هذا بعض المؤرخين وذهب آخرون إلى أنه موضوع وأنه لم يكن اسم المهدى (عبيدالله بل اسمه) « سعيد » وأنه ابن الحسين ابن محمد بن أحمدبن عبدالله القداح بن ميمون بن ديصان ، وأن هؤلاء زنادقة نشئوا فى بلاد فارس وابتدعوا مذهبا شطوا فيه عن الاسلام وأولوا نصوصه كما شاءت أهواؤهم ، ووضعوا الأحاديث الكاذبة وشككوا الناس فى دينهم وادعوا أن تكاليف الشرع قيود للعامة ساقطة عن الخاصة ، وأحلوا الأخوات والأمهات وكانوا يظهرون التشيع لآل البيت ليستروا أمرهم و يستميلوا العامة اليهم ، وكان لهم دعاة فى البلاد يظهرون الزهد ليغروا الناس بذلك وهم على خلافه ، وأن جدهم ديصان

واضع كتاب الميزان فى نصرة الزندقة ، وقد تعلم (عبد الله) القداح الطب وعلمه أبوه المذهب وأطلعه على أسرار هذه النحلة ، وسمى قداحا لأنه كان يعالج العيون. ويقدحها وسار القداح من كرج وأصبهان إلى الاهواز والبصرة والكوفة وطالقان وخراسان وسلمية من أرض حمص يدعو الناس لآل البيت، ثم توفى وخلفه (أحمد) وادعى أنه من سلالة على بن أبى طالب وصحبه (ابن حوشب) الكوفى فأرسله إلى اليمن ، ثم خلفه ابنه (الحسين) وسار إلى (سلمية) وكان ذا مال ووكلاء وغلمان، فتزوج امرأة يهودية مات عنها ولها ولد اسمه (سعيد) فأحبه الحسين وتبناه وأدبه وعلمه وعرفه أسرار الدعوة وعلاماتها وعهد اليه بالأمامة ، فخلفه بعد وفاته وتسمى (عبيد الله المهدى) وجعل له نسبا وهو (عبيد الله بن الحسين بن على ابن محمد بن على بن موسى بن جعفر الصادق .) وهذا النسب يدل على أنه جعل نفسه مهدى الاثنى عشرية المنتظر ، وقد انتشرت دعوته و بذل الأموال وأرسل اليه « أبوعبدالله » الشيعى رجالا من كتامة ليخبروه بما أتيح له من النصر وأنهم ينتظرونه ، وشاع الخبر و بلغ المكتفى بالله العباسى فطلبه فهرب هو وولده إلى أفريقية وأسس فيها الدولة الفاطمية » سنة ٢٩٦هـ

ويؤخذ من « دوزى » أن أصل الفاطميين من الفرس، وأن جدهم « عبد الله ابن ميمون » الفارسى كان طبيبا للعيون حاذقا فى الفلسفة واللاهوت ، وقد بلغ من أمره أنه هم بالتنبؤ لولا أن رأى آيات الخذلان، فانحدر إلى منزلة « المهدى المنتظر » فأحيا مذهب الاسماعيلية وكاد يتقلص ظله عقب أن حل بأشياع على ماحل بهم من الخيبة والفشل فى مقاصدهم وقتل كثير منهم بالحديد والسم وانزواء بقاياهم فى « خراسان » « وقندهار »

وكان له دعاة فى سائر الجهات يبشرون الناس بقرب ظهور « المهدى المنتظر »

تمهيدا له أو لمن يخلفه فى سيادة هذا المذهب من أبنائه ، ومن هؤلاء الدعاة (ابو عبد الله الصنعانى) دخل أرض (كتامة) من أفريقية سنة ٢٨٠ هـ ، وكان نشيطا جريئا فصيحا ذا دهاء ومكر عارفا مايلائم عقول البربر ، فأخذ يدعو الكتاميين إلى محبة اهل البيت ويعدهم بخير الدنيا والآخرة إذا ذهبوا بسلاحهم لنصرتهم ويبشرهم بأنه سيظهر قريبا من نسل فاطمة بنت النبى صلى الله عليه وسلم امام معصوم ، يقيم قسطاس القول بين الناس وانه المهدى الوارد فى الحديث المأثور ، وما زال يخلب قلوبهم بسحر بيانه وقوة عارضته وبرهانه حتى صدقوه ومالوا اليه ، وقاموا تحت لوائه وكانوا أولى قوة وكثرة فانتزعوا المدائن من يد آخر امير من بنى الأغلب بعد أن حكموها حقبة تنيف عن قرن من الدهر ، وألجؤوه إلى الفرار من (رقادة) حاضرة القيروان ، وفى سنة ٢٩٦ هـ دعا هذا الشيعى سيد منهب الاسماعيلية فى ذلك الوقت (سعيدا) من ذرية عبد الله بن ميمون طبيب العيون وأجلسه على سرير ملك افريقية ، فادعى « سعيد » إنه من نسل جعفر الصادق وسمى نفسه « عبيد الله المهدى »

جهود أبى عبد الله الشيعى فى تأسيس الدولة الفاطمية :

لعب أبو عبد الله الشيعى دورا مهما فى تأسيس الدولة الفاطميـــة فى شمال افريقية ، وهو يماثل الدور الذى مثله أبو مسلم الخرسانى فى تأسيس الدولة العباسية فى بلاد خرسان وما اليها من قبل

غادر أبو عبد الله اليمن قاصدا مكة ، وفيها اجتمع بالحجاج من بلاد كتامة وحدثهم عن فضائل آل البيت ، واكتسب محبتهم ، ولما وثق بميلهم إلى دعوته رحل معهم من مكة إلى مصر ، وعرف منهم أحوال بلادهم ، ثم تظاهر بالرغبة فى

تحصيل العلم بمصر، ولكن الكتاميين طلبوا اليه بالحاح أن يسافر معهم إلى أوطانهم لما رأوا من ورعه وزهده فاجاب طلبهم، واستأنف الجميع السير حتى أصبحوا على مقربة من بلاد كتامة فخرج إلى لقائهم أصحابهم الذين اينعت وأثمرت فيهم تعاليم الشيعة على يد دعاة الاسماعيلية من قبل، وتنافس الكتاميون فيما بينهم على دعوة الشيعي لينزل ضيفا عليهم، وأحلوه من أنفسهم محل الاعتبار والاجلال، وسأل الشيعي عن « فج الأخيار » فدلوه عليه فقصده ونزل به وهنا قال لهم: « هذا فج اخيار، وما سمى إلا بكم، ولقد جاء فى الآثار للمهدى هجرة ينبو بها عن الأوطان، ينصره فيها الأخيار من أهل ذلك الزمان، قوم اسمهم مشتق من الكتمان، ولخروجهم فى هذا الفج سمى فج الأخيار »

وفج الأخيار هذا يقع فى جبل ايكجان فى أرض كتامة على مقربة من مدينة قسطنطينة، تعرف بمناعتها، يسكنها قبائل من كتامة، وكانت بها أسواق عظيمة وكانت كبيرة آهلة بالسكان، وقد عظم شأن الشيعي فى ذلك المكان وهرعت اليه الجموع من كل قبائل البربر، ولما آنس من اشتداد نفوذه بين أهل كتامة كشف لهم عن قصده وقال لهم « أنا صاحب البذر الذى أخبر به أبو سفيان والحلوانى » فازدادت محبتهم له، وأصبحت هذه المدينة دار هجرة للشيعي، ومركزا لحركته، وملتقى لانصاره من البربر

وقد بدأ الشيعي أعماله الحربية فى سنة ٢٩١ هـ (٩٠٣م) إذ اختار أحد زعماء كتامة قائدا للجيش، وهو الحسن بن هرون الغسانى وبفضل مساعدته استطاع الشيعي أن يتغلب على كل ما اعترض من المصاعب والمتاعب، واستقام له أمر البربر وعامة كتامة، ثم أخذ يزحف على القرى والمدن وملكها، ثم أرسل اليه ابراهيم بن الأغلب ابنه الأحول على رأس جيش لمحاربته فخرج به من

تونس زاحفا إلى أرض كتامة وتغلب عليها ثم التقى بقوات الشيعى فى مدينة تاحروت واقتتل الفريقان وانتصر الاحول واستولى على المدينة ، وفر الشيعى إلى الجبل و بنى به دار هجرة جديدة وقصده الناس واشتد ساعده مرة ثانية بعد عودة الأحول إلى بلاده

تجددت الحرب بعد ذلك بين الفريقين وانتهت بانتصار الشيعى وصحبه ثم مات ابراهيم بن الاغلب وتولى الشئون بعده زيادة الله بن الاغلب ، فاشتغل باللهو والترف وقتل أخاه الاحول ، وانتقل من تونس إلى رقادة وكان من نتائج ذلك الضعف بين الاغالبـة أن اشتد ساعد الشيعى وعلا شأنه بين أعوانه ، وانتشرت جيوشه فى البلا تفتحها ولا تجد مقاومة تذكر ، وجاهر الشيعى بدعوته وأخذ يقول : « يخرج المهدى فى هذه الايام و يملك الارض ، فطوبى لمن هاجر إلى وأطاعنى » ثم أخذ يغرى الناس بزيادة الله الاغلبى و يعدد نقائصه ، وكان وزراء ابن الاغلب يعتنقون المـذهب الشيعى ولذلك كان لا يسوءهم ظفر أبى عبد الله الشيعى ، وبخاصة لأنه كان يذكر لهم من كرامات المهدى، وأنه يحيي الموتى ، ويرد الشمس، و يملك الارض بأسرها ، فاشتاق الناس لرؤيته ، وتمنوا ظهوره

خروج عبيد الله المهدى إلى المغرب :

عهد محمد الحبيب إلى ابنه عبيد الله بالامامة من بعده وقال له «أنت المهدى وتهاجر بعدى هجرة بعيدة ، وتلقى شديدة »

وقد تولى عبيد الله امر الشيعة بعد وفاة ابيه ، واتصل خبره بسائر دعاته فى اليمن وافريقية ، وارسل اليه الشيعى رجالا من كتامة . يخبرونه بما اتاح الله

لداعيه من نجاح وأنهم فى انتظار ظهوره بينهم ، وكان الخليفة العباسى قد عرف أمرة فأرسل فى طلبه ففر من سلمية ومن ابنه أبو القاسم نزار إلى بلاد اليمن ولكنه عدل عن الدخول إليها بسبب سوء سيرة داعينه فيها ابن حوشب ، وقصد اللحاق بأبى عبد الله وجاء إلى مصر وأقام فيها مستترا بزى التجار ، وحاول أمير مصر القبض عليه تنفيذا لأمر الخليفة فلم يوفق وخرج عبيد الله منها إلى طرابلس وكان بصحبته أبو العباس أخو أبى عبد الله الشيعى ، ثم وصلا إلى القيروان وعرف بخبرهما زيادة الله بن الأغلب فقبض على أبى العباس وسجنه، وفر المهدى ووصل إلى مدينة قسطنطينة وخرج منها إلى سجلماسة ونزل على صاحبها اليسع بن مدرار فأكرم وفادته ولكنه قبض عليه بعد ذلك وسجنه تنفيذا لأمر زيادة الله وقيل تنفيذا لأمر الخليفة العباسى المكتفى

كانت الحرب لا تزال مستمرة بين الشيعى و بين زيادة الله إذ جهز زيادة الله أربعين ألفا من العساكر وزحف بقوته إلى كتامة ونزل إلى قسطنطينة وانضم اليه من أهل كتامة من لم يدخلوا فى طاعة الشيعى وأقام بتلك المدينة سنة وشهر ، ثم استعد الشيعى لمنازلته وخرج لملاقاته ودارت رحى القتال بين الطرفين وانتهت بانتصار الشيعى وغنم جميع ما كان مع زيادة الله من عدد وآلات ، فازداد الشيعى بهذا النصر قوة ونفوذا وكتب إلى المهدى يخبره بفوزه ، وزحف بعد ذلك إلى مدن أخرى فملكها ، واستعد زيادة الله لمقابلته مرة أخرى وخرج بنفسه على رأس جيش لمحاربته ، وسير جيشا آخر مع ابن عمه ابراهيم بن الأغلب لمعاونته، وبعد مناوشات عديدة بين الطرفين وقع القتال بينهما وانتصر الشيعى وفر زيادة الله إلى مصر ، ومنها سافر إلى الرقة و بقى فيهـا حتى مات عام ٣٠٤هـ فى أيام الخليفة المقتدر

أما ابراهيم بن الأغلب فقد رجع إلى القيروان وطلب إلى أهلها الالتفاف حوله وجمع منهم الأموال للاستعداد للحرب ، فثاروا فى وجهه ورجموه فخرج عنهم واستمر الشيعى يفتح البلدان وزحف على رقادة ودخلها وأمن أهلها ومنع النهب وخرج اليه الفقهاء وأهل القيروان ، وسلموا عليه وهنأوه بالفتح وكان ذلك فى يوم السبت مستهل رجب سنة ٢٩٦ ﻫ وصلى الجمعة فى القيروان وخطب بالمسجد من غير إشارة إلى أحد بالدعاء

وقد تم له أمر المغرب بالاستيلاء على رقادة والقيروان وعلا شأن الشيعة بتلك الأقطار ، ثم أخذ الشيعى يرسل العمال إلى النواحى ، وأمر بجمع أموال الأغالبة وسلاحهم ، وأمر بضرب السكة ، ثم خرج بعد ذلك إلى سجلماسة على رأس جيش كبير لمقاتلة اليسع بن مدرار ودارت بين الفريقين حروب طاحنة انتهت بفوز الشيعى واستيلائه على المدينة ، ولما دخل الشيعى المدينة انقذ المهدى وابنه من السجن فى ٧ ذى الحجة سنة ٢٩٦ ﻫ ثم أقام بها أربعين يوما وخرج الجميع إلى ايكجان وأخذوا الاموال التى بها ، وساروا إلى رقادة فوصلوا اليها فى ١٠ ربيع الاول سنة ٢٩٧ ﻫ و بذلك أصبح المهدى صاحب الامر والنهى فى افريقية والمغرب بعد أن زال منها ملك الاغالبة وملك بنى مدرار من سجلماسه ، وملك بنى رستم من تهارت ، وتلقب المهدى بأمير المؤمنين ، وأمر جميع العمال أن يذكروه بهذا اللقب فى كل النواحى والامصار ، ونرى أن الفضل فى اقامة الدولة الفاطمية فى افريقية والمغرب يرجع أولا الى الجهود الجبارة التى بذلها أبو عبد الله الشيعى ، والى ما قام به من نشر الدعوة الفاطمية فيها باساليب الحزم والعزم ، والظهور بالورع والتقوى ، وثانيا الى معاونة البربر من أهل كتامة وغيرهم تلك المعاونة الصادقة التى تغلب الشيعى بوساطتها على الاغالبة وغيرهم واقام ملكا

قاطميا على انقاض الملك العباسى فى افريقية والمغرب

لم يكتف الفاطميون بما ملكوا فى افريقيه والمغرب بل تطلعوا الى مصر، واخذوا يعدون العدة للزحف عليها ولما تم استعدادهم فى نحو ثلاثين سنة زحفوا بجيوشهم واساطيلهم ونجح قائدهم جوهر الصقلى فى الاستيلاء على الاسكندرية والفيوم والصعيد، ثم حارب من بقى من بنى طغج واقتلع دولتهم، واختط مدينة القاهرة ثم ارسل الى الخليفة الفاطمى المعز لدين الله الفاطمى يدعوه الى الاسراع بالحضور الى مصر، وذلك بعد ان فرغ من بناية الجامع الازهر سنة ٣٦١ هـ فلبى الخليفة دعوة قائده وخرج من المغرب فى السنة عينها متجها نحو مصر فدخلها فى شعبان سنة ٣٦٢ هـ واستقبله الناس استقبالا حافلا وبذلك تأسست الدولة الفاطمية فى مصر، وقد مر ذكر خلفائها بك فيما درسته من التاريخ الاسلامى

سقوط الشيعى :

استولى المهدى على عرش البلاد الافريقية والمغربية كما اسلفنا، وباشر الشئون بنفسه، وجمع السلطة الادارية والدينية فى يده فغضب ابو العباس اخو الشيعى من جراء ذلك، واخذ يشكك الناس فى امر المهدى، ونشر الدعاية ضده بين اهل كتامة وغيرهم من قبائل البربر، وحاول الشيعى مرارا وتكرارا ارجاع اخيه عن مجاهرته بالعداء للمهدي فلم يفلح، واخيرا بلغت هذه الأخبار المهدى فتغير على الشيعى وعلى اخيه وعزم على التخلص منهما، واخذ يعد العدة للفتك بهما ووزع انصارهما على الأقاليم النائية ولما آنس بقوته ارسل نفرا للقبض على الشيعى واخيه، فقام هؤلاء النفر بما امر به المهدى وقتلوا الشيعى واخيه فى

النصف من جمادى الآخرة سنة ٢٩٨ هـ فى مدينة رقادة ، وثارت فتنة من جراء قتلهما إذ جرد اصحابها السيوف، ولـكن المهدى تغلب على الثورة وقتل زعماءها وعلى ذلك كانت نهاية الشيعى نهاية محزنه تماثل نهاية ابو مسلم الخراسانى ، وكان ابو عبد الله الشيعى من الرجال الأفذاذ الخبيرين بما يصنعون ، بل انه من رجالات التاريخ الذين استطاعوا بفضل دهائهم وسعة حيلتهم ان يسقطوا دولة عظيمة ويقيموا على انقاضها دولة اخرى كبيرة من غير مال ولا رجال

انتهى بعونه الله وقوته

فهرس الكتاب

صفحة

الباب الثانى

الباب الثالث

صفحة

الباب الرابع

الباب السابع

ملوك الطوائف

الباب الثامن

المرابطون والموحدون بالاندلس

الباب التاسع ٢٨٦

قيام الادارسة الاغالبة والفاطميين بأفريقية


الفتح الإسلامي في افريقية والمغرب
وبلاد الأندلس وفرنسا
ورسم الشيخ محمد فخر الدين المدرس بدار العلوم
بحر الروم
المغرب الأوسط
المغرب الأقصى
الأندلس
كتامة
زناتة
افريقية
البحر المحيط
مملكة الفرنج
صقلية
سردانية
المغرب الأقصى